

الفتى الذى صمد

محمد بهاء الدين محمد عبد الحميد

هذه القصة فازت فى مسابقة نادى القصة المصرى عام 1975 /74 وكان ترتيبها الخامس على عشر روايات أخرى تم إجازة دخولها المسابقة .. وكنت قد دخلت بها قبل ذلك مسابقة النادى عام 1972 /71 بإسم " غدا تنطق الأحجار " وكان ترتيبها الرابع .. وكان يرأس النادى وقتها الأديب الكبير المرحوم " يوسف السباعى " وأذكر من أعضاء لجنـتى القراءة والتحكيم أدباء وأساتذة كبار هم جميعا فى ذمة الله الآن وهم الأساتذة :

د / سهير القلماوى .

د/ سمير سرحان .

د / سيد حامد النساج .

أ / صالح جودت .

أ / عباس خضر .

أ / حسين القبانى .

أ / توفيق حنا .

أسأل الله لهم جميعا الرحمة وأن يدخلهم فسيح جناته فقد قدموا جميعا خدمات جليلة لوطنهم وللعروبة .

كما أتوسم فى أنفسنا وفى الأجيال الجديدة ألا يحبطوا أبدا فالخير فى رسولنا وفى أمتنا الى يوم القيامة .

المؤلف :

مهندس زراعى

محمد بهاء الدين محمد عبد الحميد .

مقدمة

ارجو قراءة هذه القصة على اساس انها قصة انسانية ووطنية معا لان قراءتها خارج هذا الاطار سيجردها من كل مقوماته لاسيما ان اعتبرها القارئ قصة وطنية فحسب ... فانه انذاك لن يجد فيها ما يرضيه .. وبالتالي سيكون حكمه عليها سيئا ... لان القصة الوطنية بالمفهوم الذى شاع ورسخ بالاذهان .. هى القصة الحماسية .. او القصة التى تعالج القضايا الوطنية .. او المواقف التاريخية .. على انها بطولات وصور نضالية فقط .. وصولا الى مؤثرات وجدانية معينة فى نفس القارئ .. ولو على حساب الحقيقة ال تاريخية او الانسانية .. التى يجوز ان اسميها بالحقيقة الموضوعية .. فأنا فى هذه القصة عمدت الى مخاطبة العقل والوجدان معا .. وصولا الى مؤثرات فكرية وجدانية اثبت وأبقى ... مع ملاحظة أننى لا ازعم بقولى هذ اننى أتيت بشئ جديد .. لعلمى بأن بعض كتابنا الكبار قد اتهمج هذا المنهج .. ولم يقتل من قيمة عمله أحد .. ببساطه هكذا لانه كاتب كبير .

ثم أننى أعتذر عما قد توحى به كلمتى تلك من محاولة لتوجيه ذهن القارئ وجهة معينة أو التأثير فى رأيه .. فأنا لم أقصد إلا عرض رأى ككاتب جديد .. الأمر الذى أعتقد أنه من حقى .. فى عهد أص .. بح الفكر

فيه حرا .

المؤلف :

محمد بهاء الدين .

يناير 1971

فوجئ "سامح" وهو فتى صغير فى الصف الثامن من مدرسة " يافا " الابتدائية برجل لامع الوجه فارع الطول يعترض طريقة ويمنعه من دخول مدرسته قائلا له فى صوت دمث م هذب :

- آسف يا سيدى !

وأربكته المفاجأة ومنظر الرجل المخيف لطفل مثله بساعته الذهبية التى تتلألأ حول معصمه وبزته السوداء والخواتم الثلاثة التى تتحلق أنامله فى غثائه المغ الألة وينافس بريقها الأخاذ ذلك البريق الأكثر رهبة فى عينيه فارتد إلى الوراء مذعورا دهشا يكتسح المرئيات أمامه بنظرة فاحصة متأملة وتساءل " أو تراه أخطأ طريقة فولج مكانا محرما عليه دخوله ؟ " لكن السؤال لم يدم أكثر من الوقت الذى استغرقة فى إمتلاك انفاسه المبهورة وفى تلاشى الغمامة التى غشيت عينيه ذهولا .. من إجترأ رجل مهما بلغ به الحول والطول على الحيلولة بينه وبين دخول مدرسته ، التى أصبح يقينا الآن أنها هى ببوابتها الحديدية الخضراء وبسي اجها الأبيض المرتفع إلى الحد الذى يجد معه التلاميذ الأشقياء - وبالأخص تلاميذ الصف السابع والثامن - صعوبة بالغة فى إعتلائه هربا من ملل الدراسة ، أو هربا من أمر آخر لا يدركه ، والذى يحيط مبنى المدرسة وفناءها وحديقتها إحاطة تامة . إلا فى هذا الجزء الذى تحتله البوابة . تلك التى يقف امامها هذا الرجل الغريب المحتل الذى حار فى تبيان شخصيته حيرة شديدة .. " ترى من هو ؟ " . أهو المدير الجديد يطبق أحدث أساليب التربية الحديثة ؟! أم هو .. هو ماذا ؟ . من المستحيل أن يكون مدرسا . فالمدرسون وإن كان فيهم المسلمون والمسيحيون والدروز واليهود . إلا أنهم لا يمنعون التلاميذ من دخول المدرسة ... وأكثر إستحالة ان يكون .. يكون ماذا ... ؟ البواب .. إن البواب رجل عجوز وأنا أعرفه حق المعرفة . وهو يعطف على لاننى فقير مثله .. ولأن أبى مات فى المعتقل .. اما هذا ... آه ... أكون أحد رجال البوليس

السرى المرافق للشخصيات البارزه .. وإن كان فمن أمره أن يرافق البوابة ؟ ! ربما يكون هناك ثمة شخص هام .. وزير المعارف والثقافة مثلا . قادم لزيارة المدرسة .. وهل هذا يمنع إدخاله .. إن الوزير حين يزور مدرسة من مدارس الاقليات يفعل ذلك ليلتقى بهيئة التدريس والتلاميذ على سبيل الـ ... الـ ماذا ... ؟ .. آه ... إن اكثر الوزراء تطرفا يفعل هذا ويحرص عليه بقلبة وكيانه .. إذن ماذا ... ؟ .. يا الهى لا يمكن ان يكون صحيحا ان هذا الرجل يمنع من دخول مدرستى ! " هكذا كان يحدث نفسه قبل ان يعاود محاولة الدخول راجف الفؤاد متعثر الخطو .. وكان يتوقع فى حالة رفض الرجل دخوله مرة ثانية انه سيعلن ذلك بدفعه او لكزه أو أى شىء آخر من قبيل العنف ، إلا أنه أذهله ثانية بلطفة المفتعل وبترفقه فى الطريقة التى يعامله بها كأنه احد السادة قائلا له بهدوء يختلط فى صوته لكنه مرح ساخر طفيف :

- ألم أقل لك آسف يا سيدى .. أم أنك تشك فى وجود سيد آخر غيرك فى هذا المكان .. ؟ ! فتقهقر إلى الخلف بضع خطوات ، تعروه الدهشة أكثر من الخوف واليأس ، ويأخذ بختافة السلوك المهذب الذى يبدية الرجل تجاهه ، رغم نحوله ورثاة ثوبه .. وكل شىء يحتمل إلا سيدى تلك .. إنها كلمة ماثرة للخيال حقا ، وتضيف الى الموقف شحنة قوية من اللبس والغموض وسقوط الأمور غير المغهومة فى يديه الصغيرتين !! ..

إن الرجل يبدو جادا فى عزمة الشاذ .. ولا يخال ابدا انه يمزح معه .. فأى سبب شيطانى يدعوه إلى إعتراض سبيله .. أأكون قد ارتكبت فى حق العلم والمدرسة جريمة أستحق عليها العقاب .. وكيف يحدث ذلك دون أن أدرى .. ثم أننى أعرف تماما أن المدرسين جميعهم على إختلاف مللهم يشهدون لى بالنبوغ المبكر والخلق القويم .. وبا لأمس .. بالأمس فقط .. رثت جائزة على تفوقى .. ولا يزال صدى الـ تصفيق لمئات الأيدى التى التهبت إعجابا بى فى الحفل الذى حضره الجميع بما فيهم .. نائب مدير إدارة المعارف والثقافة للعرب ورئيس المجلس البلدى .. إلا أسمى بالطبع .. آه .. كالعادة لم تحضر لأنها لم

تكن تملك كالعادة الثوب المناسب .. لا يزال صدى هذا التصقيف المبهج يرن فى أذنى ..
وأنا نفسى أشعر ان فى اعماقى قوة كامنة للعلم .. ولولاها ما شعرت قط بمثل تلك الثقة
التي تلهمنى ذاتى .. حين امثل المدرسة فى المسابقات العلمية التي تدخل فيها مع المدارس
الأخرى .. متحديا بينيتى الضعيفة وثوبى الباهت يكاد يتفتق .. أوائل طلبة هذه المدارس
الأقوياء البنية الذين يرفلون فى الأثواب الجديدة الأنيقة .. وكل هذا الكلام طيب .. إلا أنه ..
طيب .. ماذا يريد هذا الرجل منى بالضبط ؟ .. إستغرقه هذا السؤال طويلا وهو يقدر ذهنه
باحثا عن دليل واحد يقنعه بأن تلك المعاملة نوع من العقاب له ، و إستبعد أن يكون هناك
خطأ ما . لئتشابه الأسماء . أو تماثل الأشباه فلا يوجد تلميذ واحد يماثله ذكاء ورقة حال .. !
.. كما انه فيما بدا له يوقن أن هذا الرجل لم يرى وجه من وجوه تلاميذ المدرسة قبل هذا
الصباح .. حتى يخلط بين تلميذ وآخر يستحق هذا العقاب وبينه ، ثم أنه بوجه ما من
الوجوه ولسبب باطنى لا يفهمه ، يعتقد أن الأمر ليس فيه أدنى خطأ ، وانه المقصود فعلا
بتلك القسوة ..!

وخطر فى ذهنة خاطر عجيب ، لما لم يجد تفسيراً واحداً يبده له سحائب الغموض وحين
إمتلأ نور عينية الخابى بأنوار الساعة الذهبية البراقة ، انه ربما يكون الوقت قد خانه لعدم
وجود ساعة معه ، وانه ربما يكون قد تأخر عن الميعاد وانهم وضعوا هذا الرجل فى ذاك
المكان ليقول له " آسف يا سيدى " وحين يسلطه السبب سيجيبه بأنه تأخر وانه ينصحه
لكيلا يتكرر هذا التأخير بأن يشتري ساعة " س !! " .. اجل فهكذا تلح الاعلانات التي
يسمعهها - على البعد - فى راديو الجيران .. ! .. وربما يكون هذا هو التفسير الوحيد لأناقة
هذا الرجل ولما يعنيه العمل الذى أنيط به ، فهو مندوب متجول لشركة " س " لا ريب
...!.. وتساءل " كيف تسمح له المدرسة بذلك ؟ " ثم كاد أن يصدق تلك الأكذوبة المريحة
التي أختلقها له خياله الخصب .. لولا انه - لدهشته - لاحظ ان التلاميذ مازالوا يتوافدون
على المدرسة ، وان الرجل أهم من ذلك لا يفكر - مجرد تفكير - فى إعتراض طريق أحد

م نهم .. وآلمه هذا الاكتشاف المريع ألما شديدا .. فقد صار يقينا لديه أنه لا أحد غيره المقصود بتلك المعاملة ، واكتظ الغيظ فى قلبه وأوشك أن يصرخ فى وجه الرجل .. بيد أن ملامح هذه الرئيه تكفلت بتهدئته فتشجع قليلا وأردف فى قوة من يدافع عن حقه :

- سيدى .. هل حقا هذا .. انى لا أكاد ان أصدق ..!

- أنت ممنوع من دخول المدرسة هذا اليوم يا بنى .. !

صاح مشدوها :

- لماذا .. ؟

فأجابه الرجل بهدوءه المثير للغيظ وهو يمسح شفتيه فى لامبالاه وينظر إلى ساعته وخواتمه فى مباهاه :

- معذره .. ليس مسموحا لى أن أقول لك أكثر مما قلت .. !

هتف محتدا :

- وهل قلت شيئا .. ؟

فقال مبتسما وترتسم فى عينيه نظره إشفاق غريبة :

- تأكد أننى قلت لك أكثر مما يجب .. !

صرخ متسائلا :

- كيف .. ؟

ثم سكت ليفسح له فرصه يتكلم فيها ، إلا أن الرجل أد ار له ظهره وو ضع يديه فى وضع متشابك خلف ظهره ك أنما يقول له بتلك الحركة " إنتهينا .. أنصرف .. ! " فاستشاط غضبا ولم يطق صبرا وعن له أن يقتحم البوابة حتف أنفه المتعاضم وليكن ما يكون غير أنه بعد الذى سمعه إستعرفه اللغز وأصبح جل إهتمامه منصبا على شخصية الرجل من يكون ؟ وإلى أى تنظيم ينتمى ، ثم لماذا هذا الإعتداء على فتى هين الشأن مثله إن الموقف لا يبدو منطقيا على الإطلاق وليس على وجه الارض عقل واحد يقبل حرمان تلميذ فقير من

دخول مدرسته دون أبداء الأسباب حتى .. ! .. فماذا يفعل ؟ أصرخ مستنجدا بزملائه ومدرسية من طغيان هذا الغريب الذى لا يدري له مله .. ! .. سيكون مفرطا فى حق نفسه إن لم يصرخ وسوذى شعور هذا الرجل الرقيق الحاشية الذى عامله برفق حتى الآن إن صرخ .. وسيفقده الى الأبد .. ! .. لكن ما باله يحرص على شعوره ويخشى أن يفقده ؟ .. إن هذا لأمر غريب .. ففى الرجل سر ما .. أجل لابد انه ينطوى على سر هائل حتى يفكر على هذا النحو نحو شعوره .. آه لو أنه قال له فقط من يكون ؟ .. لا فائدة من تكرار سؤاله فهو على حد قوله " غير مسموح له بأن يفصح أكثر مما أفصح له وهو أكثر مما يجب " وماذا قال ؟ .. يمكن هذا .. أن ينطوى هذا الرجل على كل هذا الغموض .. وأن يستسلم لغموضه هو أن هذا يصبح أمرا غير معقول ، ولابد له من أن يدخل مدرسته قبل أن يدق الجرس وتفلت الفرصة .. ثم إن الرجل يبدو متشاغلا عنه بتأمل تلميذين صغيرين يتعاركان بطريقة مضحكة تبدو فيها الأسنان أكثر همه ونشاطا من أى عضو آخر وأنه إن لم يتحين تلك الفرصة السانحة فلن تواتيه فرصة أفضل منها .. ولم يضع وقته فى التردد إذ سارع بالاندفاع داخلا كالقذيفة .. لكن كان الرجل يقظا على غير ما أحتسب فعاجله قبل أن يعبر البوابة يلمس لكمة من كتفية ، صرخ مستغيثا صرخة كاد أن ينشق لها بدنه الرهيف ، وفى أنين مبعثه الخوف من أن يتمزق ثوبه اليتيم المتفكك الانسجة أكثر - قليلا - من الخوف على حرمانه من الدراسة ، بيند انه لحظة المنكود علا عويل الجرس فى تلك اللحظة منذرا التلاميذ بالتجمع لدخول الفصول فلم يسمح صراخه أحد .. ولا هو نفسه ، ثم بسرعة رهيبة أغلقت البوابة دونهما ، ووجد " سامح " نفسه خارج أسوار المدرسة وحيدا فى قبضة الرجل الغريب الذى ما إن إطمأن إلى انه لن يسمح له بالدخول بعد الميعاد حتى أولاه ظهره وانصرف تاركا إياه ينعى يوما ضاع من حياته متباكيا فى صمت برهة أسرع بعدها فى الابتعاد عن المكان قبل أن يطل عليه البواب العجوز ويراه فيظن أنه جاء بعد الميعاد، وقد

كان ه ذا شينا تعافه نفسه ذلك أن العجوز يعرفه خير المعرفة وهو يعطف عليه لأنه فقير
مثله ولأن أباه مات فى المعتقل .

إلى أين يذهب ؟

راح هذا السؤال المعقد يصول فى ذهنه وهو يضرب الأحجار الصغيرة فى رفق إضطرابى ولطف مغيظ خوفا من أن يتفتت حذاؤه العتيد الأوحد ، لاهيا عما حوله ، يبتعد بحزن كظيم عن أسوار مدرسته الحبية ويدعو الارض ان تبتلعه بهذا اللحن المرتجل الذى طفق يدمدم به من بين شفتين مطبقتين دون أن يشعر والذى لو صرخت نغماته الحيرى صياغة فنية سليمة ، لعبر بصدق مأساوى عن الآم البشرية كلها وهى تفقد رجلا عزيزا أو تودع الى غير رجعة معنى كبيرا من معانى السلام .

وشأن الصمت الصبور الذى يعقب ذلك وقتا قد يطول أو يقصر إحتبس الصوت الخافت فى حلقة وغارت نغمات المرح البائس فى جب الاعماق الغائر لما راغ السؤال ؟ إلى أين يذهب ؟ " فى رأسه الصغيرة ثانية.

فكر أولا فى أن يؤوب لبيته بأسرع ما يستطيع ويخبر أمه بما حدث باحثا فى ثنايا صدرها الحانى عن حل يفكك له العقد التى عقد بها الرجل الغريب سبيلة فتسارعت لذلك خطواته لهفة ثم تباطأت بغته لما تذكر أنه لن يجد والدته فى البيت الآن ، فهذا هو وقت العمل الذى تختلف فيه الى بعض البيوت الموسرة لأداء خدماتها الصغيرة إلتقاطا لقوته وقوتها ، ذلك الذى تحصل عليه يلىلتهاب الأيدى ، فتقهقرت الفكرة الى ركن وتقدمت حوافر السؤال تدق بسرها رأسه مرة اخرى .

وفكر ثانيا - وما أسرع ما كان يفكر - فى ان ينقلب الى حيث مدرسته ويطالب البواب العجوز بأن يسمح له - بحق الصداقة - بالدخول ، وهو يدرك أنه لن يمانع إلا أنه سيحتفظ بحق الصداقة هذا لنفسه ويضرب فى أسرارهِ الخاصة متسائلا عما أخره فى المجيء .. هل قامت قائمة القيامة ؟! بل أنى لأى عاقل أن يصدقنى .. أخبره فينتشر الخبر ويظن الجميع الظنون ويتقول على زملائى ساخرين من ضعف حيلتى ويتفكهون بى قائلين مثلا : الفتى

يكذب تبريرا لذنبه " أو " الفتى النابه بدأ يحلم أ حلما مروعة .. الدعى يبغى أن نصدق
أحلامه والواقع ان مسأله الحلم تلك أصبحت ترو ق له ، وانبثقت فيه كل الدوافع الكافية
لإقناعه بها وتساعل : لم لا يكون حلما ما حدث ؟ .. إن شخصية الرجل بأثواره الم بهمة !
وألوانه القاتمة وكلماته المغتصبة وجرمه الفحل تبدو كأنها إحدى شخصيات الحلام
المزعجة .. ثم صوته المهذب قائلا : آسف .. يا الهى يبدو كصوت كابوس ! .. وبعد أأصير
الى تلك الحال .. أفكر فى ضعف .. لم لا أنسى ما حدث برمته .. وأعتبر ضياع هذا اليوم
أجازة منحتها لنفسى .. ! "

- سامح ..!

من .. من .. يخيل اليه ان صوتا يناديه

- سامح .. !

من .. ؟ ... آه .. ! ... توقف عن السرى والتفت الى الوراء وهنف بصوت مستجير :

- عارف يا صديقى .. !

ودنا منه صديقه عارف مبادرا إياه بسؤاله مشدوها :

- لا أصدق عينى .. أنت فى هذا الوقت بالذات وبتلك الأفكار الشاذة فى رأسك .. وفى هذا

المكان و .. ؟

- ومع ذلك انا يا عارف يا صديقى .. يا من نلت جائزة التفوق فى العام الماضى .. !

- وهل .. ؟

نطقها وهو يؤمى برأسه ويغمز بعينية بطريقة ذات مغزى فأسرع سامح يدافع عن نفسه

لئمن يزود عن شرفه نعتا كريها قائلا وعيناه تدمعان كمدا واحتقاننا :

- كلا يا عارف .. أنت تعلم أننى لست من هؤلاء .. !

- حتما لست منهم ..

قالها الصديق وهو يطأطأ رأسه أسفا ليدارى الخجل الذى تعلق بلهداب عينية فساد الصمت برهة قطعه سامح بقوله :

- لماذا نقف هكذا .. أنا أنظر الى السماء فى كبرياء .. وأنت تحملق فى الأرض خجلا وتكاد لشدة خجلك أن تسقط عينيك أرضا .. هيا يا رفيقى .. يا فارس السنة الماضية .. دعنا نسير .. لكن قل لى أولا ..

ثم سكت لحظة يفكر وأضاف :

- ولا أقول لك .. نتحدث فى الطريق أحسن .. !

تجاورا فى صمت وتسايرا كتفا بكتف ، فساقتهما أرجلهما صدفة الى الحديقة العامة بالمدينة .. أو بمعنى أدق إحدى الحدائق العامة .. فدخلاها .. لم يقصدا أن يجيلا النظر فيها كمن يبحث عن شىء بعينه لحظة دخولهما ، ومع ذلك لاحظا أنها خالية إلا من بعض العجائز الذين يعتمدون بدقون رخوه جافة فوق أيد معروقة شاحبة تقبض فى تراخ على العكاز آخر رفقاء العمر وأعينهم تحدق فى لا منظور الذكريات .. ثم غير العشب والأشجار .. لم يكن لأحد وجود يرى .. غير الفراغ غير المرئى .. ولم يكن لصوت العصافير وجود يسمع .. غير صوت السكون اللا مسموع ! ..

ثم بغته دبّت الحركة فى موات النظرة الثابتة التى ركزها العجائز على منظور الماضى فلو تجفت أجفان اليقظة وتصاعدت أنفاسهم طويلة متراخية ، واهتز الفراغ حول أجسادهم المتداعية .. وتمزق إملود الصمت إذ قال رجل عجوز يجالس إمراة تقاربه فى السن بصوت بدا رغم إنخفاضه عاليا يصدح فى خواء المكان :

- هو أمر لا غرابة فيه .. شىء طبيعى بالنسبة لهم .. ومع ذلك كان الوادى يسمى بالأمس وادى

بيسان ..

ولم يفصح العجوز بأكثر من هذا إقتصادا فى الكلام ، ولوحدة الموضوع الذى يشترك فى التفكير فيه مع رفيقة عمره التى إنحدرت دمعان على وجنتيها المتجدتين وتمتت :

- وكنا وحيدين تماما .. ابن فى الجيش بعيد .. والآخر فى بيارات البرتقال ..

وأمن الرجل على قولها فى سماحة وعطف يليماءة من رأسه ثم قال فى طرب حزين وهو يغمض عينيه نصف إغماضة :

- ثم بعدئذ .. آه .. لكم قلبوا الأشياء رأسا على عقب ..!

ثم زفر زفرة حارة و أطرق برأسه وصمت .. وفعلت المرأة مثلة وصمتت .. وفى نفس اللحظة وعلى نحو مباغت أطرقت بقية الر عووس وهبط على الجميع سكون وكآبه لآحد لهما وكأنهم على مشارف الموت .. عندئذ كف سامح ورفيقه عن تأمل ما يروونه أمامهما وقال أحدهما بصوته الفتى المرئى ، ممزقا الصمت لكن تلك المرة بطريقة أخرى أكثر حدة :

- لماذا لم .. ؟

ولم يكمل سؤاله لا إقتصادا فى الكلام مثلما فعل العجوزان .. وإنما لأن بقية السؤال كانت شيئا مفهوما لهما فأجابه الثانى متسائلا بنفس طريقته :

- وأنت .. لماذا لم .. ؟

- أسألك لتجيبنى ..

- وأنا أجيبك متسائلا لتجيبنى .. !

وانطلق الصبيان فى ضحك متصل حتى ادمعت أعينهما ..

- حسنا .. قابلنى رجل .

- وأنا .. حسنا .. قابلنى فى العام الماضى رجل..!

صاح الأول متحمسا :

- فى حلة سوداء ، وقال لك : آسف يا سيدى .. !

فغمغم الثانى مجفلا :

- أجل والله .. !

ونظرا لآخر إليه فى شك ثم سأله بنفس الحرارة :

- وأربكتك المفاجأة .. ثم لما لم تجد مبررا واحدا يقتنعك ظننت أنه مندوب متجول لشركة إليه .. إليه .. ؟!

واستدارت عينا عارف لما يقول سامح دهشه وحيرة .. ثم لم يجد كلمة مناسبة يعبر بها عن اتفاق ما حدث لهم ا وتوافق شعورهما تجاه ما حدث غير التنهيد والإ عتكاف بالصمت مصدقا على ما قال ، وكان اثر هذا مريعا على كيان سامح فأسرع بالفرار من المكان موليا الأدبار لصديقة الذى إنتبه من صمته فلم يجده .. وأجال البصر حوله فى شداه .. كمن يبحث عن شىء بعينه ومع ذلك لاحظ أن الحديقة لم تزل خالية إلا من بعض العجائز الذين عادوا إلى أحلامهم الزرقاء ، يحرقون بأعين زائفة .. مجهدة .. فى لا منظور الذكريات ثم غير العشب والأشجار .. لم يكن لأحد وجود يرى .. غير الفراغ غير المرئى .. ولم يكن لصوت غير صوت العصافير وجود يسمع .. غير صوت السكون اللا مسموع .. !

ما كاد سامح يبارح أسوار الحديقة حتى أدرك كم اخطأ إذ كاشف صديقة بسر الرجل الغريب
دونما ترو أو تفكير ، فمن أدراه أن ما وقع له أمام البوابة هو عين الذى وقع لهذا الرفيق
حتى يصارحه تلك المصارحة الغبية ، ويعطيه بلا مقابل ذريعة سهلة يعلل بها روغانه الذى
أشتهر به فجأة بعد أن أعطوه جائزة التفوق السنة الماضية مباشرة حتى أصبح رائدا لا
يضارع فى سباق " الزوغان " من الدراسة كما كان من قبل ذلك الرائد بلا منافس فى
إرتياد أجواء العلم العليا ، وكيف أنه ينبغى لهذا أن يعود أدراجه إليه وينفى ما أسره فى
أذنيه نفيا قاطعا " فهو فتى لا يعرف الكتمان علاوة على اننى اخشى إضرارة بهذا العذر
الذى سيتيح له الظهور امام الجميع بمظهر الضحية تبريرا لانحداد مستواة ، فانه يداخلنى
شعور بانه قد يكون حلما من أحلام اليقظة ما حدث لى .. نعم قد يكون حلما فأنا تلميذ فقير
وأجهد نفسى جدا فى الإستذكار وما أكثر أحلام الفقراء خصوصا إذا كانوا يستهلكون قواهم
فى العمل ولا يجدون تعويضا ! الافضل اذن ان اعود اليه واغسل مخة غسلا مما علق بها
من اقوالى .. سأبرر له الأمر باننى خجلت من أن أظهر امامه بمظهر التلميذ البليد الهارب
من مدرسته فأختلقت تلك الاكذوبة التى لا يمكن ان تقنع احدا .. والتى يبدو الاعتراف
بالذنب منها أجمل ! "

- سامح .. سامح ..

- آه ... أهذا أنت .. كنت سأعود اليك لطيتى ! .. أتدألو يا زميلى العزيز ما قلته لك .

- دعنى أسألك اولا .. لماذا تركتنى فى الحديقة وحدى . لقد تقطعت انفاسى وأنا اجرى
باحثا عنك ..

استجمع سامح أفكاره ووجد الفرصة مهيأة لعملية غسيل المخ التى أز
بإغتصاب إبتسامة من هذا النوع الذى يوهم الثقة قائلا :

- آه .. هذا بالضبط ما أردت العودة اليك للحديث فيه .. لقد كذبت يا صديقى كذبة فاحشة
وأنى على ذلك لمن النادمين !..

أبتسم عارف بدورة بطريقة لم يسترح لها سامح وغمغم :

- آه .. تقصد ..

وأكمل بقية كلامه بغمزة من عينية تنطوى على معنى هروب سامح من ملل الدراسة وارتجالة أكذوبة مضحكة تبريرا لسلوكه المشين ، ورغم ان تلك الطريقة فى الحديث لم ترض المزاج الدمث الذى جبل على سامح .. إلا انه لشدة رغبته فى إيهامه بأنه أذنب واعتذر بقبح / إن دفع يصدق على وجهة نظرة بنفس الطريقة التى يسكن فيها اللسان وتتكفل العينان وما حولهما من عطايا الله بالكلام .. ! .. وربما لم يتقن الدور الذى لم يقوم بها قبلا .. مما أضحك رفيقه على نحو ما .. زراية به واستخفافا بضعف حيلته ولكن .. " لتضحك أيها الرفيق ولتسخر منى كيفما شئت .. أنى أسلم لك بعبقريتك التى لا تبارى فى هذا المضم ار .. طالما أن هذا ينسبك سرى ويمسح عن ذاكرتك علانق الحقيقة التى لا تمحوها غير أنامل الكذب ! .. " .. بتلك الكلمات تحدثت مشاعر سامح الذى إيغالا فى تمعن دور المذنب المعتذر عن عذر أقيح منه الذنب نكس رأسه على صدره وبدأ كما لو كان يوشك على البكاء ندما .. مما قوى عوامل السخرية فى نفس زميله فاشتدت نوبة المرح التى إنتابته لسذاجة هذا الزميل الجاد .. ! .. وأصبح تضاحكه عصفا وقصفا فأنشأ يقول بصوت متقطع من الضحك وعيناه تدمعان رثاء لهذا الزميل التعس الساذج :

- لعنك الله .. أضحكتنى من قلبى .. هل تظن .. أوه .. سأموت من الضحك ! .. أيها الغبى .. أيها الغبى العبقرى .. أيها العبقرى الساذج .. أتظن حقا اننى من ال بلاهة والغفلة بحيث أصدق أكذوبتك التافهة البارعة .. أصدق هذا التخريف .. إنك تحلم يا بنى تلك الأيام بطريقة مخيفة دون أن تدري ويلهمك خيالك الشديد الخصوبة بأوهام لا أساس لها .. رجل .. رجل يملك الأرض بالبن ..!.. رجل يعترض طريقك أمر إباك ألا تدخل المدرسة .. هكذا بتلك البساطة .. ثم هكذا بتلك البساطة أردتنى أن أصدق .. هاها ! .. يا إلهى قد جن جنونك من

شدة فرحتك بجائزة التفوق !.. جن جنونك فرحا هاها .. يا إلهى .. الرحمة .. سأموت من الضحك !

كانت نبرات صوته وهو يتكلم متدفقا بتلك الطلاقة وهذا الصخب .. تتهدج برنين مرارة مستتر ، لم يفت على ذكاء سامح أن يست شفة ويسمعه فشعر برغبة حقيقية فى ال نحيب تحت وطأة عوامل الشفقة التى إع تملت فى فؤاده تجاهه فقد تباهى المسكين بألمعيته الخارقة التى أتاحت له إدراك الحقيقة التى لم تكن من الحقيقة فى شىء أبدا .. وآلمه كثير أن يصدق زميله بتلك السرعة مدعيا مع ذلك أنه لم يصدق لا سيما أنه كان يؤمن بأن الملل الذى خال أنه يدفعه إلى الهروب دفعا ليس إلى عيوب النفس يعزى بقدر ما ينتمى إلى عيوب العقل فكيف يدعه فى عماية الجهل يعمه !.. وكيف يتركه فريسة للغباء الذى لم يكن فى خياله قط .. لهذا الأمر الذى أخطأ إذ أخبره به وأخطأ أكثر إذ عاد فأكرهه موقعا إياه فى شرك الغرور بهذا الذكاء الغبى المدعى !..

أجل تلك هى الحقيقة بكل أسف وسوف يواجه ه بها وليكن ما يكون .. فمهما يفقد .. إنه على الأقل سيطفر حين يضع أمام عينيهِ الحقيقة التى لا يعلمها عن نفسه .. قد يصدمه حقا .. ولكنه آنذاك قد يصحو ..

- عارف .. أريد أن أخبرك بشىء !..

- هاها !..

- عارف يا أيها الرفيق التعس إنتبه إلى وكفى ضحكا ..

- هاها !..

- حسنا .. لهكن .. فأنت الخاسر لا أنا ...!

- هاها !..

- لا تريد ان تنصت .. طيب .. سنتقابل يوما .. وسأصر على أخبارك بالحقيقة ولكن بعد

فوات الأوان .. سوف تصحو !..

قالها له .. ثم أدار له ظهره وأنصرف غير نادم على شيء .

4

بعد أن صار وحيدا ثانية ألقى نفسه وجها لوجه أمام عين السؤال " إلى أين يذهب ؟ " .. إلى المنزل ؟ إنه يعلم أنه إذا عاد فلن تلم والدته بأى شيء . ذلك إنها ألفت أن تعود إلى البيت قبيل مغيب الشمس وأنه يستطيع بقليل من إصطناع الحيلة أن ينسل داخلا دون أن تلحظة إحدى جارات أمه .. وفى هذه الحال يمكنه أن يدعى أمامها أن يومه كان طبيعيا وأنه مر به كسائر الأيام الماضية .. مجيدا لا يؤسف عليه .. ولكن .. أى مجد فى " خداعك يا أمى ! " وأيه ارادة تنحى اعتبارات الأسف جانبا و " أنت تبعثرين حولى حنانك المخدوع وقبلاتك التى لا أستحقها ! " ثم كيف يخدع نفسه .. إن هذا أيضا لمن الاعتبارات التى يصعب عليه تجاهلها .. فإنه على إستحالة قبول فكرة خداع أمه .. تبدو فكره خداع نفسه أكثر مشقة واستحالة ..

إذن ماذا يفعل .. ؟

أيتسكع فى طرقات المدينة حتى يدق الجرس تلك الدقة الأخيرة اللعينة فينسلك فى ركب التلاميذ العاطنين ، وهل هذا يغير من حقيقة الأمر ؟ .. انه فقط يحل مشكلة التحايل كيلا تلمحة احدى صويحبات أمه فتخبرها بأنه قد عاد قبل الميعاد .. وتبقى مع ذلك المشكلة الأكبر وهى انه إذ خدعها فقد خدع فى الحقيقة نفسه التى لا يدري لها مستقرا .. إذن ماذا يفعل .. ؟

يبدو أنه لا م ناص من اطلاعها على الحقيقة كلها .. فليس هو ذلك الأبن الذى يخفى عن أمه سرا كهذا يتهدد مستقبله ولا يملك له دفعا .. ليخبرها فهى على الأقل أعرق منه خبره بالحياة .. وقد تستطيع أن تجد له مخرجا .. من أدراه .. ربما تمكنت بوسيلة ما من إزالة ظل الرجل ذى الساعة الذهبية الذى لا يدري له ولما يبدية من عدااء سافر تجاهه اى معنى من طريقة .. لا سيما وهى " أنثى " مشهود لها بالبراعة فى .. رباه ...!.. ماذا دهاه .. ان أمه فى أحلك الظروف وأشدّها ضيقا وضنكا لم تفرط فى ذرة أصغر ذرة من شرفها .. ولعل هذا هو الشئ الوحيد الذى أفقدت نفسها كل العروض المغرية من ذوى الجاه من أجل أن يبقى هذا الشئ فى رعاية الكرامة وسلام السوء دد بعد أن فقدت برحيل الأب المفاجيء الأمن والطمأنينه .. وكان بوسعها أن تفرط فيه لتضمن له هناة الحياة ورغدها وتوفر على نفسها ذلك المجهود الذى تلتهب منه يداها إلا أنها صمدت و صابرت وكابرت ليظل اسمه شريفا يفخر به .. فهل بعد هذا يخبرها بأمر هذا الرجل الآثم ...!.. إنها للأسى والأسف لن تجد سلاحا تدفعه به عنه أو ثمنا تشتري به مستقبله المهدد بغير هذا الشئ الذى لا تمتلك شيئا سواه ذا ثمن وان كان لا يقدر بثمن .. لا تملك غير جلبابها الصا مد .. الذى تروح به وتجىء .. وبين الرواح والجينة عمل يوهن حديد الكرامة وه و – أى الجلباب – وإن يكن لا ثمن له فهو بالنسبة إليه يساوى الكثير ذلك أنه رمز الستر لها .. وهى وان كانت حقا .. تحسره إلى ما فوق ركبتيها قليلا فى البيوت الغريبة .. التى تقع على شاطئ البحر .. أثناء تنظيفها خشية البلل بالماء الذى يعتبر العنصر السائح فى عملية " المسح "

فإنها تفعل ذلك بنفس الطريقة التى تخرج بها إحدى الامهات ثديها فى مكان عام لإرضاع طفلها الباكى .. أما فى غير هذا الموضع فهو .. آه .. هو فى آخر الأمر لن يخبرها خشية أن ينحسر ثوبها إلى ما فوق ركبتيها إضطرابا ، وليخدها .. ليخدع نفسه حتى الموت .. طالما أن هذا يبقى ذيل ثوبها حيث يجب أن يكون ..

- أيها الفتى .. لعنة الله عليك .. أيها العربى الغافل .. أتسير نائما ..؟.. اهذا هو الذى يعلمونه لكم فى المدارس ..!

- آه .. معذرة يا أمى ..!

- أمك ؟!

- آه .. معذرة يا أبت ..!

- أبتك ..؟!

- آه .. نسيت .. فأنت سيد محترم .. ولا يمكن أن تكون أبا لفتى متشرد مثلى يمشى كما تقول نائما ؟ أقصد معذرة يا سيدى المبجل ..!

- لست أباك ولا سيدك المبجل .. كل ما أطلبه منك .. هو أن تفتح عينيك وأنت تسير لأنك فى المرة القادمة ستصدم عربى ..!

- أعود بالله ..!

لفظها سامح وهو يبتعد عن الرجل الضخم الأحمر الوجه الذى أصطدم به عن غير قصد ركضا .. ثم كان الصراع الذى حاور فيه نفسه قد أنتهى ذلك إلى أنه إلى قرار كتمان السر عن أمه كان قد انتهى واستمر يجرى على هذه الحال .. لا يشعر بشيء مما حوله .. إلى ان خيل اليه أنه يسمع صوتا فى أعماقة يصرخ به :

- عيون الناس تلاحقك .. آه أيها المسكين .. أحذر .. قد يظنك أحد لصل فيجرى وراءك وفى

الحال تلتصق بك جميع السرقات التى تقع فى تلك اللحظة ويجرى خلفك أهل المدينة عن بكرة أبيهم ..!

فتوقف مذعورا .. ثم بعين فاحصة متفوسه .. تلفت حوالياه ليتعرف على المكان الذى ساقته إليه قدماءه وكان قد تناسى عوامل الحيرة كلها .. وقرر دونما تفكير أن يأوب إلى المنزل بأقصى سرعة يقدر عليها .. فهو لم يألف السعى كالدابة فى الشوارع بلا هدف ويأنف مشاعر التلكؤ فى الطرقات فضلا عن أنه كان يحس بحاجته الشديدة إلى الوحدة .. ولذلك تسابقت نظراته ليحدد موضعه من البيت بالضبط .. وأسعده كثيرا أن يكتشف أنه كان يسرع فى إتجاهه دون أن يقصد تسوقه قدماءه إليه بلا إرادة .. وتنصرم لحظة .. تتراءى له فيها واجهات المتاجر الزاهية بأفانين الدعاية الخادعة وإشارات المرور الوهاجة بثالوثها الأبدى والسيارات المسرعة فى جنون من يروم أن يدهم أحدا وسحنا المارة المنهكة من أثر الكفاح اليومى الرتيب تنطق بأصدق أمارات المنطق الذى يقول " إما نعمل أو نموت " تتراءى له غريبة مخيفة لا معنى لها ، فتحسس بحركة لا شعورية تعودها جيبة ليتأكد من أن مفتاح الباب الذى يحتفظ به وتحفظ أمه بواحد آخر مخافة أن يعود احدهما قبل الآخر فيقف أمام الباب المغلق حائرا .. حسنا .. أنه لم يضع وسط ربة أحداث هذا الصباح التى تنتمى إلى الضياع أكثر .. فليطمئن .. وليعجل بالعدو ، الى البيت مخترقا فى إصرار نهاية الشارع الذى يقع البيت فيه مباشرة .. وربما كان موقعة هذا هو سمة الإمتياز اليتيمة التى يتميز بها لتصدره أحد شوارع المدينة الهامة التى تموج بالحركة وتزخر بالحياة التى تقل كلما اتجهنا الى الطرف الذى ينعس المنزل فى اقصاده فيتوافر بذلك عنصر السكينة الذى لا يميل اليه غالبية سكان المدينة باستثناء ذوى القدرات المالية أو الفكرية الخاصة منهم ، وأهم من هذا وذاك أنه يطل مباشرة على تكوين للطبيعة رائع فعنده ينحنى البحر إحناء صغيرة .. أو بمعنى أصح يمتد جزء صغير كاللسان من الشارع الى البحر وفى مركز هذا اللسان بالضبط يقع مسقط البيت الذى يفصله عن بداية المنحدر الوعر الطباشيرى المنتهى إلى المياه متران أو ثلاثة لا يتعدها عرض الشارع الملتوى بزاوية حادة أمام البيت مباشرة .

وفى الواقع أن كل هذه أسباب تكفى لا غراء ذوى الجاة بالسكنى فيه مهما بلغ به القدم والتداعى وأيا كان لون طلائه الخارجى المكفر الذى لا يعبر عن لون مميز يسهل التعرف عليه .. وأيا كان كذلك عدد الشقوق التى تركتها عوامل التعرية الطبيعية فيه .. بل وأيا كان نوع الحشرات والزواحف التى تأوى إليها والتى يخرج بعضها من ماء البحر ، فإن هذا لا يعنى خطرا على الإطلاق طالما أن ساكنيه لا يميلون بطبيعتهم الى الإيذاء .. فقد عرف – سامح – عن بعض الحشرات أنها لا تؤذى من يسالمها ولا تفرغ سمها فيمن لا يعاдиها .. ومن تلك النقطة الجوهرية ينبع السلام الذى يحيا فيه مع والدته بين جيرانه من بنى الحيوان .

بل أنه كان يحرص – اشد الحرص – على تلافى الأسباب التى تؤدى الى فرارها .. ذلك أنه كان يطيب له فى كثر من الأحيان اتخاذها مادة عملية لدراسته النظرية فيقضى الساعات فى تأملها وتمييز أنواعها وأشكالها وألوانها .. بل وعاداتها فى البقاء والتناسل !.. وإذا كان البعض يلقى فضلات طعامه إلى الدجاج أو القبط الهائمة أو الكلاب الضالة .. فإنه كان يدس يده الصغيرة بالطعام فى الشقوق غير أبه من لسعة عقرب أو لدغه ثعبان أو قضم ة فأر .. وما أكثر المرات التى دقت أمه صدرها فيها بيدها ح ين تفاجئه إستنكارا لهوايته الخطرة ، بيد أنه مع ذلك لم يقلع عن غيه زاعما ووجهة الضئيل يمتلىء بضحكة عريضة لمخاوفها " أن الفم لا سيما فم الحيوانات غير العاقلة لا يعض اليد التى تطعمه ! " و " إن الوفاء الذى عرف عن الكلب لصاحبه موجود ويمكن بعثة وتنميته فى كافة الحيوانات " وأنه قرأ فى احد الكتب بمكتبة المدرسة التى يقضى فيها معظم وقته بين " الحصص " عن مفكر نرويجى يدعى " إبسن " كان يقتنى عقريا ...!.. وأن صديقة عارف قال ذات مرة " أن بمدينة حيفا ضابط كبير برتبة جنرال يستخدم ثعبانا ضخما فى حراسة منزله وممتلكاته .. وأن هذا الثعبان لا يبارح حوائط البيت الخارجية إلا لطلب الطعام الذى يقدمه له الجنرال بنفسه .. وأنه فى الليل يزحف على الأوجه الخارجية للبيت فى نوبات منتظمة كما لو كان

ديدباننا فى إحدى دوريات الحراسة .. بل وزعم أن لهذا الثعبان قدرة عجيبة على تمييز آل البيت وأقاربهم وأصدقائهم فهو لا يهدد غير حياة الغرباء بالخطر .. وأدهى من ذلك أن لديه حساسية خاصة ضد اللصوص فهو يصدر فحيحا ينبه رب البيت إذا اشتتم بحاسة الشم القوية لديه رائحة لص يتلصص على البعد ، فإذا ما اقترب وكان لا يدرى – لسوء حظة – بأمره .. إنقض عليه كالصاعقة وأر داه قتيلا ! " وهذا أن يكن محض خيال .. أو حقيقة أضيفت إليها كمية هائلة من توابل الخيال .. إلا أنه يجد لذه غريبة فى تصديقها وترديد لها على مسامع أمه كلما شهقت خوفا عليه من دائه .. الذى لا تعرف له دواء شافيا غير الاعتصام بالهدوء ..

5

انسل سامح داخلا البيت فى توتر الحرص على ألا تلمحه إحدى الجارات فتنبىء أمه بأنه عاد مبكرا على غير العادة .. وهو نبأ أعظم من أن تحفظه الصدور .. فإذا به يجد نفسه أمام من " من .. من .. ؟ " ليست أمه وياليتها كانت هى وع رفت من أمره ما تمنى ألا تعرف .. وإنما .. وبعد أن أوصد الباب خلفه فى عجلة وضجة من يروم الإختباء عن الأعين .. وبقلب إنخلع وسقط بين أرجله من عنف المفاجأة .. الفى عينية تلتقيان مباشرة بعيني الرجل الغريب المنتفخ الأوداج ببزته وساعته وخواتمه .. فصرخ وعيناة تغيمان فى اللوعى مغالبا كيلا يخر مغشيا عليه :

- من اوقفك هنا ؟!

فلم يجب الرجل بغير الابتسامة الباهتة العالقة كبقايا الطعام على شفثيه وكان التفسير الوحيد المحتمل والمقبول شكلا والذى طرأ على ذهنه فألجمه إشفاقا وحذرا ورعبا هو أن تكون أمه قد أتت مبكرة أيضا لسبب ما وأدخلته تحاشيا لشرورة .. فتغيظ واكتظ فؤاده بغضب لآحد له واندفع الدم ساخنا فى أذنيه على المعنى الخبيث الذى أقام له ألف حساب

وخشى أشد الخشية أن يقع فتقع الأم فى ذاك الفم القبيح كقطعة الحلوى السائغة الحلوة ..
وبلغ به الانفعال صداه فضخت غدده اللعاب ضخا حمله على ابتلاعه فى سرعة الوفرة كما
لو كان يشرب كوب ماء مكرها مخافة ان يسيل على شذقية فيبدو كما لأبله ويراها الرجل
فرصة للمغالاة فى السخرية به .. مما أسال الدمع فى مقلتيه فأخفى وجهه بين كفية كيلا
يرى الرجل مظاهر ضعفه ومكث على هذا الوضع وقتا طويلا ، ومع ذلك لم يهدأ ولم يستقر
له انفعال .. وانتظر وقتا آخر آملا إستعادة شجاعته لمجابهة الرجل دون فائدة .. فقد كان
شرف أمه يتماثل لعينية داميا فى كفة الميزان ، وكان جسده ا العارى يتخايل أمام بصرة
كقضاء لا مفر منه تحت أغطية الفراش .. وحاول ان يصرخ ثانية فخرج صراخه من فوهة
فمه الواسعة التى لا يعقها شىء .. مكتوما .. مبجوحا كما لو كانت آلاف الأيدي تنحشر فى
حلقة .. والدمع يتفجر من عينية كنبع بئر حفر لتوه .. وهو يتساعل مكررا تلك الكلمات التى
خرجت هى الاخرى همهمة لا مفهومة :

- يا الهى .. من أوقفك هنا ..؟!

وبدلا من أن ينتظر أن يجيب الرجل بتلك البسمة الملتوية .. إستجمع شتات غضبة وحقدة
وخوفه وحيرته فى ساقية واندفع صاعدا السلم الى الطابق العلوى .. ثم راح يتوالب باحثا
فى حجراته وأركانه وزواياة وحتى فى دورة المياة عن أمه ، ولثما أطل فى غرفة أو دفع
بصرة فى زاوية صاح مناديا :

- امى ..!

فبيعت اليه الرجل من اسفل مضحكة هازئة من هذا الفتى المسمل الذى يستعين عليه بأمه ..
وفيما هو يعود ادراجه هابطا الدرج اليه وفد ابترد صدره بعض الشىء وسكنت نفسه قليلا
وتطامنت الى أن دخول الرجل لم يكن يلرادة أمه لام نفسه بشدة وتركيز لأنه فكر لحظة فى
إرتياب بنقائها وعفتها وطهرها ، وكان لهذا وحده الفضل - كل الفضل - فى إستعادته

لأفكاره التى طاشت سهامها ، وفى إسترجاعه لثقتة وعزيمة فعاد اليه بجنان ثابت وسأله
مبادرا فى صلافة الخصم حين يواجه قريعه :

- قل لى من فضلك يا سيدى .. من أدخلك هنا .. ؟

رد عليه الرجل دفعة كما لو كان يبغى الابقاء على حالة الرعب الى إنتابته قبلا :

- الشيطان ...!

- ماذا ... ؟

- هبطت من السقف !

- ماذا ... ماذا تقول ...؟

- نفذت من الجدران ..!

حدق سامح فى عينية متحديا وهتف محرقا :

- اسمع ...!.. ليكن مفهومما لديك اننى لست ارهبك او ينخلع فؤادى رعبا مثل بقية الاولاد

وانت تصطنع الهيبة الساذجة او تطلق كلمات الرعب الخرافية ...!.. اتفهم .. تحدث الى كما

يتحدث الرجال .. سنا بسن وعينا بعين .. لا كما يتحدث رجل قوى إلى .. آه .. !

والآن اخبرنى بوضوح .. ماذا تريد منى ..؟

كانت لهجته وهو يتكلم فيها الكثير من الحزم والتحدى حار الرجل لحظة فى أن تتوفر لفتى

فى مثل سنه فصمت كأنما يتردد فى الإ فصاح عما يريد منه .. ثم أخيرا كأنما إنتوى أن

يتخلى عن أساليب اللف والدوران وقرر ان يدخل فى صميم الموضوع قال :

- حسنا .. سأحترم لك رغبتك إعجابا منى بشجاعتك .. والآن هيا معى ..!

- إلى اين ..؟

صاح بها سامح فى وجل فلجابه وهو يتأمل مزهوا فى لا مبالاه ساعته الذهبية وخواتمه

المثلااة وبعين اللهجة التى إنتهجها أمام بوابة المدرسة :

- قلت لك .. ولعلك لم تنس .. غير مسموح لى ..

فقاطعه متهمكما ومكملا :

- بأن تقول اكثر مما قلت ...!!..

وقلد الرجل لهجته مبادلا اياه نفس السخرية :

- وهل قلت شيئا ..؟..

فجأوبة سامح بعين الطريقة وأساريره تومض زراية :

- تأكد أنك قلت لى أكثر مما يجب ..!

ووضع الرجل نهاية لتلك اللعبة فقال غير مكترث :

- هيا يا بنى .. هيا بدلا من الثثرة ..

فصعر سامح خده قائلا فى عناد وصبر :

- لن اذهب معك قبل ان تقول لى ..

- طيب بسيطة ..!.. سأجلس انا هنا الى ان تعود امك ..!..

قالها الرجل وهو يجلس فى تناقل على اول الدرج الواقع خلف الباب مباشرة .. فقضم

سامح لسانه كمدا وراح يفكر " ان الرجل يعرف سرى ..! لقد بدا يهددنى بالشىء الذى

أخشى عليه من النسيم ..!.. سيبقى جالسا حين لا أذهب معه دون صوت الى أن تعود أُمى

.. وحينئذ .. رباه .. حينئذ .. أنا لا أريد ان تكون لأُمى بهذا الرجل الخطر صلة أو هى صلة ..

لأذهب معه وليكن الموت هو ما يقودنى اليه .. فان هذا أهون على من أن تأتى أُمى ويقع

بصرها عليه فيراها ثم اننى سأخرج معه الآن وبعد قليل نصل الى المكان الذى ينطلق منه

فينكشف اللغز لى وأعرف منه ما كان خافيا .. وهذا فى حد ذاته أمر يستأهل المخاطرة ..

القى على الرجل نظرة عابره مقبته فوجده يضطجع مسترخيا ومستريحاً كأنما عزم على

الجلوس للأبد فغصت عيناه بريقا وصاح فى وجهه :

- انت ..!.. هيا يا ...

ولم يكمل قوله إذ هب الرجل من جلسته فى حماس ة أفزعت منها سامح الذى لم يملك
بوغمها أن يتردد فى فتح الباب داعيا الرجل أن يتفضل فيخلص البيت من ظله الثقيل ..
وتمنى آنذاك لو كانت بينه وبين الحشرات فى الشقوق الغائرة لغة مشتركة يتفاهمان بها ..
مثل تلك التى بين " جنرال حيفا " و ثعبانه .. حتى يستجد بها منه داعيا إياها أن تثب فى
وجه الرجل فلا تدع قطرة من دمه وإلا ونفتت فيها سمومها بيد أنه للأسف لم يكن قد س ما
- أو هبط - إلى هذا المستوى .. فأدرك وهو يتابع الرجل بالخطو .. أنه أضاع وقتا طواه
الماضى فى هراء التأمل الدراسى وأنه كان عليه أن يكون أكثر إيجابية معها ومع نفسه
فيسلك كل المسالك التى تفضى به فى النهاية - أيا كانت التضحية وأيا كانت وعورة الطريق
- الى خلق تلك اللغة المشتركة التى كان سيسرمو إليها بالهبوط إلى مستوى الحيوانات التى
هبط إليها من قبل سيدنا سليمان .. فارتفع ملكه بتسخيرها له - لطفًا - وبتسخير الجن
والريح .. بارادة الله ..!

- 6 -

وحرص سامح حرصا شديدا على إغلاق باب البيت خلفه دون إحداث صوت ينبه إحدى
الجارات الفضوليات اللاتى لا يتورعن عن دس انوفهن الجميلة فى أمور الغير .
وحمد الله كثيرا على أن الوقت لم يكن وقت إطلال سيدات البيوت م ن النوافذ والشرفات ..
بل وقت الإنشغال بالعمل المنزلى اليومى .. بعد خروج الأزواج إلى أعمالهم والابناء إلى
مدارسهم .. والا وقعت عليه وعلى الرجل انظار واحدة او أكثر منهم وحينذاك تفسد خطته
تماما فى إقصاء أمه بعيدا عن هذا الامر .. ولو دفع حياته ثمنا .. ولكن ماذا لو ان احداهن
خرجت تنشر الغسيل او تفض الغبار عن نافذتها او شرفتها ..؟.. أقلقه هذا الخاطر كثيرا ..
فجذب يد الرجل اليه فى توتر ثم اخذ يجرى به مبتعدا عن المكان بأقصى ما يكون من
سرعة وقد افترض ان الرجل سيسره - قطعا - أن يرى إقباله على مرافقته الى المكان
الذى لا يدرى كنهه بلقدام تجرى دون إبطاء من خوف أو تردد .. ولهذا لن يقاومه .. بيد

انه اخطأ ظنه بعد امتار قليلة من عدوهما ولعله استكثر على نفسه ان يقوده الفتى على هذا النحو بدلا من ان يحدث العكس - وهو الأوجب - فتوقف دفعة واحدة .. مخلصا يده التي كانت تقبض عليها يد سامح بقوة لم يكن يدرى كيف يمكن ان تتأتى لفتى هزيل الجسم مثله .. صائحا بحرق وكمد :

- ايها الفتى .. إنك تبدو لى غريب الأطوار جدا .. ما معنى هذا .. أهو لون من التكبر ..؟!!

دمدم سامح لنفسه بصوت خفيض وهو يصرف بأسنانه غيظا :

- بل لون من الحب كما يصعب على أمثالك ان يدرك ..!

- ماذا .. ماذا تقول ؟ .. انت تلوك شيئا عن الحب .

- لا تصيح هكذا ارجوك ..!

صاح بها سامح فى صرخه مكتومة .

- آه .. فهمت ..

وأردف الرجل قوله بنظرة من عينيه ومضت فيها كل معانى الإدراك المثير للغيط والسخط

ثم اضاف متخابثا وهو يداعب أنفه :

- آه .. انت لا تريد أن يرانا أحد فيخبر أمك يا طفلى العزيز ..!

فانتفض سامح متضايقا من أن يأتى ذكر أمه على لسان مثل هذا الرج ل وان يتاح له من

الفراسة قراءة أفكاره على هذا النحو قائلا بحزم وتهكم :

- سيدى .. اعتقد أنك سمحت لنفسك بقدر من الكلام اكثر من المسموح به لك ..!!

- غريب ..!! .. أنت يا فتى تبدو لى أكبر من سنك بكثير بطريقتك تلك فى الحديث .. إنك

تدعونى الى إحترامك يا بنى ..!

- طيب .. ألن نذهب ..؟! .. اعتقد أنه ليس من مصلحتك أنت أيضا أن يراك أحد معى .. وإذا

لم أكن مخطئا فانه يبدو لى من تحفظك فى توضيح شخصيتك .. أن ثمة أوامر صدرت اليك

بأن ...

قاطعه الرجل فجأة ضائق الذرع :

- كفى فلسفة .. هيا بنا ..

- سامح .. هل انت على ما يرام ..!؟

والتفت سامح بهلع إنخلع له فؤاده الى مصدر الصوت النسائي الذى هبط عليه من نافذة البيت المجاور كما يهبط حكم الاعدام .. وانقضت لحظة ثقيلة خيل اليه فيها ان يدا من حديد تقبض على حنجرته وتمنعه من ان يقول شيئا يطمئن قلب جارتته وداخله الخوف الشديد من ان يفشل فى التماسك فتدرك انه – مع وجود الرجل الغريب – يعانى ورطة ما ...

- وجهك يبدو لى شاحبا .. يهيا إلى انك ترتعش ..!

- كلا ...!

هتف بها سامح مستغيثا بكل ما فيه من قوى كامنة للثبات والتجلد ، وبصعوبة شديدة أفلح فى أن يقول لها متلعثما :

- إنى فعلا أرتعش .. وأظن أنك صادقة فى قولك عن شحوب وجهى .. فقد كنت أخشى ان .. أن ...

فقاطعته السيدة وهى تضحك قائلة :

- اوه يا عزيزى .. لا عليك .. لا تتعب نفسك فى إختراع أكذوبة تبرر بها هروبك من المدرسة .. فلنك لن تنجح فى خداعى ...! حتى أنت .. حتى أنت يا سامح .. لماذا .. أسرعت الدراسة إلى هذا الحد ..؟ إنى فى دهشة من أمرك فقد علمت أنك أخذت جائزة تفوق بالامس فقط ..

- اى والله ...!

- من هذا الرجل ..؟

- انه ... آه .. انه مدرس ...!

- هارب هو ايضا ..!؟

- اى والله ياخالتي زين ..!..

فكرت المرأة قليلا ثم قالت بعد لحظة صمت كانها قد انتهت الى تبرير مقتنع :

- هذا امر طبيعى .. ويلوح لى .. أنه لا يمكن لتلميذ مجتهد مثلك أن يهرب من الدراسة ..

بعد إعتراف الجميع له بالتفوق والنبوغ .. إلا بعد ان يهرب معلمه ..!.. عد الى مدرستك

يابنى واعدك تشجيعا لك الا اخبر امك مع انها اعز صديقة لى كما تعلم .. وانت ايها المعلم

.. الا تخجل من طولك وعرضك .. تشجعون اولادنا على التزويغ من المدرسة .. وكأن هذا

واجبكم الاول .. عدنى انت ايضا انك لن تعود الى ذلك ثانية .. عدنى ..!

صاح سامح نافذ الصبر بالرجل الذى وقف صامتا يراقب ما يدور :

- عدها ..!

فتقدم الرجل خطوة للامان مغمما وهو يطاطىء رأسه ك التلميذ الصغير المذنب بطريقة

فكاهة أضحكت منه سامح برغمه :

- أعدك يا سيدى المبجلة ..!

وتهلكت اسارير المرأة الطيبة منتشية ببراعتها فى تصريف الأمور وفى إزجاء النصح إلى

الآخرين .. فانتهاز سامح لحظة الرضى والزهو التى انتهى اليها الموقف أروع نهاية ..

وأدرك يلحساسة الواعى أن من الخطر الانتظار اكثر من هذا .. فجذب الرجل من يده مرة

ثانية وطفق يركض به فامتثل له تلك المرة .. وظلا يجريان كما لو أن أحدا يلاحقهما بسوط

.. وما هى إلا دقيقة أو نحوها .. حتى غابا فى بطن الشارع حيث الضجيج والزحام .. حينئذ

توقف الرجل قائلا وهو يلهث قليلا :

- ينبغى ان نركب سيارة .. فالمسافة طويلة الى حد ما ..

- حسنا .. لنركب ..

- انك تبدو لى شجاعا يا فتى .. بحيث يخيل الى انك تعرف إلى أين أقودك ..!؟

تمتم سامح دون ان ينظر اليه :

- كلا .. لست شجاعا كما تظن .. ولكن لأننى أعلم أنه لا فائدة معك من الخوف أو الحزن أو الفرح فانى لا أبدى ضعفا ..!

فهز الرجل رأسه هزة الإدراك والتفهم دون ان يعلق بكلمة على ما قال .. وبعد لحظات .. صاح لدى رؤيته عربية تمر فارغة أمامه ! :
- تاكسى ..!

ثم ركبا .. وفى التو وصف الرجل للسائق وجهتهما ، فعلم سامح انهما سيذهبان الى اطراف المدينة حيث تتناثر هناك عدد من البقع الصغيرة تحتوى على اشجار البلوط والغار والبطم ومع ذلك لم يأبه للأمر .. ولم يهتز له وتر وقال فى نفسه " لياخذنى الى أحراش افريقيا حتى .. طالما ان ذلك يتم بعيدا عن بيتك يا امى " ولكنه رغم تجلده هذا لم يستطع كبح جماح دمعة أصرت على التفرق فى عينيه حين فكر فى أمه وتساءل " يا ترى هل سيكتب لى أن أراها حين تعود من عملها فى المساء ؟ " ثم ساقه هذا السؤال إلى سؤال آخر أنكى " يا ترى هل سيكتب لى ان أراها بعد الآن ؟! ومازال كذلك يفكر فى والدته واحتمالات رؤيته لها ثانية دون ان يفكر - لدهشته حين ادرك ذلك - فيما ينتظره من مصير فى هذا المكان المجهول المسير اليه وهدير محرك السيارة يعلو فى أذنيه ويصر هو الآخر على تذكره بأنه بات وشيكا - قطعا - انه سيذهب الى هذا المكان .. وأنه للأسى قد لا يسمع بعد الآن رنين جرس مدرسته المحبب أيضا ، وكانت تلك دمعة أخرى فى عينيه فأسرع بالنظر من خلال رجاج السيارة ، متظاهرا بتأمل المنظورات فى الخارج كيلا يرى الرجل مظاهر ضعفه .. وظل على تلك الحال معظم الوقت ، ينظر متأملا وفى الحقيقة لم يئن يرى شيئا لأن ذهنه كان مشغولا الى حد الاغراق بالتفكير فى امه وبيته ومدرسته وفى ايضا والده ، الذى لا يعرف عنه اكثر من أنه أسلم روحه فى المعتقل .. ولما كان معلما للفلسفة بالمدرسة الثانوية فقد جاء تقرير الوفاة متضمنا انه إنتحر - فى المعتقل - ليثبت أنه حر فى اختيار الحياة او الموت ..!

- توقف هنا ..

ثم هبطا .. وبعد أن نزل الرجل للسائق أجرة قاد ه فى صمت الى السير نحو بقعة من تلك البقع الشجرية المتناثرة – وبعد مسيرة حوالى عشر دقائق فى طريق رملى ممهد داخلها ، برز بغته مبنى حجرى أبيض يحمل فى أعلاه عدد من المداخل الصغيرة التى تسعمل فى تصريف النواتج الغازية لإحتراق الوقود فى الأفران الخاصة بالحدادين .

وكانت دهشة سامح عظيمة حين لاحظ من نظرة سريعة شمل بها تلك المداخل أن معدنها يلتصق الى حد ما ويعكس قليلا ضوء الشمس مما أوحى إليه بانها لم تستخدم فى إخراج الدخان ابدا .. غير أن دهشته كانت أعظم حين خطفت لافته كبيرة معلقة فوق مدخل هذا المبنى إنتباهه فقرأ ما يلى : " إصلاحية المتفوقين الاسرائيليين العرب ! "

- 7 -

قبل ان يستفيق سامح من دهشته اخبره الرجل ان مهمته قد انتهت عند هذا الحد ، ثم قفل راجعا من نفس الطريق ، وتأمل هو ذهابه فى حيرة شديدة وراح يتابعه بناظريه وهو يخب فى سيرة الى أن أصبح نقطة صغيرة سوداء قرب نهاية هذا الجزء من الطريق المستقيم كالشعاع وسط الاشجار الباسقة المترامية فى انتظام غير مقصود على جانبيه .. آنذاك فقط .. أدرك انه قد صار وحيدا .. وأين فى جوف تلك الغابة التى – فيما خلا هدير الامواج الآتى من البحر القريب – يخيم عليها هذا السكون المطبق الذى يطالعه فى كل شىء يحسه أو يراه .. فى الهواء .. وعلى الأرض .. فى الأعشاب .. على أفرع الأشجار .. وأديم السماء الأزرق كقبة المعبد فوق هذا المبنى الجبرى .. ولا عصفور واحد يغرد وكأن هذه نهاية العالم .. أو كأن الحياة ستجود بأنفاسها الأخيرة فى هذا المكان يا إلهى !.. ثم ماذا ؟.. ثم إصلاحية المتفوقين العرب .. علامة استفهام كبيرة اخرى تطالعه فى صمت وتحد وعليه أن يدخل ! أدخل .. الى أين ؟.. لا شك أن هناك مفاجاة غير سارة تنتظرنى .. فهكذا تكون النهاية المقبولة لكل هذه الحلقات المتسلسلة من الغمو ض .. أدخل ؟.. آه .. وهل يذهب

المرء الى الموت بلرجله ..إنى أرتعد .. أرتعد .. أين كان يختبئ هذا اليوم المشنوم منى ؟
كابوس .. اجل قد .. آه ... هل أحنى الرأس هكذا .. وقد كان أبى مشدود القامة .. رأسه إلى
أعلا وعيونة ثابتة .. إذا كان الحل الوحيد أمامى هو الإستسلام .. فأنا اذن لا أسير فى
الطريق السليم .. الطريق السليم هو الذى يؤدى الى الحياة .. الى الشمس .. الى أبى ..!
وتحت ضغط تلك الكلمات التى دقت الأجراس فى رأسه لم يتمالك نفسه .. إندفع للأمام
كالثور الهائج ثم رفس باب المبنى فانفتح فى ضجة وهو يصطدم بإحدى عوارضه ، معلنا
قدومه . عن ردهة باتساع الوجهه الأمامية للمبنى فحوائطها هى نفس حوائطه وليس بها
نافذة واحدة .. ورأى امامه مباشرة فى صدر الردهة المواجه للباب امرأة جميلة إلى درجة
الفتنه تجلس هادئة تمام اوعيناها مصوبتان اليه وقد كفت ا ناملها عن الحركة بأشغال
الإبرة لحظة رؤياه ثم عادت و أحنى رأسها وواصلت إ نشغالها بما بين يديها على ضوء
مصباح كهربى معلق فى السقف المرتفع .. وكأن احدا لم يقتحم عليها المكان فى جلستها
تلك امام مكتب صغير .. من خلفها باب مغلق والى جوارها خزانة حديدية بيضاء من هذا
النوع الذى يستخدم فى حفظ العقاقير .. ويلى الخزانة تمام سرير صغير .. مما ذكر سامح
بصالات الإ انتظار فى العيادات الطبية ، بفارق واحد هو خلو تلك الردهة من الأ رائك
والمقاعد التى ينتظر عليها المرضى أدوارهم .. فلا يوجد غير هذا المقعد الذى تجلس تلك
المرأة الانيقة الملامح والملبس والتى رفعت رأسها إليه فى دعة للمرة الثانية وابتسمت له
إبتسامة خافته .. متداخلة ثم انطوت على ما كنت عليه من إنشغال ثانية وكأنها لا تبالى به
، فلغضبته طريقته تلك فى استقباله فوق ما فيه من غضب وزمجر متسائلا :

- ماذا تريدون منى ؟

- على رسلك ! نحن هنا لخدمتك ومصلحتك .. إهدأ ..!

قالت المرأة فى صوت وادع عذب .. مدرب .. لم يزد إلا سخطا وشعر بحاجته الشديدة الى
الجلوس . وبضيق فى تنفسه من ركود الهواء فى تلك الردهة الخالية من أى نافذة .. وبأنه

على وشك الغثيان وتوهم أنه إن وقف أمامها أكثر من ذلك فسيفقد وعيه حتما .. وهو أمر لا يرتضيه لنفسه في أول لقاء له بهذا المكان فسأل بعين الغضب :

- هل سأظل واقفا طول الوقت ..؟

أجابته دون أن ترفع رأسها اليه بصوت فيه غنة طفيفة مستترة .

- على السريي إجلس ..!

ولا يدرى لماذا تذكر أمه في تلك اللحظة وصاح دون وعى :

- لماذا السرير ..؟

وتدارك نفسه ثم أضاف متسائلا :

- أعنى لما لا تعدون مقاعد أخرى للجلوس ؟

فلم تحر المرأة جوابا أكثر من أن رفعت رأسها اليه هونا وألقت عليه نظرة لا تعبر سوى عما فى عينيها من التماع مائى تحت حاجبيها المزججين الما ئلين إلى أسفل فى إحتداد صقري ، يوحى بعمق ما فيها من قوة واتزان .. فعاوده ذلك الشعور بالغثيان وكاد أن يصيح هاتضا بسقوطها وسقوط كافة الأوغاد .. لكنه لم يفعل وقاوم مشاعره بصورة تقلصت لها عضلات وجهه وأدمعت عيناه ، وكانت المرأة لا تزال تنظر اليه فصاحت به :

- اجلس .. ارجوك ..

- ماذا تريدن منى ؟

- اجلس أولا .. وبعد .. قليل يأتى الكاهن وتعرف كل شىء .

إستدارت عيناه ..

- الكاهن ؟ أو هناك كاهن أيضا .. كاهن اصلاحية المتفوقين العرب .. أليس كذلك ؟ ليكن ..

سأنتظرة حيث تريدن وسأعرف كيف أواجهه .. كاهن .. هه !

- انت تبدو فتى عنيدا .. وهذا سيجعلنا نتمسك بك أكثر من أى فتى آخر جاء هنا .. ولهذا

ساحضر لك شرابا يلطف عنادك ..!

ونَهَضت من جلستها فى خفة لتحضر له هذا الشراب وعلى الفور رأى أنها تنعم بالاضافة الى وسامة محيلها بقوام رشيق ، ولا يدري لماذا تذكر مرة ثانية – لحظة تأمله قوامها – أمه فغض بصره ولم يرها وهى تتوارى داخله من الباب الذى يقبع وراءها .. وراح يفكر فيما عسى ان يحدث بعد ذلك ، فكر طويلا و قلب الأمر على مختلف الوجوه .. واستعاد بعض ذكريات ما مضى من سنى حياته الصغيرة محاولا ان يجد من خلال الربط بينها وبين احداث يومه العجيب معنى .. فلم يهتد الى شىء لانه لم يكن يعرف – حتى الآن – ما يبتغون منه .. وقرر وهو يتنهد بعمق صدره ألا يجهد فكره فى التحرى عن بواطن الأمور كيلا يفقد صفاء ذهنه وهو يواجه هذا الكاهن المذكور الذى ينتظر قدومه بين لحظة وأخرى .. وفيما هو يفكر هكذا .. إنتبه على صوت وقع اقدام خفيفة تدنو من الباب الداخلى .. ولأول وهله ظن أنه الكاهن بينيته الرهيفة التى تنم عنها رقه خطواته ، فتوفز وتحفز ترقباً للقاءه .. بيد أنه سمع حفيف ثوب ناعم يختلط بوقع الاقدام فأدرك انها المرأة ، عائدة اليه بالشراب .. وسكن طائرة .. وركز بصره على الباب فالتقت عيناه بعينيها مباشرة وهى تدلف حاملة كوبا كبيرا ممتلئا حتى حافته بشراب أحمر – لعله كرز – ولم يدري لماذا تذكر أمه كرة أخرى آنذات فنكس عينية على الأرض قبل أن تكتشف أنه يطيل النظر إليها باهتمام وفضول ، ولعلها لاحظت ذلك إذ إبتسمت فى أعماقها بطريقة جعلت لعينيها ذلك الوميض المائى الذى تسنى له أن يلح بصيصه المنسحب حين وجدها بقوامه الرفيع وثوبها الحريري الفضفاض الذى – مع ذلك – يكاد ألا يغطى ركبتيها تنحنى أمامه لتضع الكوب على المنضدة الصغيرة التى كان يتكىء بقدميه فوق دعامة خشبية تصل بين قوائمها من أسفل ليحميها من برودة " البلاط " فأتاح له هذا الوضع – ربما دون قصد – بضع لحظات تنسم فيها برئتيه المراهقتين عبير أنفاسها العطرة .. وشعر برغبة عارمة فى أن يقبض على معصمها الرقيق بقوة وغيظ قائلا لها " كم انت جميلة مثل امى ! " لكنه بدلا من ذلك هتف وكأن فتنة المرأة قد أدارت رأسه فلم يعد يعنى ما يقول :

- كم أحبك يا أمى ...!..

- أمك ..!؟..

- أجل ..!..

- أتحبها الى هذا الحد ..!؟..

- أجل فهي أجمل الجميلات ..!

- ولهذا أنت تخاف عليها ..!؟..

تساءل مصعوقا :

- من قال لك ..!؟..

أجابته وهي تجلس إلى جواره على السرير فى أريحية بالغة مداعبة خصلات شعره
وكأنهما قد صارا أصدقاء :

- اننا نعرف كل شىء عنك ...!..

وكانت قد اقتربت منه فى جلستها إلى حد أنها أوشكت ان تلتصق به فصعدت الدماء إلى
أذنيه وأحمر لونهما حتى صار يضاهى لون ذلك الشراب فى ال كئوب خجلا وشعر بلعابه
يجف فتناول الكوب وجرع ما فيه دفعة واحدة و أنتعش ...!.. وفكر فى أن ينحرف بجسمة
قليلا عنها .. ثم عاد وتراجع عن ذلك حتى لا تلم بما يعتمل فى صدره من إ نفعالات ، أو
حتى لا يؤذى مشاعرها التى بدت له فى تلك الآونة سامية غاية السمو ...!.. فضلا عن أنه
لأسباب لم يفهمها بدأ يحس الألفة والراحة فى قربها منه بعد هذا اليوم المضنى الذى لم
يمر به يوم مثله ، والذى تكاد أن تنتهى فيه آلامه نهاية سارة ..!

- حرق فى عيني يا صغيرى ..!

إنتفض نافوا على قدمية فى ذهول وه تف :

- ماذا ..!؟..

ودون أى تمهيد او مناقشة أمسكت بيده وجذبتة م عيده إياه للجلوس .. لكن على ركبتها
تلك المرة ، وطوقته بذراعيها وهى تمسح خدها فى خده وتضغطه إلى صدرها قائلة :
- إنى أقدم لك نوعا من الحنان لم تألفه .. آه صغيرى .. يا صغيرى .. كم أنت رقيق .. حالم
..

فاستسلم لها - لحيرته - بارتياح لم يعرف له سببا وهو يزفر لأنه ينفث أبخرة فاسدة طال
ركودها فى صدره وأجهش جهيشا محزنا أذهله عن نفسه فأخذ يكور جسده فى صدرها
ويقبلها متسائلا إبان ذلك فى مرارة :

- لماذا تعاملوننى تلك المعاملة الغامضة وأنا صغير لا خوف منى ..؟!

فلجأته وهى تشجعة على لثم خدها بإدارة الخد الآخر له :

- لأنها نحبك ونخاف عليك ..!

- تخافون على .. من ماذا ..؟

- من نفسك .. أنت رجل صغير تقف على أعتاب المراهقة .. وفى ذات الوقت تنال الدرجات

النهائية فى كل المواد .. ولو كانت هناك درجات فوق الدرجة النهائية لنتها أيضا .. أى أنك

لست فتى عاديا ككل الفتيان .. ولهذا نحن نقدم لك الحب الذى يحمى نبوغك ..!

أبعد وجهه قليلا عنها .. ثم امعن النظر بإرتياب فى عينيها برهة وأردف متسائلا :

- صحيح ...! وماذا عن اصلاحية المتفوقين العرب ..؟

فاستردت وجهه ثانية وأغرقتة فى سيل من القبلات وهى ترد عليه قائلة :

- أنت فتى نابه لا تنسى شيئا .. لكنك نسيت .. للأسف .. أننا ننظر إليكم نظرتنا إلى باقى

مواطنينا واللافتة المعلقة على الباب الخارجى تقول ذلك .. فهى إصلاحية المتفوقين

الإسرائيليين العرب وليس العرب فقط ...!..

غمغم متسائلا مرة أخرى :

- أهذا هو نوع الإصلاح الذى تقدمونه ؟.. أعنى هذا النوع من الحنان الذى ذكرته لى ..

أجابته وهى تحقق فى غور عينيه :

- نعم .. لكن عليك ان تقدم لنا بعض البراهين على أنك تبادلنا شعورا بشعور ..

- كيف ..؟! :

أجابته وهى تحقق فى غور عينيه اكثر :

- هذه أمور ستتكشف لك فى حينها .. اما الآن فدعنا نتعرف على بعضنا أكثر ..!

سألها وهو يبحث لعينية عن مهرب :

- ومن الذى سيكشفها لى " أنت ام الكاهن ..؟ "

ردت عليه قائلة وهى تواصل التحقيق بإصرار :

- قد أكون أنا .. وقد يكون الكاهن .. وقد تكون أنت نفسك .. من يعلم ؟.. باطن الانسان بنر

عميق بالأسرار .. وبالحب أيضا ..!

أغمض عينيه بعد أن فشل فى الهروب من نظراتها وسأل بصبر نافذ :

- ومتى يكون ذلك ..؟

فهمت به وهى تتصنع اليأس مغممة بصوت مهموس :

- آه .. إنك تغمض عينيك مع أننا لازلنا فى البداية .. والمفروض أنك ستبرهن لى يوما بعد

يوم عن حبك لنا ..!

- كيف .. هل سأتى إلى هنا مرة أخرى ؟

- بالطبع مرة ومرات ..!

هب واقفا على قدميه متسائلا فى جزع :

- والمدرسة ..؟! :

وكان الجواب كان جاهزا على طرف لسانها أجابته :

- فى مكانها مصونة لا تمس !.. طمنن نفسك .. لن تقيدك المدرسة غائبا فى الأيام التى ستجىء فيها إلينا هنا .. لأنك ستدرس فى تلك الاصلاحية مادة تكمل دراستك بالمدرسة .. أخبرنى بالمناسبة .. ماذا تقول لك أمك فى البيت عنا .. ؟

فتجاهل سؤالها وصاح هازئا :

- مادة الحب الذى يحمى النبوغ ..؟!؟

أجابته وهى ترده اليها :

- ليس بالمعنى الحرفى للكلمة .. لكنها نوع من الحنان لم تألفه .. نوع من تصحيح المشاعر ليس إلا !

فخلص نفسه منها فى نفور مباغت وهب يعيد ترتيب شعره ويعدل من أوضاع ثيابه التى كانت قد صارت الى فوضى أثناء العناق وهتف فى عناد و صلف وحسم :

- إنها لعبة لن أشارك فيها ..!

ثم فى عزم وخطو ثابت .. أخذ طريقة نحو باب الخروج فأسرعت تذكره بلهفة :

- إنك ستأتى غدا ..

لم يهتم بالاجابة عليها فصاحت فى حنق فجأة :

- ايها الغلام .. إنك ستأتى غدا وبعد غد رغم أنفك .. ستأتى لأنك تعلم أن لدينا مفاتيح لكل البيوت ...!!..

- 8 -

صفق سامح الباب خلفه فى غضب .. ثم جعل كل همه أن يغادر هذا المكان اللعين بأقصى ما يستطيع من سرعة فأطلق لساقية العنان ، متوهما بين لحظة واخرى ان يثب على ظهره من وراء إحدى الاشجار حيوان .. او انسان .. مما اشاع الاضطراب فى خطواته فتدخلت وأوشك ان ينكفىء على وجهه اكثر من مرة وحال دون ذلك ان الطريق لم يكن وعرا وعورة أحاسيسه وأفكاره من جراء ما حدث و " لديهم مفاتيح لكل البيوت .. يا الهى ...!!..

وكان قد قطع شوطا كبيرا من الطريق حين شعر بغته أن قواه تخونه .. وخيل اليه أنه لن يقوى على بلوغ الطريق العام فوجب فؤاده بخوف وتساوت أفكاره بسطح الأرض واغرورقت عيناه وظل يجاهد بدنه الرهيف بقوى النفس الدفينة ، يده على قلبه وعيناه على البحر البادى من خلال فوهة الطريق الذى إستطال فجأة عند تلك الأمطار القليلة الباقية ، إلى ان وصل اخيرا ولكن بعد أن اختلت حركة " الحجاب الحاجز " فى رنتيه من فرط الجهد الشاق الذى بذله فضاقت .. وأظلمت عيناه .. وخيل اليه انه فقد حساسه بغته .. وبأن كل جوارحه التى يتفصد منها العرق تتجمد وشعر برغبة خبيثه فى قىء هذا الشراب الذى لم يدخل معدته شىء غيره منذ الصباح .. فأرعى ساعديه وتأهب للإغماء وصرح صرخة ألم ثم ألقى بجسده المنهك على الارض وهو يصيح فى أعماقه بشقاء :

- يا ألهى .. انى أموت !!

- هل استطيع ان اقدم لك يد المساعدة يا بنى ..؟

ورفع رأسه فى جزع من بوغت بأمر غير متوقع الى الرجل الذى أقترب منه وجلس على ساقية نصف جلسة يتأمله بعين فاحصة .. مشفقة .. فهاله ان يكون هدفا للتأمل والاشفاق اخيرا ، وشعر بالغضب من نفس ه ورمق الرجل بصمت غضوب ..! وكانت نتيجة هذا الشعور بالثورة على النفس سريعة جدا فانزاح عنه جزع ه واستلانت عضلاته وانتظمت بعض الشىء حركات الشهيق والزفير فأحس بالراحة قليلا وتنفس الصعداء .. وتحامل على نفسه حتى نهض من كبوته ثم ابتسم فى وجه الرجل إبتسامة الشكر الواجبة .. دون أن يقول شيئا .. حينئذ بادله الرجل البسمة بأحسن منها قائلا :

- إنى أراك وقد اصبحت أحسن قليلا .. إلى أين انت ذاهب ؟ .. ولكن دعنى أعرفك بنفسى أولا .. اسمى " شلومو ألون " وعملى مهندس إنشاءات ..

وصمت الرجل ه نهمه كما لو كان يرقب الأثر الذى تركه اسمه وعمله فى نفس الفتى ثم استدرك مشيرا الى سيارة فارهة تقف على مقربة منهما .. والى البحر :

- كنت هنا اقوم بجولة للبحث عن مكان مناسب لتشييد منارة لإرشاد السفن فرأيتك وأنت

تسقط .. ماذا بك يا بنى ؟ .. وماذا تفعل فى هذا المكان النائى ..؟

كان الأثر الذى أبدى الرجل إهتماما طفيفا للوقوف عليه فى نفس سامح يتوزع على خلجات وجهه ونظرات عينية بين الفضول الشديد والرغبة فى التصديق .. وكان الرجل فيما يبدو يفهم تمام السر فى هذا ، اذ إبتسم فى مرح واستطرد بعد سكت ة قصيرة متضحكا فى نظرف :

- آه .. آه ..!.. انى اعلم سر دهشتك يا فتى .. ولا بد انك تلميذ فى السنة النهائية بالمدرسة الابتدائية .. أليس كذلك .. ؟ لكن لا تعجب .. إن اسمى فعلا شلومو ألون وعملى مهندس إنشاءات لكنى لست شلومو ألون هذا الذى تقرأون عنه فى كتاب " مدنيات إسرائيل " بالمدرسة .. فى الحديث عن إختيار مهنة للتلاميذ على ما أعتقد .. والذى يذكر فيه التلميذ احمد أنه يتذكر دائما المهندس ألون بالخير لانه وضع الخرائط والتصاميم لبناء بيتهم .. على حد ما قيل لى فى كل مرة كنت أتعرف فيها على تلميذ فى المدرسة الابتدائية ..آه .. كم اوقعنى هذا التشابة فى الأسماء مع التلاميذ الصغار فى مواقف مضحكة ومثيرة ..!.. مثل هذا الموقف الطريف الذى تفقه منى الآن .. يا بنى ألا تقول شيئا ..؟..

ثم سكت .. فقال سامح لنفسه " هذا الرجل يريد منى شيئا ! " وتفرسه بنظراته حائرا .. فقهقه الرجل وهو يربت على ظهره فى مرح وتبسط قائلا اثناء ذلك :

- آه .. إنك تنظر الى نظرة غريبة .. لك الحق فى هذا يا بنى .. فليس سهلا على صبى مثلك .. ان يجد الخيال الذى يطالعه فى كتب المدرسة وقد تجسم حقيقة .. انت فتى ذكى فيما يلوح لى .. ولهذا سأقدم اليك عربون صداقتنا .. ما رأيك .. انى عائد الآن بسيارتى إلى داخل المدينة .. وأنت أيضا فيما أظن .. والآن اتساءل : لماذا لا اصحبك مى فى سيارتى .. لأوفر عليك هذا الجهد فى السير وأنت متعب ..! هيا يا بنى .. هيا .

ودون أن ينتظر موافقته شدة من يده وسار به صوب السيارة المنتظرة .. فاستسلم له
سامح راضيا لأن أمر عودته راجلا وهو بهذا إلا رهاق والشعور بالجوع كان يمثل له
مشكلة فعلا ثم ان الرجل بدا له بسيطا خفيف الروح على نحو يدعو للاطمئنان اليه .. فضلا
عن انه ما كان يحلم يوما بركوب سيارة فخمة مثل تلك .. فعجب ان يتحقق ذلك في هذا
اليوم المشحون بالمتاعب .. ودعا الرجل للقعود إلى جواره على المقعد الأمامي إمعانا في
الحفوة به فشكره بنظرة عرفان وبسمة إمتنان ، ودار محرك السيارة ثم بدأت تنساب
ناعمة خفيفة على الطريق الموازي للبحر وسامح يؤنب نفسه على سوء ظنه بالناس فقد
احاطه الرجل بعطف زائد بينما فسر هو مساعدته على أنها لا تخلو من غرض .
وفيما هو كذلك .. سمع الرجل يتمتم قائلا وهو يوزع إنتباهه بين النظر اليه وإلى الطريق :
- إنى أعرف ما يدور بخلدك .. فأنت تتساعل عن الدافع الذى يدعو رجلا مثلى الى تقديم
العون اليك..

ثم صمت لحظة ليركز انتباهه كله على تخطى سيارة " نقل " تتقدم بطيئة تحت ثقل
حمولتها .. وبعد ان تخطاها بسلام استرسل بنفس اللهجة :
- لكن .. لماذا نتساعل بتلك الطريقة التى تعبر عن سوء ظننا بالغير .. لم لا نصلح أنفسنا
ونجعل من قيم التفاهم والتعاون والحب أساسا لإقامة الحياة فى هذا الوطن ..
وسكت مرة أخرى ليتفادى تلك المرة طفلا صغيرا يلهو فى عرض الشارع فشقق سامح
شهقة هلع وايقن لحظة انه لا محالة سيدهمه .. بيد أن الرجل انحرف عنه فى مهارة
بزاوية شبة حادة ثم وج ه السيارة فى خط مستقيم بعد ان تقادى حادثا مؤكدا بسيارته
الرائعة المطيعة .. السلسة القيادة وهو يلعن الطفل وأهله فى نفسه .. فتنهد سامح بارتياح
وهو يرمقه بنظرة إعجاب وتقدير .. على حين واصل هو حديثه وكأنه لم ينقطع او كأن
شيئا فظيعا لم يكد يقع :

- إن قيم الخير والنور والمحبة والتسامح التى تنادى بها القيم الجديدة لبلادنا ينبغى ..

وغرق سامح فى تفكير طويل لدى سماعه تلك الجملة " القيم الجديدة لبلادنا " فلم يسمع بقية حديث الرجل الذى ظل يحدثه ظانا ان صمته دليل على الاصغاء التام له .. فى حين كان هو يراجع ذاكرته باحثا عن المواضع التى قرأ أ و سمع فيها تلك الجملة التى .. آه .. قد تذكر .. إنه تعبير يطالعه باستمرار فى ثنايا هذا الكتاب الذى يتحدث فى باب " أين تتجه ؟ " عن هذا المهندس الذى كان م نذ دقائق فحسب مجرد معلومة فى ذهن ه .. فلذا هو الآن يجلس الى جواره بشخصه ولحمه .. ويقدم له يد المساعدة أيضا .. أليس هذا عجيبا ..؟ .. ويدعو الى التساؤل وإساءة الظنون ؟ .. وفعل هذا السؤال فى نفسه فعل الماء البارد فى فاقد الوعى .. فتبددت من رأسه كل الافكار الخاملة .. واختلس الى الرجل نظرة تقطر ريبة وه و ينهى خطبته التى فاتته سماع الكثير منها بقوله :

- إن البناء والتعمير وإضاءة النور فى الخرائب .. هما مبدأى الأوحى فى تلك الحياة .. وقد قلت لك منذ قليل أننى كنت أبحث عن مكان ملائم .. ربوه .. او مرتفع مثلا .. يصلح لإقامة منارة لإرشاد السفن .. ولقد ساقنى بحثى إلى هذا المكان المنعزل الذى قابلتك فيه .. لكنى اعتقد ان هذا المكان .. ليس هو المكان المثالى تماما لإقامة تلك المنارة ..

وسكت لحظة يفكر او يبتلع ريقه لا يدرى سامح ثم أضاف وهو يوجه نظرة إلى الامام :
- لكن .. أتعرف .. انى أحلم بمكان آخر يتوافر فيه كل مواصفات التربة والإرتفاع التى تلزم لبناء هذا المنار .. انه مكان مررت به صدفة ذات صباح ومن يومها وأنا أفكر فيه وأحلم به ..

وهامت إبتسامة ذات مغزى حار سامح فى إستبيان معناه على شفتى الرجل .. آنذاك .. تأكد لديه أنه يتحدث اليه عن موضوع هام جدا .. فانتبه اليه بشدة وأصغى باهتمام إلى ما يقول وهو يستطرد متصنعا الحزن وخيبة الأمل :

- لكن يا خسارة .. هناك بعض الصعوبات فى سبيل الحصول على قطعة الارض التى أحلم بها تلك .. فعليها يقوم بعض منازل أخواننا العرب ...!

هنا قطع الرجل كلامه ليبصق من النافذة التى على شم اله .. وكان فضول سامح قد اشتد
أواره لدى سماعه هذا التصريح الخطير ، وأراد أن يتفوه بشيء ينفث به عما بدأ يساوره
من عدم إرتياح تجاهه .. لكنه غير رأيه بسرعة .. ليتيح له فرصة إتمام حلمه الرائع
فأمسك نفسه وهو يتميز غيظا واستطرد الرجل :

- آه .. لو ان اخواننا العرب أدركوا اننا نضطر تحت ضغط تحقيقنا لمبدأ سيادة المصالح
العامة على المصالح الخاصة او الفردية .. الى مطالبتهم ببعض التنازلات اليسيرة التى
نطالب بها جميع الطوائف الاخرى ونطالب بها أنفسنا أيضا ..آه..أ.. اذن لتحققت تلك الحياة
الموعودة فى اسرائيل .. ولو جد كل إنسان مكانه اللائق فى تلك الحياة .. بغض النظر عن
دينه أو جنسه ..!.. وارتجف سامح واضطرب وسأل نفسه " إلى ماذا يريد ان يصل هذا
الرجل ؟ " وتواردت على ذهنه خواطر شتى فاكتشف بكل الذعر والدهشة والالم حين جرى
فكره عفوا الى موقع بيته أنه تنطبق عليه وعلى بقية المنازل المجاورة .. كل الصفات التى
يذكرها .. أليس يقع على شاطئ البحر فى مقدمة هذا الشارع الذى يمتد منه جزء كاللسان
داخله .. وأليس مستوى إرتفاع هذا الجزء عن سطح البحر أكبر من بقية الأجزاء الأخرى
التى ينحدر اليها الشارع كلما توغل الى الداخل بعيدا عن البحر .. وأليست تلك البيوت
يمتلكها " الاخوان العرب " ؟

- آه ..!

وشعر بيد الرجل تضغط على يده فى نبض السماحة والود متسائلا :

- الست معى ؟!

وبحركة لا شعورية سحب يده فى سرعة وكأن عقربا لدغه .. وعاوده ذلك الشعور الكريه
بالغثيان إذ بات يقينا لديه أن الرجل يتحدث عن إزالة منزله لإقامة هذا المنار ربما دون أن
يدرى فصرخ :

- أنزلنى هنا يا سيدى ..

- ماذا ..؟..

- قلت لك انزلنى ولا ألقيت نفسى من السيارة ..!

فأطاعة الرجل وهو يفرغ فاه دهشة .. وفى لحظة كان قد مضى!

- 9 -

ثم لاذ بالفرار الى البيت ، لا يعى ولا يشعر بشيء مما حوله ، لم تكن أمه قد عادت بعد فلم يجد شيئا يسد به غائلة الجوع سوى بضع لقيمات تبقت من وجبة الصباح جمعها وراح يقضمها بنهم لم يشعر بمثله أ بدا ويقضم معها أفكاره .. وهو جالس امام نافذة غرفته المطلّة على البحر – تلك التى كان يشغلها والده قبل أن يولى الأدبار الى الحياة الاخرى – يحرق فى زبد الأمواج ويتسمع هديرها .. دون ان يرى او يسمع شيئا .. فقد كان تلاطم أمواج الأفكار فى رأسه أشد ، وكان هديرها الصامت فى أذنيه أكثر وقعا .. ولا يدري كم من الوقت مر عليه وهو على تلك الحال ، لكن الذى يدري ه بوعى تام أنه لم يهتد الى معنى واحد يعلل له ولو بصوت خافت أحداث يومه وسط هذا الطوفان الغامر من الغموض الذى أغرقه حتى تصبب العرق من جبينه وكاد أن يختنق ..! وكأنه كان يفكر فى لا شيء ايضا ، حينئذ قرر بصورة قاطعة الا يفكر فى تلك الاحداث ثانية وان يهمل بحث ذلك الامر تماما .. كيلا ينشغل بشيء آخر غير الدراسة ، التى لكان يرى فيها كل آماله .. بل وآمال أمه إن لم يكن يغالى قليلا فى تقدير شأنه وشأنها ، ثم أصبح يرى بعد الذى لاقاه فى هذا اليوم أنها لا تمثل آماله وآمالها فحسب وإنما وجودهما ايضا .

ولذا ما أسرع أن استدار الى حيث كتبه وكراساته .. وطفق يستذكر الدروس التى فاتته حضورها هذا اليوم بالمدرسة .. واستغرق فيها تماما .. نسي كل شيء .. الى أن إنتبه على صوت الباب يفتح فى الطابق السفلى وكأن قرص الشمس الذهبى الدامى ينشر ألوان الشفق فى السحب وينثر على الامواج مجموعة متباينة من ألوان القرمز قبل ان يغيب فى

البحر ، فأدرك أنها أمه .. وهب يستقبلها بتلك الفرحة التي تعود أن يلقاها بها كل مساء على رأس السلم قائلاً بعد ان ضاق بالآلام الجوع صبرا " أسرعى .. أسرعى يا أمى " !.. فتقول له وهى تصعد اليه بكل جوارحها " يا بنى الحبيب .. ألا تصبر دقيقة أخرى ! " غير أنه الفى نفسه يقول لها تلك المرة على غير ما تعود " أسرعى يا أمى لتخبئى فى صدرك !.. " وصمت ثم اضاف لنفسه وهو يتذكر قول تلك المرأة فى الإ صلاحية .. " نوع من الحنان لم آلفه .. هه !.. " ففرقت الام بضعف يشفى يلهاقها الشديد وهى تكاد ان تجذبه اليها بنظرات الحب المغناطيسية فى عينيها .. اثناء صعودها درجات السلم .. وبمجرد ان وصلت آخر درجة ارتمى على صدرها حتى كاد أن يختل توازنها ويسقطان معا لولا أنها تعلقت بسيلاج الدرج فى اللحظة المناسبة .. وهى تسأله مأخوذة بغرابة أطواره فى تلك الأمسية :

- ماذا حدث ؟..

فأجابها وهو يمعن فى تخبئه نفسه فى ثنايا صدرها متهمكا :

- إنى أبحث عن نوع من الحنان لم آلفه !..

وأبعدته عن صدرها قليلا فى رفق لئلا يتوغل أكثر مما ينبغى ف لا تعود تفرح برويته ثم صحبتته إلى الداخل وهو لا يزال يتعلق بصدرها وعيناه تشرقان بالدمع وكررت السؤال :

- ماذا حدث ؟..

وأم عنت اليه النظر هنيهة لتستوثق من أنه على المرام ثم هتفت :

- انى لا افهم شيئا ..

فأفلت صدرها ثم غمغم وهو يدفعها ناحية " المطبخ " دفعا :

- انا نفسى لا افهم شيئا ..

- كيف ؟.. يلوح لى انك تمزح بمرارة على غير عادتك !.. آه يا نور عيني هذا من فرط

الجوع !..

وكفكت دمة طفرت من عينيها وتمتت مستطردة فى شقاء :

- الله يقطعنى ...!.. أنا أغيب عنك طويلا ..!

فتعلق بذراعيها مستميتا ليزيح عنها آلام الشعور بالذنب الذى لا محل له قائلا بانفعال :

- كلا يا امى .. ليس فرط الجوع .. بل الحب ..!

وقفز أمامها الى " موقد الغاز " ليشعله وهو يقول متصنعا النشاط والمرح :

- دع نضى اساعدك ..

ثم بغته تذكر جارتها " زينا " وأراد ان يطمئن على شىء ما فسلها وهو يبحث عن عود

ثقاب يشعل به الموقد :

- هل مررت على الخالة زينا وأنت عائدة ..؟

ردت عليه قائة وهى " تفك " لفافة تحوى الطعام الذى تجلبه معها كل مساء من المنازل

التي تخدمها :

- أنت تعلم اننى لم افعل ذلك مرة واحدة منذ مات ابوك .. فأنا لا أكاد اصدق أننى إنتهيت من

عملى حتى اجرى اليك عائدة بالطعام !.. لكن .. صمتت لحظة تفكر ثم استدركت متسائلة :

- لم تسأل هذا السؤال ..؟

فأجابها وهو يتلثم إرتباكاً :

- لا .. كلا .. لا شىء .. اكثر من اننى تذكورتها فهى لم تزرنا منذ أسبوع تقريبا ..

وغمرها إحساس فائق بالغبطة لأن ابنها يبدى اهتماما مبكرا بأحوال جيرانه ويشعر

بافتقارهم حين يتخلفون عن زيارتهم وتطلعت نحوه بعينين عطوفتين .. عيان زرقاوان ..

كان لهما طريقا اخذا يوما ما .. وتمتت وهى تتنهد وتبتسم ابتسامة عذبة :

- إيه .. تلاهى الحياة يا بنى .. من يدري .. ربما .. آه .. ما رأيك .. نتناول الطعام ثم نخطف

أرجلنا لزيارتها ..

- نخطف أرجلنا ..؟!

صاح سامح فى ذعر مفاجىء سارع باخفائه طى نفسه حتى لا تفهم شىئا .. او تلح عليه بالسؤال عن سببه واسترسل متداركا :

- آه .. ليس الليلة يا امى .. انى متعب قليلا .. كما ان ورائى دروسا كثيرة استذكرها .. وهزت الام راسها موافقة فى تفهم وهى تغسل بعض الاطباق بجانبه وتقول :
- إنك ترهق نفسك بشدة فى المذاكرة يا حبيبى .. انى اخشى على صحتك .. وفجأة تذكرت بدورها شيئا ما فتنهدت تنهدة شعر بها سراح تنفذ الى صميم قلبه وقالت :
- لقد كنت رائعا فى حفل الأمس .. هكذا قالت لى زوجه رئيس المجلس البلدى فقد حضرت الاحتفال .. هى امرأة كريمة كما تعلم .. وكان اليوم موعد زيارتى الاسبوعية للعمل لديها .. اتعرف .. هذه المرأة الطيبة تحبك جدا .. لقد ظلت تتحدث عنك وعن نبوغك طول الوقت تقريبا ..حتى لثدت اشعر بالغيرة منها .. وبكى لأننى لم أستطع رؤيتك وهم يصفقون لك إعجابا بك ..

وسكنت برهة ثم اطلقت زفرة اخرى و اضافت :

- لكن .. لا جدوى من الاسف .. فهذه حال الدنيا ..!

وبعد بضع دقائق .. كانا قد انتهيا من عملهما الذى لم يكن يتعدى التسخين والغرف فقد تم الطهو فى بيت آخر وحملا الاطباق الى غرفة نوم الام التى تعود ان ياكلوا فيها .. وجلسا قبالة بعضهما فوق سجادة صغيرة على الارض ، لا تكاد تـ سـتـبين رقبـشـها وألوانها من مخلفات نواف العهد الماضى ، يأكلان فى سعادة وهما يتبادلان النظرات فى حب وبيتسـمان لبعضهما .. وتركزت أفكار سامح – إبان ذلك – حول زوجة رئيس المجلس البلدى .. تلك التى تقول امه انها تكن له حبا واعجابا وتساءل " انها زوجة رجل مرموق فهل يكون من الصواب ان اكشف أمى بما حدث لى اليوم لتحدث تلك الزوجة فى شأنى .. عسى أن تستطيع توسيط زوجها لدى هـ ولأء القوم ؟ ورغم وجـاهة تلك الفكرة فإنه لم يستطع ان يبوح لها بذات صدره .. حاول .. حاول أن يستجمع شجاعته ويسرد على مسامعها ما حدث

.. فألمه ان يلمس ضعف إرادته وقصورها .. فقد كان صعبا عليه ان يتخيل وجهها حين ينقلب ألما .. فوق انه فكر اولا وقبل كل شىء فى أنها قد حافظت إلى هذا الوقت على إستقلال رأيها فى تدبير شئون حياتهما ودفعت – ومازالت تدفع – ثمن هذا الإستقلال غاليا من راحتها وكبريائها .. الأمر الذى يوقن أنها لن تتردد لحظة فى التضحية به من أجله .. وهو على نفسه أمر أهون منه الموت .

- 10 -

أمضى ليلته أرقا يتساءل " ترى ماذا يخبى لى الغد ؟ " ولم ينم الا قبيل الفجر .. لانه اضطر تعويضا للوقت الذى اضاعه – رغم رادته وعلى غير ما كان قد قرر – فى التفكير فيما حدث وما سوف يحدث وبسبب تخلفة عن الدراسة فى ذاك اليوم ايضا .. الى مضاعفة الجهد فى المذاكرة .. وفى الصباح التالى .. تناول افطاره على عجل ثم انطلق الى مدرسته فأتخذ سؤاله شكلا آخر " ترى هل سأجد الرجل فى انتظارى هذا الصباح ايضا ..؟ .. وجاءت الاجابة سريعة وحاسمة .. لانه كان يركض – تحت إلحاح هذا السؤال – ركضا .. فاذا به يرى على البعد لحظة إقتحامه الشارع الذى تقع فيه المدرسة .. رجلا يرتدى ذات الحلة السوداء .. يقف على قيد خطوات من البوابة .. فلأخذته البغته وتساءل " ترى هل هو نفس الرجل .. وهل ينتظرني أن تلك المرة .. ام ينتظر تلميذا نابها آخر ..؟ " .. وكان قد دنا كثيرا وهو يفكر مضطربا فى إجابة شافية لهذا السؤال ، بحيث أصبح من الميسور عليه وعلى الرجل تمييز ملامح بعضهما .. فرأى – لدهشته – ان الرجل وإن كان يبدو – فى مظهره – مطابقا تماما لرجل الأمس .. بيد انه رجل آخر غيره ، والذى ما إن وقعت عيناه عليه حتى أسرع بالإنصراف من المكان .. فتسمرت أقدامه بأرض حيرة وراح يفكر – بالذهول كله – فى معنى هذا وهو يتابعه بنظراته الى أن أوشك على الاختفاء فى الشارع الجانبى .. حينئذ ألقى الرجل عليه نظرة أخيرة .. كأنما يؤكد له بتلك الحركة أنه وحده – ولا أحد غيره – المقصود بوقوفه فى هذا المكان – ثم توارى فى الشارع .. وفى التو خرج

سامح من تفكيره هذا بنتيجة هامة مؤداها أنهم يريدون الإيحاء اليه بان منظمتهم يعمل فى خدمتها اكثر من رجل .. وأنه إن لم يأخذهم على محمل الجد فلنفسه سيجد نفسه فى مواجهة واقع لا قبل له بملاقاته ، وتذكر فى تلك الآونة أن المرأة لحظة مغادرته " الاصلاحية " قد وجهت اليه تهديدا سافرا بقولها له انه سيأتى اليهم رغم انفسه لانه يعلم ان لديهم مفاتيح لكل البيوت .. فوجد قدماء تسوقانه دونما إرادة الى أ خذ الطريق المفضى الى تلك " الاصلاحية " ..

لم تكن المسافة التى عليه ان يقطعها قصيرة .. ومع ذلك لم يفكر فى الركوب .. لانه لم يكن يملك نقودا تكفى حتى لركوب " أتوبيس " .. ولم يكن يشعر بالقلق لهذا .. لأن القلق الذى إعتراه بسبب خنوعة القهرى هذا ، كان اكبر مما عداه .. فراح يغز السير فى كآبه ووجوم .. ولا يدى كم من الوقت مضى .. ولا كيف وصل .. المهم انه وجد نفسه اخيرا يدفع باب الاصلاحية ويدخل من غير تكلف كما لو كان يدخل بيته .. فى قلبه وجيب الترقب والحذر وفى عينيه بريق من أتى نشاطا غير متوقع .. ليرى نفس المرأة .. جالسة عين الجلسة .. والتى ابتدرته قائلة دون ان ترفع رأسها إليه لترى إن كان هو أم لا :

- إنى سعيدة لأنك جئت إلينا مبكرا هكذا ..

ثم قل لي قليلا .. رفعت وجهه باسماء إليه .. واستدركت بعد لحظة صمت و أناملها تتحرك بأشغال الإبرة فى آليه ماهرة :

- انك بهذا تضيف الى معلوماتنا عنك معلومة اخرى .. فأنت تخضع عواطفك لعقلك .. فوق أنك ذكى ومتفوق ..

صالح متسائلا فى تذمر :

- ثم ماذا ؟

- ألا تحبينى أولا ؟

ونهضت من مكانها وهى تنفض يديها من اشغال الابرّة .. وتمد اليه يدها لتصافح ه
مستطردة :

- اذا كان الواقع يأبى أن نكون أحياء .. فلا بأس من أن نكون أصدقاء ..

- هكذا إذن .. ولم نكد نتعارف ..

قال ذلك وهو يقدم اليها يده على مضض .. فضغطت عليها بحرارة .. قل أن تتوفر لصديقين
تعارفا منذ الصغر فى لقاء أتى بعد فراق طويل .. وأبقت يده فى يدها مدة خيل اليه بها انها
تتعهدا وهى تحمق فى ع ينية .. دون ان تتفوه بكلمة .. كأنما تفكر .. ثم اخيرا قالت
باقتضاب لا يفتق وهذا الاسهاب الذى حدثت به يده :

- اعتقد اننا تعارفنا فى زيارتك السابقة بما فيه الكفاية .. ليكن .. اسمى سارة ..!.. ه تف
يصطنع المرح : - يا للمفاجأة السارة !

فقهقته وهى تسحب يدها فى ليونة قائلة إبان ذلك :

- لا تكن منافقا .. انى اعلم ما يدور بخلدك ..

- كيف ..؟

- لابد انك تقول فى نفسك اسم على غير المسمى ..!

- آه .. ليكن .. هذا حق .. والآن ..

سكت لحظة ثم استتلى وهو يشير الى الباب المغلق دائما خلفها :

- ألا تقولين لى ماذا يخبىء هذا الباب ..؟.. وأين هم التلاميذ النوابغ الذين تصلحون

افكارهم .. آه .. اقصد نفوسهم .. لا وإنما ..؟.. أنا فى الحقيقة لا اعلم حتى ا لان مغزى

إطلاقكم اسم إصلاحية على هذا المكان .. فهل هو للترضية .. ام للإستفزاز .. او السخرية

..؟! ثم متى ابدا الدراسة ومتى أقابل الكاهن ..؟!

إنهالت تساؤلاته فى إندفاع وحيرة على هذا النحو فأسرعت تجيب ه وهى تعاود الجلوس

والتقاط أشغالها :

- لا تكن عجولا .. ستعرف كل شيء فى حينه ..

وأجفل هو لاجابتها المضجرة وتأمل المكان حوله فى توتر وقد عيل صبرة وصلح منفجرا :

- أوووه .. لم أعد احتمل !.. كل هذه القسوة الفظيعة وهؤلاء الرجا ل المتغطرسون الذين

ترسلونهم فى إنتظارى امام المرسى .. وهذا المبنى المريع .. وعيناك اللتان تحاصرانى من

كل جانب كلما تعطفت على بنظرة بين لحظة وأخرى .. وأشغال إبرتك المملة !..! والكاهن

الذى لا يأتى ابدا ..و..

كاد يقول " ومفاتيح البيوت التى تحتفظون بها للعمل وقت اللزوم " ثم عدل كيلا يعترف

بنقطة ضعفه التى يفترضون وجودها ويحاولون إستغلالها بترو الفرض القائم لإقدام

اليقين القاطع .. مستأنفا حديثه بنفس اللةجة :

- أوه .. يا الهى .. لم لا تدعوننى وشائى !؟!

ثم وكأنه يستحثها للكلام بإفاضة تساءل بلهجة أقل حدة :

- إنكم تحبون لى الخير .. اليس كذلك ؟

وأبدت سارة جم ودا غريبا حينما بلغ به الأمر تلك المرحلة .. ونظرت إليه من خلال

أصابعها .. ولم تنبس بكلمة فخارت قواه .. والقى بنفسه فوق السرير جالسا وهو يكبح

جماح غضبة حتى لا ينتحب كالطفل الذى أبى أن يكون ..!.. وزحفت الرهبة الى نبرات

صوته وهو يقول :

- يا إلهى .. لقد إنغرست عيناك فى شغل الابرّة كما ينغرس الذباب فى العسل !..! أخبرينى

بربك .. ما معنى هذه اللامبالاة المقصودة .. أتريدين أن أموت غيظا !.. وبغته إمتلا صوته

قوة وتصميما واستدرك :

- اذن .. أعلمى اننى لست من هذا الصنف من الفتيان .. وأن أيسر شيء أفعله هو أن أدير

لك ظهري وأذهب كما فعلت بالامس ..

- اخلع ثيابك !..!..

- ماذا .. ماذا تقولين .. اوصلت المهزلة إلى هذا الحد ..؟!

وضحكت سارة ضحكتها الناعمة .. الزلقة .. ثم غمغت فى ابتهاج وعيناها تلتمعان :

- يا للصبى العابث ..!.. يا للصبى الماجن !.. انت تبوح برغباتك الدفينة مدعيا الإنكار دون ان تدري !.. مع اننى لم أعن هذا قط .. ماذا تظننى ..؟!.. امرأة ساقطة ؟.. أكون الأمر فقط هكذا .. تكلف أنفسنا كل هذه المشقة فى استدراجك الينا .. لمجرد هذا الامر ..!.. أى فتى خيالى أنت .. إنى أقول لك إخلع ملابسك وذلك من اجل الكشف الطبى عليك .. لا من أجل هذا الجنون الذى ترغبه فى أعماقك !..

- اهنالك كشوف طبية أيضا ..؟

- طبعا .. انتظن اننا نلعب ..؟!

- ومن الذى سيكشف على .. أنت ..؟

- الديك مانع ..؟

قالت ذلك ثم وضعت اشغال الابرة على المكتب وهى تنتهد معبره عما يجيش بصدرها من سأم وتحولت ناهضة بتثاقل مفتعل الى الخزانة البيضاء التى بجانبها وفتحتها قم اخرجت منها حافظة جلدية خمن انها تحتوى الادوات الطبية العادية التى تستخدم فى الفحص الطبى ثم سارت نحوه وهى تقول مفتعله الضيق والبرم :

- ماذا ..؟!.. الم تخلع ثيابك بعد ..؟

فلم يتكلم ولم يبد حراكا .. وكل الذى فعله هو الحملق ة فيها مستريبا .. حينئذ صاحت فى ضيق حقيقى :

- أظن فعلا أننى ألهو معك ؟.. قم اخلع ثيابك وكفى بحلقة فى .. لست قطعة حلوى .. انا اجيد فنون الطب .. لكنك لا تدري ...!..

ولما رأت إصراره وعناده وضعت حافظة الأدوات جانبا على الفراش .. ثم استدرات اليه واخذت تخلع عنه ثيابه بنفسها حتى تعرى تمام ا .. واستشعر البرد واصابة بعض الخجل

وهي تفحص أجزاء جسده في آليه ورتابة .. دون ان تعتمد الى إثارتة .. كما فعلت في لقاء
الأمس .. بل بدت جادة تماما وهي تضع في راسها أفكارا تفندها في ذهنها برهة ثم تكت ب
رموزا غير مفهومة في دفتر وضعتة بالقرب من متناول يدها وهي تجرى فحوصها التي لم
تستغرق أكثر من بضع دقائق .. قالت بعدها بلهجة أمره :

- أخرج لسانك !..

لم يفعل ففتحت فاه عنوه !.. ونظرت الى لسانه ثم الى حلقه وقالت بعين اللهجة :

- قم .. تمشي .. أرني قوامك !..

أبى أن يفعل أيضا .. فجذبتة من يده جذبة عنيفة ثم دفعته الى منتصف الردهة .. فاستسلم
يعروه الخجل ويأخذ بخناقة الضيق والسأمه – فألقت عليه نظرة طويلة متأنية .. ثم قالت
بحزم :

- يكفي هذا .. يمكنك ان ترتدى ملابسك الآن ..

وكتبت آخر رمز في دفترها قم جمعت أدواتها ووضعتها في حافظتها الجلدية .. وخطت نحو
الخزانة الحديدية في جديقة عميقة .. بدت لسامح غريبة غاية الغرابة وتنأى بعيدا عن روح
الغواية التي ترسبت في أعماقه عنها ، فارتنى ثيابه في سرعة وهو يختلس ابان ذلك
نظرات التساؤل وعدم الفهم اليها مخرجا لسانه لها .. لكن بارداته تلك المرة !.. على حين
ابتسمت هي وهزت كتفيها باستخفاف ثم أعادت الحافظة الى ماكنها .. وجلست ثانية ثم
تناولت اشغالها وانخرطت في العمل فيها وقد نكست رأسها على صدرها .. كأنما تتحاشى
نظراته كيلا تضطر الى التسليم له بحقة في إيضاح أو تفسير .. حينئذ هتف بها في حنق
وكمد شديدين :

- وبعد أيتها السيدة !..؟

وكأنه أصبح يعتقد انها الانسان الوحيد في هذا المك ان ، اذ فوجيء تماما حين دلف من
الباب في تلك الاونة شاب داخلا ثم خطا نحوها دون ان يهتم بالنظر اليه وأ سر في أذنها

بشيء لم يسمعه وهزت له هـى رأسها علامة على الفهم والموافقة .. ثم انتظرت حتى خرج وهو ينظر أمامه فى لا مبالاه فابتسمت بطريقة مبهمه وغمغت :

- قد إنتهى عمل اليوم .. إنصرف الآن .. ثم عد الينا غدا فى نفس الميعاد .. هيه .. أتفهم .. نفس الميعاد لاجراء بعض الإختبارات الأخرى .. وإياك ان تسألنى اكثر من هذا و إلا فقدت سرروى بشجاعتك وعطفى عليك .. نعم فأنا أ عاملك حتى الآن .. معاملة الاخت الكبيرة لأخيها الصغير .. إذهب .. إذهب وإلا خلعت عنك ثيابك لأمر آخر واضطرت آسفة إلى تحقيق ظنونك !!..

- 11 -

مع ان صوت العقل كان يحذر سامح قائلا " انفذ بجلدك من هذا المكان ! " فانه لم يتحمس كثيرا لفكرة الانصراف هكذا دون ان يعرف الحقيقة التى أبت " سارة " ان تميظ اللثام عنها .. وراح يردد لنفسه فى وقفته الجامدة أمامها " إنها لم تجب على سؤال واحد من أسئلتى يمس من قريب - او بعيد - .. حقيقة الأمر .. وبعد ذلك تطالبتى بالانصراف بعد كل الذى تحملته من مضايقات وتضحيات بهذا الهراء عن معاملة الاخت للأخ وخلع الملابس وتحقيق المخاوف .. لا إننى لن اذهب ثانية وليكن ما يكون ! " .. ثم ما أسرع .. ما أسرع ان تراجع عن قراره حين فكر فى انه يستطيع ان يستقى بعض المعلومات باستمالة الشاب الذى خرج منذ نحو دقيقة .. إن إهتبل تلك الفرصة وعجل باللاحق به ، بعيدا عن رأس هذه المرأة الصلد .. الذى أيقن أنه لن يلين له مهما حاول ..!

وفى لمح البصر كان قد إندفع خارجا .. ثم أجال نظره فى أرجاء المكان باحثا عنه فى لهفة .. فرآه يخطو بعيدا فى الطريق المؤدية الى الخروج من الغابة .. ولم يضع وقتا .. طفق يجرى فى إثره وهو يقول لنفسه " انهم جميعا .. جميعا .. يأتون هنا لقضاء حاجة ثم يسارعون بالإبتعاد وكأن فى هذا المكان لعنة تلحق كل من يطيل البقاء فيه .. باستثناء تلك المرأة .. ومن أيضا ؟ .. انا لا أدري بعد .. لا أدري .. لا أدري ولاحظ ان خطوات الشاب

تبدو أسرع مما قدر فالمسافة بينهما لازالت كما هي تقر يبا .. رغم انه كان يجرى وكان الآخر يمشى فقط .. وكأنه قد ركب فى رجليه – وهو يمشى – موتور سيارة .. يا إلهى ...!!.. فضاعف من سرعته ورفع عقيرته بالصياح مناديا " أيها الشاب .. أيها الشاب " .. بدا له ان صياحة لا يجدى ، فقد اختفى الشاب فى منعطف الطريق الذى ينتهى بعد بضعة امتار الى الطريق العام .. بينما لم تزل المسافة بينه وبين هذا المنعطف طويلة على قصرها ..!!.. وتمنى فى تلك اللحظة لو تسنى له ان يركب فى حلقة مكبر صوت مثلما اتيح لهذا الشاب ان يركب فى ارجله هذا الموتور .. وهو يتسرع بخوف دقات قلبة التى راحت تخفق فى عنف كأنها تقول له فى شماته " سأخذلك .. سأصيبك بالفشل الذريع !" ثم أنفاسه التى راحت تضيق وكأنها تقول له بدورها " سلهرب منك حتى تقع مغشيا عليك !" .. فتوقف هنيهة يلتقطها قبل ان تنفذ ما ازمعت من قرار ، ثم عاود الجرى وهو يردد لنفسه " مازالت هناك بقية من أمل !" ووصل المنعطف ثم انحرف مغيرا مسار جزئيات جسدة فى حدة فجائية كاد ان يتعثر لها ، وقطع الأمتار الباقية فى تلهف وتوتر شديدين ووقف عند " رأس الطريق " يحملق وهو يلهث باحثا وكله أعين ترى عن الشاب .. لا .. إنه لم يقع له على أثر .. وكأن الارض قد انشقت وابتلعتة ، وهز رأسه بمراره ومضى يضغط قبضتى يديه متجلدا وهو يستشرف بعينه لجة البحر الزرقاء المترامية الأطراف .. على مدى البصر ويتأمل حواف أذرع الموج وهى تتوالى ويسابق بعضها بعضا لبصق الزبد وصفع وجه الشاطئ الخانع فى مذلة ، مستروحا فى نهم الانسام الندية التى تدافعت فى رثيته لتهدىء سورتها.. ورفت حول وجهه لتلطف من حرارته وتجفف عرقة فى عطف ليس مثله إلا عطف أمه ...!!.. فانسرق عن نفسه وشرد بعيدا يفكر فى المجهول الذى يوازى التفكير فيه التفكير فى اللاشئ .. شرد طويلا لينتبه على صوت فخيم يصيح به :

- ايه ...!!.. انت .. ماذا تفعل هنا ثانية ..؟

ونظر الى الجهة التى هب منها الصوت مفزعا إياه فرأى ذلك المهندس " ألون " يقف الى جوار سيارته فى زهو وخيلاء لا يماثلها إلا ما تخيله من إ ستكانة و أنوثة تلك السيارة الرائعة ولا يدرى لم شعر ببعض الراحة لرؤياه تلك اللحظة .. كان يشعر فى صدره بغضب شديد مكبوت فقال لنفسه " إن بينى وبينه حسابا لم أصفه بعد " ثم هرع اليه وبادرة مصنعا البشاشة قائلا :

- ها نحن نلتقى ثانية فى هذا المكان يا سيد الون .. وانى لسعيد برؤياك ..!!..

فافتعل الرجل – بدورة – ابتسامة صافية وقال وهو يعطيه يده ليصافحة :

- انى ابادلك نفس الشعور يا بنى ..

تصافحا .. واضاف الرجل بعد سكتة قصيرة :

- وان كنت قد ظننت انك قد غضبت منى بالامس لسبب لا اعلمه حتى الآن ..

" لا يعلمه .. هه ..!!.. " همهم سامح متهكيا فى أعماقه ثم قال فى ود مفتعل :

- لا تشغل بالك .. ان لى اطوارا غريبة احيانا ..!

- هكذا الامر اذن ..

- بكل تأكيد .. ولكى أبرهن لك على صدقى أقول أننى تأثرت تأثرا بالغا بحلمك الرائع فى

إقامة هذا المنار على أنقاض تلك ال.. اقصد بعد ازالة انقاض تلك المنازل من هذا المكان

المنشود .. فأجريت بعض التحريات الأولية عن مكان تلك المنطقة وخرجت بمعلومات هامة

قد يفيدك ..!

نظر الرجل اليه من ركنى عينية ثم هتف :

- رائع ..!

فاستطرد سامح :

- أتعرف ..!!.. شىء لا يطمئن إطلاقا ..!!.. فالبيت الذى يتصدر تلك ال بيوت فوق اللسان

الصغير مباشرة يقطنه تلميذ يتيم فى السنة النهائية بالمدرسة الابتدائية مع ام مسكينة

تستجدي قوتها بالتهاب الأيدي .. أما البيت الذي يجاورة فتسكنه عانس فى نحو الاربعين ..
وهى ليست عانسا بسب قبح فى خلقها او خلقها .. بل لأنها وجدت نفسها ذات يوم وهى فى
يفاع، صباها مخيرة بين الزواج وبين تربية أولاد .. شقيقتها الستة .. الذين فقدوا أباهم
وأهم فى إحدى مذابح التصفية ..!

- كفى ..!

- مضت تعمل خادمة فى البيوت الى ان قوى ساعد اكبر الابناء فتولى عنها أمر إعالتهم ..
وهو الآن يعمل ساعيا فى مكتب البريد ويخشى ان تقع عيناه على فتاة جميلة فيحبها لانه
رغم انه سيكون صادقا فى حبة الا انه لن يستطيع الزواج بها .. ولهذا هو يعيش مع خالته
واخوته واخواته فى عزلة مجردا من كل حب ..!

- كفى هذا ..!

- اما البيت الذى يقابله تماما فيقطنه رجل كهل مع مجموعة من الاطفال .. لا تربطهم
ببعضهم او به علاقة .. سوى تلك التى التقطهم بها من وهدة الجوع والبرد حيث كانوا
يسيرون حيارى .. لا يعرفون لهم أبا أو أما .. بعد أن ..

- كفى ايها الفتى ..!

- دعنى اكمل لك تحرياتى ففيها تفاصيل جد مسلية ..!

- قلت لك كفى والا ألقيت بك فى البحر ..!

لم يبال سامح بتهديد الرجل وسورته المفاجئة واستمر يقول :

- اما عن موقع هذه البيوت الذى تحلم بامتلاكه .. فانى أرى أماننا .. أنظر الى .. تلك
الربوة الممتدة فى إستواء تام .. كما لو كانت سكينا غرسته الغابة فى صدر البحر ..!
انظر .. انى اعجب كيف لم تحلم بها مع انها ..

كان ابان حديثه يشير باصبعه الى الربوة المقصودة حين ضربه الرجل على يده مسقطا
إياها الى جانبه مقاطعا :

- قلت لك كفى انى لا امزح معك .. يا الهى .. سارمى بك فى البحر ان لم تسكت ..! فاستتلى
سامح يقول وكأنه لا يقدر ان يوقف نفسه :

- انى ارى فيها على الاقل .. كل خصائص المكان الملائم لاقامة منار .. فمن ناحية الارتفاع
..

وفقد الرجل توازن اعصابه عند هذا الحد من الكلام فرفع الفتى بين ذراعيه وسار به ناحية
البحر وهو يهمهم فى غضب وكمد بكلام غير مفهوم .. على حين واصل سامح حديثه دون
ان يأبه لما يجرى له كما لو كان قد جن جنونه :

- هى لا ترتفع الى الحد الذى يجعلها صعبة المرتقى! .. ولا تنخفض الى حد الاستسلام لأكل
البحر ..!

صاح الرجل به بغیظ كاد ان ينشب من شدته أسنانه فى صدره وهو يجرى به نافذ الصبر
الى البحر ..

- سألقنك درسا لا تنسا .. ساعلمك كيف يكون اكل البحر نافعا ..!

بينما استرسل الآخر بنفس اللامبالاة المجنونة التى لا تشعر ولا تعى ما يراد بصاحبها :

- ومن ناحية تركيب التربة .. أرى ..

ولم يكمل قوله .. اذ وجد نفسه فجأة يصطدم بالقاع الضحل للبحر ، وغ طته موجة عاتية
كتمت أنفاسه ثم انحسرت عنه وقبل ان تهاجمه موجة أخرى أسرع منتصبا على قدميه
وهو يرتعش من البرد والبلل الذى أغرق ملابسه وجسده ..

وكان الرجل قد انطلق فى ضحك عاصف حين خلص الغلام اقدامه من زبد الا موج التى
تدافعت فى نهاية هجومها على حافة اليابسة .. وتقدم الى الارض الجافة مستطردا فى
حديثه الذى بدا كأنه لم يقع شىء مخيف يقطع :

- انها تربة صلبة بدرجة كافية لإرساء أساس متين يقاوم عصف الريح .. اما التربة تحت
تلك البيوت فهى هشة كأصحابها ..!.. فضلا عن أننى أعتقد ..

وكان قد اقترب تماما من الرجل الذى أغاظه بقسوة شديدة .. أن يتجاهله ويسخر منه الفتى على هذا النحو المخزى فانقض عليه كالباشق وحمله مرة ثانية واندفع الى البحر ، فاستأنف حديثه إبان ذلك قائلا وكأنه فقد عقله وشعوره نهائيا :

- إن المنائى شأنها شأن أى مشروع يراد له النجاح .. لابد ان تقام فى مكان معزول .. لا فى مكان يكتظ الزحام والضجيج على مقربة منه .. كيلا ترتبك حركة العاملين فيه ويفقدون قدرتهم على تمييز نوع السفن التى ..

ومرة اخرى .. وجد قاع البحر الضحل الرخو يلطمه بعنف أدمعت له عيناه تلك المرة وأوشك ان ينهار ويتداعى مستسلما للامواج التى كادت ان تبتلعه وتلقى به فى جوفها الى الأعماق السحيقة ، غير انه بقوة عاتية لا يدري من اين واته .. قاوم وهب من رقدته وشاء حسن طالعه ان تهب موجه قوية فى تلك الاونة باتجاه الشاطئ فحملته على اوفاضها والقت به الى الارض ثم كادت ان تجرفه معها فى إنسحابها لولا انه تشبث بالارض ونشب فى رمالها أظافرة فنجأ منها .. ولأنه كان يعلم انه سيأتى فى أعقابها موجه أخرى لا يدري مدى قوتها .. أسرع بالنهوض وقفز للأمام بكل جسدة ناحية الرجل الذى كان لا يزال يدوى بالضحك فاستقر من قفزته تماما فى ذراعيه المفتوحتين وسقطا معا على الارض ، وانتصب سامح من سقطته مذعورا وهو يغمغم مواصلا ما انقطع من حديثه كالمعتوه :

- التى ترسل اليهم الاشارات الضوئية واللاسلكية .. وما اذا كانت سفن شحن ام سفن استجلاب المهاجرين اليهود من شتى بقاع العالم !!

فنهض الرجل على قدمية غاضبا مرمورا قد اذهلته السقطة التى نالها بعض الشئ .. واتجه واثبا نحوه ثم رفعه الى أعلى باتساع ذراعية والقى به ارضا تلك المرة .. اذ كان بينهما وبين حافة الماء مسافة .. ابعد من مرمى الذراعين ايا كانت قوتهما وهو يزار بقوله :

- تقول مهاجرين أيها الصبي الاحمق ...!.. مهاجرون وهو وطنهم الأوحـد الذى طردوا منه
ووعدهم

به الله ...!..

ثم القى على الفتى الذى اخذ يتلوى فى ضعف ويئن أ نينا خافتا من عنف الصدمة التى
قرعت مؤخرة رأسه نظرة زجاجية مقيبة وبصق على وجهه وهو يدمدم قائلا :

- كلب ...

وفى التورجع الى سيارته فى زهو وخيلاء لا يماثلها إلا إستكانة وأنوثة تلك السيارة
الرائعة ، وركبها وانطلق بها مثيرا زوبعة من الغبار خلفه .

- 12 -

" آه .. آه .. يا ربى .. لم يمهلى .. الرجل .. لأكمل بقية الكلام "

كانت تلك الكلمات هى كل ما استطاع سامح ان يقوله بعد ان إستفاق من إغمائه الذى لا
يدرى كم من الوقت استغرق فيه ، وهو منطرح على ظهرة بين رمال تلك البقعة الخالية من
الشاطئ التى القاه الرجل فيها وذهب لا يلوى على شىء .

وأدار عينين زائغتين أحرق جفونهما ملح الماء الجاف المتعلق ب أهدابه وبددت بؤرة
إبصارهما أشعة الشمس اللاهبة الخاطفة ليرى ما إذا كان هنالك أمل فى أ حد على مقربة
منه يأتى اليه ليساعدة – بلا مقابل – فلم يستطيع وهو فى هذا الوضع أن يرى أ بعد مما
يراه عادة وهو نائم على ظهره ، مما اضطره الى رفع رأسه قليلا ليتيح لعينه مجال رؤية
أعرض .. فاحس كان لهيبا قد تلجج فى مؤخرتها وتأوه .. وتحسسها من الخلف فراعـه أن
تلمس أنامله طبقة رطبة لزجة يختلط فيها الشعر بالرمل .. سحب يده بسرعة ثم نظر الى
أصابعه وهو يهتف فى جزع :

- دم ..

ثم على الفور .. إعتد بكفية على الارض ورفع أنقاض ظهره رويدا وهو يشعر ان قواه كلها قد تضععت وان عظامه قد تكسرت وتفككت ، واستدار بجزعه " المخلوع " قليلا .. ثم القى نظرة واجفة على المكان الذى كانت تتوسده رأسه فراعة مرة ثانية ان يرى بقعة من الدم قد تشربتها الرمال وكرر صيحته بفزع اكبر :

- يا الهى .. دم ..!

وخالط رعبه هذا شىء من الذهول وهو يرى فى مركز تلك البقعة تمام ا .. قطعة مستوية من الزلط غائصة فى الرمال ولا يبدو سوى سطحها الأملس الملوث بالدم .. فأدرك السر الذى افقده وعية والذى لم تكن للرمال الرخوة أیه جريرة فيه .. وعرج بفكرة الى ما حدث فغاب فى مسارب نفسه برهه إنتبه بعدها ليجد لسانه يردد فى لاوعى :

- آه .. يا ربى .. لم يمهلى الرجل لاكمل له بقية الكلام ..

وانهمرت دموعه سخية وقتا أدرك انه ينفقة بلا حساب ، لا سيما وان عليه ان يقطع مسافة طويلة .. وطويلة جدا وهو بتلك الحال حتى يصل البيت قبل ان تؤوب أمه وإلا ما انطلت عليها " الكذبة الصغيرة " التى سيخادعها بها قطعاً لتبقى بمنأى عن الاحداث الحقيقية .. والتى يشترط لإنجاح خطته ألا يأمل فى معاونه أحد ، ليس فقط لأنه ليس على ثقة من أن هذا الأحد سيتطوع لمساعدة دون غرض .. وإنما ايضا كيلا يعلم ثالث غيره وغير الرجل انه تعرض لإعتداء فحينذاك يصل الخبر الى م سامع أمه ويجدها فجأة فى يورة الاحداث امامه ..

وعمل التفلير بتلك الوتيرة فى أمه عمل السحر فى بدنه ف شعر بفورة من النشاط تتدفق فى أعطافه وترفعه عن الارض رفعا .. وتسوله الى ماء البحر المالح ليغسل جراحه وينظفها مما علق بها من رمل ، متحملا بعناد وأمل مصبور تركيزها الملقى الكاوى المطهر .. ثم انقلب الى ثيابة التى جفت تقريبا فاخذ يخلعها وينفض عنها الرمال .. وحين إطمأن الى انه قد ازال حد كبير اثار ما حاق به من أذى إرتداها وهو يرتعد من البرد القارس .. ثم نظر الى

السماء ليعرف اين هو من النهار فامتألت عيناه بضوء الشمس الباهر فاعمضه ما وتطامنت نفسه مدركا ان الوقت ما يزال فى صالحه .. ومضى يغز السير حثيثا الى البيت متحاشيا الطرق المزدحمة ويفكر فى لاشيء فقد كان هذا الجرح فى مؤخرة رأسه يؤخره ويحول بينه وبين أعمال الفكر بتعمق فى امر معين .

وليث هكذا يدفع اقدامه الى المسير ويزجرها إن تباطأت إنهاكا او يأسا الى ان وجد نفسه ولا يدرى كيف امام البيت فتتنفس الصعداء فى ارتياح وهو لا يصدق انه قد وصل بتلك السرعة التى لم يتوقعها او يحلم بها ، فما زال ضوء النهار قويا يقول له ان بينه وبين اوبة أمه فسحة من الوقت يستطيع إستغلالها فى تهدئة روعه وإراحة جسده وفى أولا وقبل كل شىء تطهير ذلك الجرح بهذا المطهر الذى كان يعجب من حرص امه على الاحتفاظ به فى دولاب الملابس ثم ادرك الآن أنه لم يكن على حق فى عجة هذا . كان لا يزال يقف امام الباب وهو يفكر هكذا .. وبغته أدرك انه ليس من الحيلة ان يطيل امد وقوفه فى هذا المكان فقد تطل الجارة زينا م ن نافذتها وترى ملابسه التى لم تكن خالية تماما من اثار البلل والرمال فتستدرجه فى الحديث عن يومه وحينئذ لا يضمن ألا تفهم شيئا من إختلاجه .. او نظرة .. او نبره .. فهى امرأة ذات فراسه .. فلأسرع بفتح الباب ومع ذلك خيل اليه وسطه واجسه انه يسمع صوتا نسائيا يناديه إبان دخوله .. وبالطبع تجاهل الأمر وصعد الى الطابق العلوى ثم اغتسل وغير ثيابه وطهر جراحه فشعر بالدفع وبقوة تعود اليه شيئا فشيئا .. وأيقن أنه لن تعود امه حتى يكون قد استرد حيوته كلية .. فغمرة الفرحة وهتف :

- لن تعرف شيئا .. لن تعرف شيئا !!

ثم بحث عن شىء يتبلغ به فوجد لحسن حظة كمية من الطعام أوفر من التى ألف العثور عليها كل يوم بعد عودته من المدرسة .. ولم يكن بحاجة الى التساؤل عن السر فى هذا لأنه تذكر انه لم يصب غير بضع لقيمات من إفطارة ، وحمل الطعام الى غرفته ثم وضعه على

المكتب الذى كان لأبيه المدرس ، وراح يلتهمه بشدة وشهية لم يستشعر مثلها من قبل ،
ودن ان ينشغل عنه بالنظر الى منظر البحر كما تعود .. الى أن أنهى عليه فشرع بمزيد من
القوة وصفاء الذهن .. ربما لم يسبق له ان احس بمثلهما ايضا .. مما جعله يزيح عنه
رغبة فى النوم وافته بعد ان امتلات معدته بالطعام وشعر بالخدر والإسترخاء لانه كان قلقا
فى اعماقه لضياح يوم اخر فى غير الدرس والتحصيل ، فأدرك أن أنجع علاج لهذا القلق
ان ينطوى على كتبه ويلتهم ما وسعه ذلك ما فاتته من معلومات .. وعلى الفور تناول جدول
توزيع " حصص الدراسة " على أيام الأسبوع .. ثم حدد لنفسه القدر من العلوم التى عليه
ان يذاكرها ، وانكب عليها فى حمس الى ان سمع صوت مفتاح يصلصل فى قفل الباب
الخارجى ، وكان فى تلك اللحظة قد استوعب الى حد كبير ما فاتته من دروس فنهض
يستقبل أمه بهمة تحير ان تتوفر له بعد ما مر عليه فى يومه من احداث جسام وبقدر عظيم
من الشوق والفرحة ايضا .. راح ينتظر صعود امه اليه فى صبر وتؤده على غير ما تعود
الاثنان .. الامر الذى جعلها تسأله وقد امتزج فضول طفيف بابتسامة عينيها العذبة قبل
بضع درجات من وصولها اليه :

- الست جائعا ..؟

فأجابها وهو يستقر فى احضانها بشوق وعيناه تشرقان دمعا :

- جائع الى حبك فقط ..

غمغممت بصوت يتهدج إفعالا وحدا :

- يا إلهى .. سامح .. أنت تبدو لى عاطفيا تلك الايام اكثر قليلا مما تعودت ان اراك ، ثم

صمتت لحظة وتساءلت :

- هل حدث شىء ؟

-

- لقد استحمت وغيرت ملابسك .. اليس كذلك ؟!

سألته وهى تمرر اناملها على شعره أمام ا وخلفا فى حنان وحب .. فلمست جرحه لمسة طفيفة جعلته يتأوه حتف أنفه فصاحت وجلا :

- إنك تتألم من مؤخرة رأسك .. ماذا حدث لك اليوم يا بنى ؟

فتمتم وهو يدارى آلامه جاهدا ليهون من أمر الجرح بتلك الضحكة الصغيرة المفتعل :

- إطمئنى يا أمى .. إنه جرح سطحي أصابنى حين زلت قدمى فو قعت وانا اشارك زملائى لعبة كرة القدم فى حصة التربية الرياضية ..

- أواثق أنت من أنه سطحي .. أرنى رأسك ..

ومع رغبته الشديدة فى ألا يريها جرحه كيلا يؤلمها .. فانه لم يمانع لأنه رأى أ نها أصلح إنسان للحكم على مدى فداحته فلعطاهأ رأسه راضيا .. ولم تكذ تزيج الشعرات عن مكانه وتراه حتى أطلقت شهقة ألم مكتومة وصاحت به وهى تدق صدرها بقبضة يدها مفلتة رأسه :

- يا حبيبى يا بنى . هذا الجرح غائر جدا ..

فتناول يدها بين يديه وراح يضغطهما ليطمئنها ويقول :

- إنك تبالغين كثيرا كعادتك حين يصيبنى مكروه .. مع أنهم فى المدرسة فحصوه وانتهوا

الى انه سحطى ولا يحتاج الى اكثر من تطهير بالمطهرات العادية .. ورمقته هى بنظرة

تقول " اتمنى ان اصدقك " ثم تمت فى صوت خافض :

- صحيح ..!

- اجل والله .. هيا يا أمى .. هيا .. الى المطبخ لنذهب من فورنا .. ساعاونك على تسخين

الطعام الذى .. آه .. بنفسى ان تصنعى لى الطعام يوما بيدك هنا ، قال ذلك وانفعالات شتى

تصطبخ فى قلبه فانحنى على يدها ولنشها مسترسلا بدموعه :

- يا أحب أم .. يا أظهر يد .

وانتخب باحترق بغيره دون إرادته فللقته أمه على صدرها وراحت تضمه وتضغطه اليها
وتشاركه دموعه واثناء ذلك تغمغم :

- انى اعلم مقدار ما تعانیه .. لكن لا تستسلم للحزن .. سيكون لك شأن عظيم غدا وحينئذ
تتغير الاحوال وأصنع لك بيدي هاتين الطعام الذى تحبه ..

- وتستريحين من عذاب العمل فى بيوت الأغراب ..

- نعم .. وتتزوج انت فتاه طيبة وتنجب اطفالا .. فأصير جدة .. وحينئذ اخدمكم جميعا ..
صاح فجأة بخوف مكتوم لا يدرى له سببا :

- كلا يا امى .. لن اتزوج ..

فابعدته عن صدرها قليلا الى الحد الذى اتاح لها تأمل وجهة وتفرسته بعينيها فى شبه لوم
او استنكار متسائلة :

- ماذا ؟ .. الا تريدنى ان اصير جدة ؟ الا تريد ان تنجب ابناء يخلدون ذكراك وذكرى ابيك ..
اتريد ان تقضى حياتك راهبا ؟؟

- كلا يا امى .. بالطبع اريد ان تكون لى زوجة حين اكبر فهذه هى سنة الحياة ..
ثم اضاف كالمحموم كأنه يهذى :

- لكننى لا أريد أطفالا يذهبون إلى المدرسة ..!

هتفت فى جزع وفضول :

- كيف ؟ .. الا تحب الاطفال ؟

هنف بنفس الجهة :

- كلا يا امى .. بالطبع أحبهم .. ولكنى ...

سكت فجأة حين أدرك فى الوقت المناسب ان الكلام يجر بعضه وانه على شفا التصريح لها
بسرره الخطير فغير لهجته واستدرك :

- اخاف عليهم تعب الدراسة ..

ابترد صدر الام لدى سماعها هذا التعليل المريح وقبلته فى إشفاق وهى تقول :

- يا حبيبى يا ولدى .. اهكذا تبدو الدراسة متعبة ؟

- اجل يا امى الى حد كبير ..

- لكن هذا لم يمنعك من ان تتفوق على زملائك .. على سنك ونفسك حتى ..

- اجل يا امى الى حد كبير !!

- 13 -

لم يكن نشاط سامح وصفاء ذهنه المفاجئين إلا صحوه نفسية عارضه لها مبرراتها الخاصة فى نفسه وعقله .. إذ ما كاد يجالس أمه بعد ان حملا طعامهم ا - كالعادة - الى غرفة النوم فى تلك الأمسية وتناول بضع لقيمات حتى سرت فى جسده كله - لحما وعظاما - رعشة قوية إختلجت لها عضلاته واصطكت أسنانه وتخبطت ركبته فى بعضهما ، على حين خيل اليه - او توهم - ان جميع دمه يهرب من اطرافه ويجرى صاعدا الى رأسه وهو يغلى فى إتجاه المنطقة المحيطة بالجرح الذى تأجج لهيبا بغته وأن عينيه - على حد ما توهم - قد إمتلأت دما ورمالا ايضا ..

حدث كل هذا فى ثوان معدودة ، ومع ذلك لاحظت امه كل شىء فتوقفت عن مضغ الطعام وراحت تنظر اليه فى ترقب وتساؤل مشوبين بالجزع .. الأمر الذى لم يتحمله هو فتظاھر بلّنه على ما يرام تماما وانه على حد قوله " ليس اكثر من متعب " ثم هرع الى فراشه وهو يتشنج إرتجافا .. وأهال على جسده الأغطية .. ورغم هذا راح ينتفض تحتها وكأ أنه ينام عاريا فى الصقيع .

ولحقت به امه فى التوفشعر بها تقف الى جواره وتغمغم بصوت ملتاوع :

- انت مريض .. انت مريض يا سامح ..

اراد ان يقول لها شيئا يطمئنها فخذلته احبال صوته .. وشعر بها تسعى رائحة غادية فى
الحجرة باضطراب لتحكم اغلاق منافذها وهى تتحدث اليه بكلمات لم يفقة منها شيئا .. وان
كان قد امكنه ان يلم بجزعها وقلقها .. ولبت الأم ر على تلك الحال إلى أن جاء وقت خيل
اليه فيه ان يسبح عاريا فى بحر من العرق الساخن يبخر عباب الاصقاع الشمالية .. آنذاك
تذكر ما كان بينه وبين الرجل على شاطئ البحر ، فهىء اليه انه فقد قدرته على
الاستماع بل والاحساس بأمه .. وغشيت عيناه سحابة سوداء وشعر كأنه يولج بغته فى
ليل ظليم فصرخ كأن مرحلة الهذيان قد بدأت :

- يا إلهى .. لم يمهلىنى الرجل لاكمل له بقية الكلام ..!

وكفت أمه عن الحركة القلقة حوله ثم دنت منه وسألته وهى تترامى عليه لتدفنه :

- أى رجل تقصد ؟

فخرج صوته خافتا ذاهلا .. لأنه آت من آبار مجهولة لم يكتشفها إنسان بعد :

- الرجل .. آه .. والدم .. آه .. فى الرمل .. رمل الكتاب ..!.. والبحر .. آه الدم فى البحر

ينعكس كالسفن على وجه الماء .. بعد المطر ..!

واخذت الام البغلة مما سمعت .. طاشت سهامها فأجهشت بالبكاء وراحت تخفى وجهها

بيديها محطمة وهى تتمتم :

- يا حبيبى يا بنى .. انت تهذى .. ماذا أفعل ؟ ليس معى نقود كافية .. بينما واصل هو

هذيانه قائلا :

- الدم أغرق الكتب .. الدم أغرق وجه العالم .. الدم فى كل مكان .. فى المدرسة .. فى

الحديقة .. فى الغابة .. على جدران الاصلاحية .. الدم خضب وجهك الجميل يا سارة ..

ويتساقط من ذوائب شعرك الخلاب .. انظرى .. كلا .. لن أتחסسك .. أنظرى فقط .. يا إلهى

ما هذا الرمل الكثير المختلط بالدم والدم والرمل والماء المالح والمنارة والكتب يختنقون فى

معتقل أبى .. وأمى تجلس فى صحن المدرسة عارية تتوسل بين فتات الخبز !

وفر لون وجه الام جزعا مما تسمع وهى تحكم الاغطية حوله وتحيطه بذراعيها فى احضانها لتدفئة أكثر ناثرة دموعها .. عله يستفيق من حلمه الفظيع هذا ، ويبرأ من تلك المصيبة النكراء التى أصابته وهو الفتى النابه المحب للحياة والعلم .. ورغم جهودها المحمومة فى إحياء موات مشاعره بالدفء .. عاد يتمتم بعين اللهجة .

- دموعك .. دموعك يا امى .. وشرفك العزيز .. وانت تكشفين عن ساقيك الجميلتين حتى لا يبتل ثوبك بدم ابى فى بيوت الاغنياء ..

- يا الهى .. سامح .. سأجن فيم تفكر ؟

- آه .. افكر .. آه .. نابليون ايضا .. حاصر عكا ..

- رباه .. تذاكر دروسك أيضا وانت فى هذيان الحمى .. يا بنى أرفق بنفسك قليلا ستقتلك المذاكرة ..

- اراد ان يستعيد المجد الضائع فغافله أبى وانتحر واغرقنا بالدم ..

- إنتحر .. من قال هذا .. سامح .. هل صدقت اكاذيبهم ؟

- نحروه .. نحروا عنقه الظافر فوق تلك الربوة المباركة التى سيقيمون عليها المنار يا الهى الدم ينثال على جوانب الربوة ..

- أيج ربوة ..؟!!

- إيخ ..؟!.. ربوة .. ربوة .. أجل ربوة الدين تغص بالصخور الوعر ة ..؟!.. مرحى بالدين ..

مرحى بالأنبياء .. قد خلفوا لنا فى الرؤوس صخورا طيبة فى اصلاحية الحب والجنس ..!

واتسعت حدقة الأم هولا مما تسمع فقد ظنته يجيب سؤالها وهو فى فورهة هذيانه الوا عى وكأنها تخيلت انه ينصت اليها أسرع تقول فى لهفة :

- يا إلهى .. من أين لك هذا الكفر .. ام انه فرط الهذيان .. اتمنى ذلك .. يا بنى يا حبيبى ..

هؤلاء الانبياء تركوا لنا اعينا نرى بها الحياة وما بعد الحياة ايضا لم يتركوا صخورا قط نحن الذين نضع الصخور فى المحاجر بدلا من الأعين ..!

وأذهلها أكثر ان يجاوبها بصوت صار وادعا فجأة كصوت الاحلام ..

- نعم .. إنى أحبهم جميعا لأنهم أعطوني أعينا أرى بها الحياة وعلى رأسهم خاتم الأنبياء

وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. وما بعد الحياة أيضا ...

فسكن روعها واطمأنت الى سلامة افكاره بل وابتسمت مشرقة بدمعة إرتياح وقالت تحدثه

:

- ستصير غدا رجلا .. فيعلم الجميع ان روح ابيك مازالت تحيا فى صلبك .. وترفع رؤوسنا

جميعا عاليا وانت تعيد ترتيب الامور وتحقق العدل .. وتبنى وطنك وتأكّل وتشرب وتحب

وتنجب أبناء مفرحين .. يكونون لى نعم الأبناء والأحفاد ولك ولابيك نعم الذكرى .. اليس

كذلك ؟

وكانها الصدفة المحضة وحدها التى رتبت تلك الاجابة الغرية على شفثيه المرتجفتين :

- اجل سأتزوجها .. تلك المرأة المدهشة .. سارة .

فدقت الام صدرها مستنكرة وهتفت به :

- سامح .. ايها الابن الحبيب .. سارة ؟ انك لا شك تحلم بمستقبل آمن .. لكن .. مع من

.. سارة التى قتلت أباك ..

- على السرير .. اجلس .. إنى اقدم لك نوعا من الحنان لم تألفه .. حدق فى عيني يا

صغبرى ..!

- يا إلهى ..!

- انت فتى نابه .. لا تنسى شيئا .. لكنك نسيت .. للأسف .. واللافتة المعلقة على الباب

الخارجى تقول ذلك .. عليك ان تقدم بعض البراهين على انك تبادلنا شعورا بشعور ..

- يا رب السموات ..

- لكن يا خسارة .. هناك بعض الصعوبات .. انى أحلم بمكان آخر تتوافر فيه كل مواصفات

التربة .. لكن يا خسارة هناك بعض الصعوبات .. فعليها تقوم بعض منازل .. ألسنت معى ..؟

- رباه .. عدت الى هذيالك بعد ان كنت قد تحدثت عاقلًا برهة .

- أخرج لسانك .

- ماذا ؟

- إخلع ثيابك ..

- ماذا .. ماذا تقول ؟

- قم .. تمشي .. أرني قوامك ..!

واغمضت الام عينيها كبها لذلك الشعور الذي لا يحتمل وهي تحلل في ذهنها بخوف

المعلومات التي صرح بها وهو يهذي في لاوعى .

كانت تعلم ان الانسان يكون ذروة الصدق مع نفسه والآخرين وهو يكشف ما يضطرم في باطنه في لحظات الهذيان تلك .. فمضت تفند كل كلمة .. كل حرف لكنها وإن تكن لم تخرج بقصة مترابطة من مقذوفات الأ عماق هذه .. إلا أنها ادركت أن في حياة ابنها أسرارًا يخفيها عنها .. وأنه لو صح وكان حدسها صادقًا فإنه يكون من المستحيل إلا طمئنان الى احتمالات المستقبل إن كان الحاضر يزخر بتلك المخاوف والوقائع الرهيبة .. فلفشأت تبكي وتقول :

- يا بنى الحبيب يبدو أنك تتعرض تلك الايام لأهوال لا نهاية لها .. إنها عين أصابتك كنت اخاف عليك الأعين وأنت تتقدم الى منصة الاحتفال لإستلام جائزة تفوقك .. وقد حدث ما كنت اخشاة .. حدث .. حدث !

كان سيل الهذيان لم يتوقف ابان تفكير وكلام الام على هذا النحو .. وكان عليها ان تفعل شيئًا .. فكرت في استدعاء طبيب ثم استبعدت تلك الفكرة لأنها لم تكن تملك ما يكفى من النقود ولبثت جالسة الى جانبه على الفراش تصغى الى تخاريفه في زهر وتسال نفسها وعقلها يكاد أن يطير " ماذا افعل .. ماذا افعل ؟ " الى أن أمضها السؤال وضجت بتلك التهاريف فتذكرت جارتها زينا حينئذ وثبت من جلستها والقت على راسها وشاحها الاسود

.. ثم هبطت الدرج وهى تكاد ان تتعثر من فرط الرهبة والاضطراب ، وفتحت الباب ثم خرجت دون تغلقه خلفها فقد ق درت أنها ستعود اليه فى التو .. وهروت الى باب منزل جارتها وراحت تقرعه وتناديها باسمها المجرد قائلة :

- زينا .. زينا .. تعال ياأخت .. إلحقينى .. إلحقينى ..

وأطلت زينا من النافذة فى دهش وتساءلت ينافسها الاطلاع رؤوس صغيرة لاطفال شقيقتها :

- ماذا حدث يا أخت ..

- انه سامح .. ستعرفين كل شىء بعد حضورك الينا .. اما الآن فانى ساعود اليه .. انه يهذى .. يهذى .. سأترك لك الباب مواربا .

قالت ذلك ثم لم تنتظر لتسمع رد صديقتها وهى تقول :

- سامح يهذى .. أبعد الله الشر .. إنى قادمة حالا .. حالا ..

ودخلت البيت وهى تسمعها تقول للاطفال مستطردة :

- وانتم يا اولاد .. عودوا الى المذاكرة .. ولا يأت احد معى .. او يلحق بى فيما بعد .. اتفهمون ؟

ولم تسمع اكثر من ذلك .. لانها كانت قد ارتقت السلم وأصبحت بعيدة .. ودلفت الى الغرفة ثم جلست جلستها السابقة وهى تحاول التماسك .

كان سامح قد كف عن اله ذيان .. ونام أو راح فى غيبوبة .. إنها لا تعلم .. وبعد دقائق معدودات جاءت زينا وكشفت عنه الغطاء ثم تحسست جبهته وقالت :

- ياه ...!.. إنه محموم ..

- ماذا سنفعل ؟

- نحضر طبيبا طبعا ..

- ليس معى نقود كافية .

- معى انا ..

- اكثر الله خيرك يا أخت .

ثم خرجت زينا وغابت .. غابت طويلا حتى كادت الام ان تفقد وعيها خوفا .. ثم عادت بصحبة الطبيب الذى فحصه وضمد جرح رأسه وأعطاة حقنتين .. ثم كتب قائمة العلاج وأخذ أتعبه من زينا وخرج فتظاهرت زينا بأنها ستصحبه الى الباب الخارجى ثم توجهت الى إحدى الصيدليات وعادت بالأدوية والام حائرة كيف تشكرها لم تجد شيئا تعبر به عن عرفانها بالجميل سوى أن ألقت برأسها على صدرها وراحت تبكى باحترق وتقبلها حتى اضطرتها هى الأخرى للبكاء فمضت تقول :

- لا .. لا يا أخت .. ليس هكذا .. سامحك الله .. ابكيتنى انا ايضا .. ليس هكذا نحن لبعضنا وقد سبق لك مرة ان قدمت لى نفس العون .. حين مرض خليل أكبر أبناء أخى .. وتعطل عن عمله .. إنه دين أردته .. لا ليس هكذا ..

ثم سكنت برهه وكفكت دمعها وسألتها وكأنها قد تذكرت أمرا هاما :

- ماذا قال لك عن هذا الجرح فى رأسه ؟

أجابتها الأم من خلال نثرجهها :

- قال أنه كان يلعب مع زملائه الكرة حين زلت قدمة ووقع ..

- ليس صحيحا ..

- كيف ؟

- ساقول لك شيئا أتيح لى مصادفة ان أقف عليه أول أمس .. لنفكر فيه سويا .. فقد يئنون ..

آه .. هدئى روعك أولا .. وأمسكى أعصابك فلن ما سأل قوله خطير ..

كررت وعيناها تسهمان فى اللامرئى :

- خطير ..!

أجل .. طبعاً .. أخبرت زينا الام بكل تفاصيل ما دار بينها وبين سامح والرجل الغريب ، فى ضحى هذا اليوم الذى خالت فيه ان كليهما – التلميذ والمعلم المزعوم – قد زوغا من المدرسة وفى بادىء الامر وجدت الام صعوبة كبيرة فى تصديقها وابقت المسألة معلقة على اساس انها ستذهب الى المدرسة فى اليوم التالى وتتقصى الحقيقة بنفسها .

لكن .. حدث مساء نفس اليوم الذى مرض فيه ما وفر عليها مشقة التحرى فقد طرق بابها وقد مكون من بعض التلاميذ ورائد الفصل ليعود سا مح فى مرضة حاملين اليه تحيات الأخوة والزمالة التى تمثلت عمليا فى هدية رقيقة قوامها بعض الفواكة والزهر فاستقبلتهم بالترحاب الواجب وأدخلتهم غرفة الضيوف التى لم تنل منها يد الخ طوب مثل الذى نالته من أصحابها وهى تعلن لهم أسفها لعدم إمكانها إدخالهم إليه فى غرفته لأنه لم يزل فى غيبوبة الحمى فتركوا هديتهم على مقاعد الحجرة ثم استأذنوها فى الانصراف فأذنت لهم وفى اثناء الجلبة التى صاحبت خروجهم أسرعت باستدراج تلميذ خجول يمشى ويحذر فى المؤخرة وسألته بلهجة لا تنطوى على شيء ظاهر :

- من أخبركم بمرضه ؟

فرد عليها قائلاً وهو ينظر الى صدره خجلاً :

- إفترضنا ذلك من تغيبه المفاجيء ..

كان جواباً مختصراً ومؤثراً فلهمعت عيناها تأثراً وتحسراً ايضاً لأنها أدركت بوعى تام ذلك التباين الشاسع المرير بين ما افترضوه وبين الحقيقة المخزية ولذا لم تستطع وهى تتلقى تلك الإجابة القاصمة أن تعلق بشيء وتركت الفتى يلحق بزملائه الذين راحوا يستعجلون خروجه اليهم .. ولم تستطع كذلك ان تذوق للمنام طعماً فى تلك الليلة فقضتها ساهرة الى جواره تتربح لحظة استفاقة من غيبوبيته وتفكر فيما عسى أن يكون من مرة تلك الايام وأى شيطان رجيم إنتعل إرادته واضطرها للهروب من المدرسة وهو الذى لم تكد حرارة الإعجاب بتفوقه تنبؤ على الأكف ..

وكانت ليلة مشحونة بالجزع وبالقلق وبالألم وبالخوف من المجهول الذى لم يكشف وجهه بعد ..

ثم قبيل الفجر تحرك سامح فى فراشه و أفاق من غيبوبته طالبا جرعة ماء فوضع حدا لعذابها وإن يكن لم يضع نهاية .. وكانت فرحة مفاجئة اشرقت لها عيناها بالدموع انفعالا فقامت وهى تنهته وتحبس مدامعها فى مآقيها كيلا يراها و أحضرت له كوب الماء الذى شربه الى آخر قطرة ثم شملها بنظرة تساؤل عاطفة وانية عما يسهرها الى هذا الوقت فيما بدا لها من معنى فى نظرتة وأخذ الى النوم لطيته فتطامنت وجففت له عرقه السائل الذى كان قد توقف عن التفسد ثم أحكمت الأغشية عليه ورأت حينذاك أن من الأصوب أن تغفو عيناها ولو بضع دقائق ففى النهار ينتظرها عمل كثير ومجهد فقامت الى فراشها وغلبها النعاس من شدة التعب .

ثم فى ضحى اليوم التالى إستيقظ سامح وبدا على محياه كما توهمت - او أحبت ان تتوهم - أنه قد استرد الى حد ما حيويته ولونه الطبيعى غير انه لم يكون يقوى على مبارحة فراشة فلم يغادره إلا بعد يومين لم تتركه فيهما لحظة واحدة واحاطته قدر استطاعتها بالعناية والحب اللذين تكفلا فى الاسراع بشفائه .. ويبدو ان هناك عاملا آخر ساعدها فى ذلك يتعلق باستجابة سامح القوية للإبلال السريع فقد كان يعلم ان كل سعادة امه فى الحياة تكمن فى ان تراه يكرس وقته كله للمدرسة والتحصيل العلمى ولما كان المرض لا يحقق تلك الغاية رغم انه لا حيلة له فيه فانه صمم على قهرة باقصى سرعة ليسعدها وكذلك كيلا يضطرها البقاء الى جانبته لرعايته الى أى نوع من التنازل - أو التورط - فى تدبير شئون معيشتة ما بالإضافة الى أعباء علاج والتى كان يعلم يقينا أنها سترتبك بانقطاعها عن العمل البسيط الذى يكفى بالكاد لتوفير ما يقيم الأود ويستتر الجسد .

ولذلك .. لم يستشعر أية غرابة فى ذلك الترحيب الذى قابلته به حين رآته يرتدى ملابس توطئة للذهاب الى المدرسة بمجرد أن شعر ببعض القوة وغادر فراشة ولم يقل لنفسه ان

حبها له اقل من حب بقية الامهات .. وإن كان ثمة غرابة حقيقية إستشعرها بكثير من التوجس ففى إبدائها رغبتها فى مرافقته حتى بوابة المدرسة فتأمل وجهها مليا كأنما يروم أن يقرأ افكارها وتسأل فى نفسه " علام يدل هذا ..؟ أتكون قد عرفت شيئا خلال هذين اليومين ؟.. أتكون الخالة زينا قد ثرثرت لها بشيء عنى لتسرى عنها فى الاوقات التى كنت اغفوا فيها ؟.. انها كانت تزورنا عدة مرات اثناء النهار موزعة بنفسها بين العمل فى بيتها وبين المجى للإطمئنان على .. ثم كانت تقضى شطرا كبيرا من الليل .. إنها جارة مثالية من تلك الناحية .. لكن لابد ان هذا أتاح لها وقتا طويلا تثرثر فيه تزجيه للفراغ على الأ قل .. ولابد اننى كنت فى كثير من الاحيان مادة الثرثرة بحكم كونى موضوع الساعة .. فلم لا تكون قد حنثت بوعدا ألا تخبر أمى ؟.. إن كان قد حدث هذا وهو لا شك قد حدث فانى استطيع ان افهم مغزى طلبها مصاحبتي الى بوابة المدرسة .. وحينئذ يمكننى ان اعتبر ان متاعبى الحقيقة قد بدأت !"

صاح بغضب مناديا أمه التى كانت ترتدى ملابس خروجها فى غرفتها :

- أمى ..!

فجاءه صوتها يقول ناعما .. عطوفا :

- نعم يا حبيبى ..

قال لها فى شبه توسل وبلهفة :

- أرجوك يا أمى .. أرجوك .. لا ترافقينى الى المدرسة ..!

وتخافت صوتها فجأة كأنما ادركت شيئا وهى تغمغم متسائلة :

- لماذا ..؟

ومع أنه شعر بعدم اطمئنان للطريقة التى انخفض بها صوتها فلفه وجد الإرادة ليقول لها :

- لأننى لا أريد ان يهزأ بى زملائى حيث يرونك ترافقينى هكذا كما لو كنت طفلا فى الروضة

!..

تضاحكت .. او هكذا تخيل انه سميع ضحكا .. ولم تعلق بشيء .. ومضت برهة ثقيلة .. ثقيلة ساورته فيها مختلف الهواجس والمخاوف قبل ان ترحمه بظهورها اليه على باب غرفته التى كان يخاطبها منها وهو واقف أمام المرآة التى تواجه الباب تماما يتأمل نفسه وآثار المرض فرآها .. حينئذ إندفع اليها ، كان يعلم الوسيلة المؤكدة التى يستطيع بها أن يؤثر فيها فالقى نفسه فى أحضانها وقبلها وبعد ذلك تساعل مستميلا إياها بنظرة حب :

- ألسنت معى ؟

ولدهشته وجدها تقومىء له برأسها مغمضة عينيها على إنطابقة تفهم ونشوة إدراك وحب متممة إبان ذلك بابتسامة عذبة :

- طالما ان هذا يرضيك ..

فأغرق وجهها بالقبلات حتى اضطرها لأن تقول فى طرب :

- حسبك .. ستأكل وجهى .. آه يا ماكر ..

واختطف حقيبتة المدرسية التى ورثها عن أبيه .. وأطلق لساقيه العنان وهو يقول لنفسه ان الله وهبه أجمل وأظهر أم فى الوجود ، وسمح لنفسه أن يضيف الى ذلك قوله " أنه أسعد ابن لأحب أم " ..

ومع أن سروره هذا قد احتواه الى حد أنه كان اقل يقظة فلنه خيل اليه ولا يدري لماذا .. ان هناك اقداما تقفو أثره ، ومع وجاهة أسباب الوهم فإنه لم يكلف نفسه عناء التوقف عن السير ليتأكد ، لأنه اعتبر مجرد تفكيره فى هذا مدعاة لافساد سعادته وهى لحظات قلما تسعى إليه فكيف يفسدها بتلك الهواجس التافهة ومضى يقفز فى سيره ويوزع الإبتسامات على كل إنسان يلقاه وسواء إن كان يعرفه أو لا يعرفه الى أن وصل الى الشارع الذى تقع فيه المدرسة وكان طبيعيا ان يفكر ابان اختراقه إياه فيما اذا كان تمة رجل سيجد فى إنتظاره أمام بوابتها هذه المرة ايضا .. غير انه فى هذا الصباح نسى او تناسى هذا الامر ايضا .. وانفلت من البوابة تلقائيا كما كان يفعل فى ايام الرخاء .. واقبل على واجباته

اليومية المعتادة فى توقع وشغف ضاعف من جيشانهما فى نفسه هذا العطف والتشجيع اللذين لمسهما لمسا فى قلوب مدرسيه وزملائه وهم يرحبون به وبعودته لدرجة انه بكى انفعالا فى احدى فترات الراحة بين الحصص ولما سأل زميله الذى يجلس الى جواره عما به أجابه بكل بساطة أنه يبكى لأن الحياة رائعة ولأن الناس يبدون له طيبون بصورة فات عليه طويلا أن يدركها ..!

ثم انقضت أياما بعد ذلك ، نسي سامح فيها تماما كل شيء عن " النون .. وساره .. والإصلاحية " ونسى كذلك المخاوف التى كانت قد إنتابته من أن تكون زينا قد كشفت لأمه عن شيء .. بل نسي زينا نفسها واستغرق فى تحصيل علومه وفى تعويض ما فاتته منها ابان محنته ومرضه فبدأ فى احسن حالاته وفى أوج نألقه الدراسى وكانت امه تراقب خطواته عن كثب فقد كانت صاحبة الاقدام التى أهمل عامدا معرفة شخصية صاحبها فى ذلك الصباح الذى خيل اليه فيه ان احد يفتقى اثره ثم لمات أكد لها أنه عاد الى سابق ما عهدته فيه وعهد الجميع من اجتهاد ومثابرة وحرص شديد على الانتظام فى الدراسة تطامنت وتركت له حالة لأنها كانت تتكلف وقتا وجهدا فى تلك المراقبة فضلا عن القلق والتوتر اللذين كانت تسببهما لها .

ولكن .. حدث فى صريحة أحد الأيام شيئا لم يكن سامح يحتسبه او يتوقعه فقد رأى أمامه فجأة رجلا ما إن وقعت عيناه عليه حتى تحرك صوبه مبتعدا عن بوابة المدرسة ليقابلة قبل أن يصل اليها .. وتوقف سامح بمجرد ان لاحظ ذلك مبهورا ومتحفزا فرسم الرجل ابتسامة على شفثيه ذكرته بهذا الوجع الذى إعترض سبيله أول مرة ثم مد اليه يده مصافحا وابتدره قائلا :

- حمد الله على سلامتك يا اخ .. لقد علمنا أنك عوفيت من مرضك منذ أيام ..

فحدجه سامح بنظرة كراهية واعطاه يده دون رغبة وهو يسأله بحدة :

- ماذا تريد ؟

غمز الرجل بعينه غمزة ذات معنى وأردف :

- أنت أدري منى ..

حينئذ إنفلت الزمام من سامح فصاح غاضبا :

- كلا .. لا ادري ..

- امسك اعصابك .. سارة تريدك ..

وكان رائد الفصل يدخل المدرسة فى تلك الآونة حين استرعى إنتباهه أن ثمة شىء غريب

يجرى بينهما فتريث ينظر اليهما بفضول لم يلحظه سامح فصاح ثانية تحت وطاة حنقة لدى

سماعه هذا الاسم قائلا :

- لكنى لا اريدها ..

وقبض الرجل على ذراعة كأنما يقسره على السير معه او ليفرغ روعه لا احد يدري فنزع

ذراعة عنه فى اهتياج .. الامر الذى اثار الريبة فى نفس معلمه فهرول اليهما وسأله وهو

يرمى الرجل بنظرة حادة قائلا :

- هل يضايقك احد يا سامح ؟

وفوجىء التلميذ بتدخل معلمه الذى لم يقم له حسابا - وكان يريده ولا يريده فى ذات الوقت

- فلم يجد ما يجيبه به غير الصمت وهو ينظر اليه متحيرا .. ومع ان دواعى الحذر كانت

تقتضى من كليهما .. سامح والرجل ان يفعلوا او يقولوا شيئا يزيل الريبة من نفس المعلم ا لا

انهما وان لم يفت على ذكائهما ذلك لم يفعلوا وكأن الامر لا يـ عنيهما مـ مـ ا شـ حـنـ الموقف

بالتوتر وأصبح من السهل ادراك ان إحتكاكا وشيكا سيقع بين الرجلين لولا انه - ولعلها

الصدفة المحضة - حدث ان دق جرس المدرسة فى تلك اللحظة بالذات وكانه ما دق الا

انقاذا للموقف فالقى المدرس نظرة أخيرة تحمل معنى الإستفزاز على الرجل ثم جذب تلميذه

من ذراعه ودعاه لمرافقته للدخول دون ان يقول شيئا فاستسلم له هذا وهو لا يصدق عينيه

تاركا الرجل واقفا فى مكانة يعض على نواجذه غيظا .. ولا يدري لماذا سر لم نظره هذا وهو

يختلس النظرات اليه اثناء عبورهما البوابة التى اغلقت بمجرد دخولهما .. حينئذ سألته رائد الفصل مبتسما :

- ماذا كان يريد منك هذا الرجل ؟

فاجابه وهو يتلعثم :

- لا .. لا شىء .. كنت اسير مندفعاً حتى اصل البوابة فى موعدى حين اصطدمت به عفوا

فغضب منى ظاناً اننى تعمدت ذلك ..

- فى المرة القادمة .. انظر امامك جيداً حتى لا تصطم بمثل هؤلاء الحمقى ..

- حسناً يا سيدى ..

وود سامح بكل كيانه وهو يتأمل لمدى لحظة ابتسامة معلمة الحبيبة الودودة بنظرة عرفان

وامتنان ان يبوح له بالحقيقة .. الا انه جبن ولا يدرى لماذا ؟

- 15 -

تمكن سامح بارادته فى هذا اليوم من تركيز تفكيره فى واجباته الدراسية فلم يقع فى ادنى

خطأ ولم ير معلموه الذين يحيطونه باهتمام خاص لنبوغة غير الانوار البراقة فى عينية

التى تعودوها دوماً ، ولكن اتفق فى اثناء قيام رائد الفصل بشرح احد ابواب مادة الطبيعة

التى يتولى تدريسها لهم ان لاحظ ان سامحاً قد ارسل بصره الى الشارع عبر النافذة التى

تقع الى شمالة مباشرة وهو جالس فاستقرت عيناة على شىء اربدت له سحنته فجأة لدى

رؤيته .. فتوقف عن الشرح وتقدم الى النافذة واطل منها لتقع عيناة على آخر ما كان يمكن

ان يفكر فيه .. فالرجل الذى اعترض طريق الفتى فى الصباح لا يزال واقفاً فى مكانه كما لو

كان ينتظر خروجه بعد إنتهاء يوم الدراسة ليصفى حسابة معه على حد ما اعتقد المدرس

الشاب الذى ساوره غضب لا حد له فاندفع خارجاً من الفصل مخالفاً بذلك اللوائح التى

تحرم على المدرس مغادرة فصلة دون عذر قوى اثناء قيامة بالعمل .

حينذاك .. وضع التلاميذ اقلامهم وانخرطوا فى اللغظ والثرثرة دون ان يدركوا السبب الذى من أجله بارح مدرسه مكانه ، فاندلعت بذلك الضجة غير المقبولة من أى فصل وسط سكون الفصول الأخرى التى تعمل فى هدوء وبد الامر كما لو ان احد تجار الماشية قد اقام سوقا هنا ، فى الوقت الذى كان فيه سامح ينظر بخليط من الخوف والذهول والإعجاب الى معلمة الذى رآه يتجه ناحية البوابة الخارجية المغلقة مزمعا الخروج الى الرجل لمناقشته.. ولما كانت موصدة فقد لمح يدور حول نفسه امامها كما لو كان يبحث عن البواب الذى لم يكن متواجدا فى مكانة لسبب ما فى تلك اللحظة وابان ذلك يرمى الرجل من خلال قضبانها الحديدية المتشابكة بنظرة عدائية كأنه الأسد فى قفص بحديقة الحيوان على قدر ما تخيل سامح الذى رأى - لدهشته وارتياحه - ان الرجل قد فهم حقيقة الامر على وجه السرعة فاسرع بالتناهى من المكان .

ولا يدري لماذا سرّة كثيرا للمدرسة الثانية فى هذا اليوم ان يضطر الرجل الى الظهور بمظهر الجبن المتغيظ وكان معنى هذا ان الامر قد انتهى باختفاء الرجل او كما بدا لعين المدرس الهمام أنه قد انتهى فاسرع بالعودة الى مكانة وهو يهرول ليتدارك الامر قبل ان تلفت ضجة التلاميذ نظر مدير المدرسة .

وقد كان وتحققت مخاوفه - ومخاوف سامح كذلك - فانه ما كاد يستقر فى مكانة فى الفصل حتى أطل المدير بوجهه من الباب وسأله بصوت عال وبلهجة مستبدة عن سر هذا الضجيج الذى أقلق تركيز الفصول الأخرى وما اذا كان لا يعرف كيف يسيطر على تلا مئذة فى تلك اللحظة إضطر رائد الفصل لخرج موقفة إلى مقابلة غضب المدير بالمرونة الواجبة واعتذر له فى لهجة وديعة ومهذبة فرجع الرجل من حيث أتى وهو يصعده بنظرة إنذار وتحذير ، ذكرت سامح بنظرة ذلك المهندس " النون " التى رماه بها قبل ان يقرر إلقاءه فى البحر .. وبدأت الازمة كما لو انها قد مرت بسلام فران على القاعة السكون المؤلف ثانية وبدأ

المعلم يكمل درسه .. لكن الوقت كان قد فات ودق الجرس فقام الجميع متجهين الى البوابة

الخارجية فقد كانت تلك آخر حصة وقام سامح ايضا وهو يبذل جهدا خارقا للسيطرة على عضلاته وغالب كيلا يفهم الرائد اضطرابه اثناء مروره عليه خارجا بدور ه لكنه - أى الرائد - فاجأه مناديا إياه بقوله :

- سامح .. إبق لحظة من فضلك ..

وتشتت ذهن سامح وجف اللاعب فى حلقة وألقى بنفسه يهتف بصوت خافت وعلى إستحياء :

- سيدى .. إنى أخشى أن أتأخر عن ميعاد عودتى فتقلق أمى ..

قالها بوضوح ودونما إرتباك ولكن بطريقة جعلته اتشى - كما توهم - بكذبه اذ قال المدرس :

- إنى أعلم أن والدتك لن تكون فى البيت قبل مغيب الشمس .. إبق لحظة واحدة .. أريد أن

اسألك - هل حقا ان الرجل إصطدم بك فى الصباح ؟

سأل سامح وسط وجيب قلبه الذى تصلع إلى أذنيه :

- أعندك شك فى قولى يا سيدى ؟

فاجابه الرائد :

- كلا .. ولكن يبدو لى أن الأمر ليس هينا الى هذا الحد ..

قال سامح مستردا بعض هدوئه :

- وما ذنبى انا فى ذلك ؟

وتأمل الرجل وجهه متفرسا برهة ثم سأل فى النهاية :

- هل حقا انت لست فى حاجة الى مساعدتى ؟

فلجابه بلهفة قاطعة :

- بالتأكيد .. لكن ارجوك الا تعطى هذا الامر اهمية اكثر مما يستحق فالرجل قد إنصرف

وربما ادرك خطأه الآن ..

فقال المدرس وهو يجمع كتبه ويضعها فى حافظة اوراقه منصرفا :

- آمل ذلك ..

وهرع سامح خارجا الى الطريق وهو يتساعل " ترى هل إنصرف الرجل لينتظرة فى مكان آخر .. " ثم جعل بحدق أمامه فى كل مكان باحثا عنه وسط زحام الشارع التجارى الذى كان يدب فيه متجها الى المنزل .. بيد انه بدلا من أن يراه رأى بغته المهندس الون يخرج من أحد محال بيع الحلوى بصحبة زوجته وطفله حاملا صندوقا كبيرا من الورق المقوى يلتف حوله فى أناقة ورفاهية شريط من الحرير الاحمر وقد اتجه ثلاثتهم نحو سيارتهم المنتظرة بجوار الافريز .

كان طبيعى ان يختفى عنه او يسرع بالفرار من المكان .. لكنه لسبب مالم يفهمه شعر بالرضى والإرتياح لرؤيته وردد لنفسه لا إراديا :

- ها هى فرصة سانحة لكى اكمل له الحديث الذى لم يمهلى لإكمالہ ..!

ثم دون ان يفكر او يقصد التطفل او التهريج ركض اليه ، ثم وضع يده على ساعده وهو يفتح باب السيارة الملاصق لعجلة القيادة وبعد ما ركبت زوجته وابنه وبعد ان وضع الصندوق على رف المقعد الخلفى .. وقال وابتسامه عامرة تملأ صفحة وجهه :

- انها مفاجاة سارة ان اقابلك يا سيدى فى هذا المكان ..!

فأرخى السيد الون يده عن مقبض الباب وتحول اليه موزعا نفسه بين الحيرة منه وبين السرور الذى إصطنعه له كما لو ان شيئا لم يحدث بينهما وقال :

- انت مرة اخرى .. انها مفاجاة سارة حقا .. عن اذنك الان ..

وكانت المرأة والطفل قد تحول إهتمامهما الى ما يجرى أمامهما فمضيا يستعجلان صعود الاب بتأفف ونفاذ صبر ولكن سامحا اسرع وقد ادرك ان الفرصة توشك ان تنساب من بين يديه وقال بنبرة ذات مغزى مستبقيا الرجل :

- لى بعض المعلومات الأخرى يا سيدى وأرى انها قد تفيدك ..!

فتنهـد الرجل يـلـسـتـيـاء وغم غـم :

- حـسـنا .. أـلا تـرى ان الـوقـت غـيـر مـلائـم لـذـلك ..؟

تـجـاهـل سـامـح قـولـه وفـاجـأه قـائـلا :

- إـكـتـشـفـت مـن تـحـريـاتـي ان الـبـيـت الـذـى يـقـطـنـه التـلـمـيـذ .. لـيـس مـلـكا خـالـصـا لـهـم .. فـلـأـم شـقـيـق

يـمـلك ثـلـثـي الـبـيـت لـكـنـه لا يـسـتـطـيـع واسـرـتـه الـاقـامـة بـه .. لـانـهـم فـى مـخـيـم الـلـاجـنـيـن بـجـبـالـيا !!..

حـيـنـئـذ أفـتر ثـغـر الـون عـن ابـتـسـامـة باهـتـه وغمـغـم قـائـلا بـنـفـس الطـريـقـة الـتى يـتـحـدـث بـها سـامـح

وكـأنـه يـدلى لى باقـتـراح وـجـيـه :

- حـسـنا .. لا بـلـس ان يـجـتـمـع شـمـل الـاسـرة ..!

هـتـف سـامـح وقـد تـألـفـت عـيـنـاة بـبـدايـة فرـحـة مـتـسـائـلا :

- صـحـيـح .. سـتـعـيـدـونـهـم الـيـنا ..؟!

فـاطـلق الـرجـل ضـحـكـة عـابـثـة تـنـطـوى عـلى بـعض التـهـكـم والـرثـاء و تـمـتـم و هو يـركـب سـيـارـتـه :

- بـل سـنـر سـلـكـم الـيـهـم ..!

صـرخ سـامـح وعـيـنـاة تـقـدحـان شـررا :

- مـسـتـحـيـل ..

فـى الـوقـت الـذـى إنـدفع فـيـه الـون بـسـيـارـتـه يـنـهـب طـريـقـة و سـط الـجـمـوع فـى مـهـارـة فـائـقـة .

- 16 -

تـمـلـكت كـلـمـات الـرجـل الغـريـبـة الـتى القـاها فـى يـسر مـن رآس سـامـح وراحت تـتـردـد فـى اذنيـه

وتـخـتـنق فـى صـدرـة بـفـيـض مـن الـانـفـعـالـات المـتـناقـضـة ، تـبـدو الكـلـمـات غـيـر كـافـيـة اـطـلـاقـا

لـتـصـويـرـها فـهـى شـىء اكـبر مـن الـذـهـول والـحـيـرة والقـنـوط والتـوـعد والغـيـظ والرعب . شـىء

يـقـصر الـفـكر عـن تـخـيـله ان لـم يـمـر ا لا صـاحـبـه بـتـجـرـبـة مـمـائـلة .. فـراح يـجـرى الـى الـبـيـت

ويـسـتـحـث قـواه لـيـصـل فـى سـرـعـة كـما لو كان يـبـغى الفـوار مـما يـشـعر حـيـث لا مـفر .. فـفى الـبـيـت

وراء الباب مباشرة كان الرجل الذى احتك به فى الصباح ينتظره باسترخاء على اول درجة من السلم ثم بعد حوالى الساعة كان يقف متحيرا أمام تلك المرأة فى " الاصلاحية " يسأل نفسه " كيف حدث اننى استسلمت ؟! " وهو يتأمل وجهها الرصين المضجر وسط السكون المفزع منتظرا فيما يبدو اوامرها ولما طال به الانتظار تكاثرت عليه الكآبة وجرفه الضيق فندت عنه تنهيدة عميقة أودعها كل متاعبة وآلامه .. وهتف :

- ألن نبدأ بقية الاختبارات اللعينة ؟!

فنهضت واقفة واومات اليه ان يتبعها ثم دفعت الباب الذى كانت من قبل تحرص على ابقائه مغلقا وتقدمته داخله فهرول وراءها وهو لا يكاد يصدق ان ينفتح هذا الباب اخيرا والذى اثار خياله كثيرا قبل الآن متسانلا عما يخفى ..

ولم يكن ما يخفيه شريئا يستحق أعمال الخيال والتساؤل ، فقد لقي لحظة إختراقه ردهه أخرى أصغر .. يقوم على جانبيها بابان احدهما محكم الاغلاق الى شماله وا لآخر ليس مفتوحا ولا مغلقا إنما موربا الى يمينه .. وطالعه فى الصدر حائط يتوسطه باب ثالث مغلق باحكام ايضا .. فتساءل فى نفسه قائلا " يا للسماء .. ماذا يخبىء هذا الباب ومتى ينفتح لى ايضا ؟! " وفيما عدا ذلك فالردة تغرق فى ظلام دامس فى حالة إغلاق الباب المؤدى اليها وتشع منها رطوبة تذكره برطوبة المخابىء الآسن الخانق هواؤها ..! وشعر بدوار خفيف يداعب رأسه ثم رأى سارة تتجه الى الباب الأيمن فتبعها بفضول وساوره بعض الخوف ونضجت من جسمه بعض قطرات العرق البارد ، غير انه لم يسمح لنفسه رغم هذا بالتردد لحظة فه اهم الآن وقد إطمأنوا اليه أو ضجوا منه - لا يدري - يكشفون قليلا وجوههم الحقيقية ويخطون به الى الامام خطوة ببت له فى هذا الآن كبيرة وأكبر مما كان يتوقع وأسلمه الباب الى حجرة صغيرة عالية الجدران .. ليس بها نافذة واحدة وإنما يدخل الضوء فى حزم متراسة مستقيمة من كوة مستديرة تشبه الى حد كبير تلك التى فى قمرات

السفن تقع فى أعلى الجدار بالقرب من السقف وينصب هذا الضوء المتجمع على إسطوانة دائرية الشكل من خشب الجميز المصمت تذكر لدى مرآها تلك التى يقطع عليها الجزارون اللحم باختلاف بسيط هو ان هذه تبدو اكبر قليلا واكثر قوة وصلابة .. وفوق تلك التى يحسن أن ندعوها منضدة رأى قطعة من الحديد الصلب بسمك أربع بوصات تقريبا .. وإلى جوارها رأى منضدة ثانية عليها نفس قطعة الحديد بعين السمك إلا أنها منبعجة قليلا من طرق يأس .. وعلى الجدار خلف كل من المنضدتين رأى مطرقتين من الحديد تستندان عليه بزاوية قائمة .. ولا شىء فى الحجرة غير هذا ، ووانتلبت سامح قشعريرة مما يرى فحول عينيه الى المرأة التى كانت تقف بجوار الباب معتمدة بكلتى يديها عليه وهى تنظر اليه كما لو كانت تفحصه او تدرسه وقال بفتور :

- لا افهم شيئا ..

فتخلت المرأة عن وداعتها وخطت بضرع خطوات نحو الجدار وتناولت اقرب مطرقة اليها وهى التى تلك التى تخص قطعة الحديد التى لم تطرق بعث ثم رفعتها عاليا و أهوت بها فى عنف فوق قطعة الصلب قائلة وسط صوت الطرق الذى صلصل :

- تفعل هكذا ..

وفتح سامح فاه مأخوذا .. لكنه لم يستطع الكلام .. أما هى فقد إستدركت قائلة فى رتابة يبدو أنها قد إعتادتها فى مواقف أخرى مماثلة :

- واثناء ذلك ترفع عقيرتك بالصياح قائلا المهندس الون هو الذى بنى بيتنا ..!

لم يصدق عينية أو أذنية .. خيل اليه أنه مع تلك المرأة القوية فى تلك الحجرة المستديرة الأركان التى تسبح فى الظلام باستثناء هذا الضوء الساقط من تلك الكوة على هاتين

المنضدتين العجيبتين اللتين لا تصلحان لطرق الحديد عليهما .. ليس الا خيال جامح فى رأس فنا ن مأفون يهوى الظلال الكئيبة والأ ظلال الخربة والوجوه الضاحكة الباكية والمجسمات الهلامية .. الشيطانية ..و.. المهندس ألون هو الذى بنى بيتنا .. يا إلهى .. !

كرر بصوت محبتس :

- لا أفهم شيئا ..

- أحقا .. كنت اظنك اذكى من هذا .. حسنا .. سأعيد التجربة أمامك حتى تفهم .. أم أنك لا

تريد أن تفهم إنى أحذرك ففى تلك الحال ستفقد عطفنا جميعا !!

قالت المرأة ذلك وهى تصوب عينيها فى عينية مباشرة ثم تحولت الى المطرقة ورفعتها

عاليا وهى تقول :

- ترفع المطرقة هكذا واثناء ذلك تقول : المهندس ألون ..

ثم جعلت تهبط بها على سطح قطعة الحديد تدريجيا كما لو كانت تغالى فى إفهاماة أو تعذبه

وأضافت وهى تهوى بها محدثة عين الصوت المجلجل :

- ثم تضرب قطعة الحديد بقوة وانت تردد : هو الذى بيتل ..!

وألقت بالمطرقة على الارض وهى تنفض عن يديها اللدنتين آثار الثلوت الذى علق بهما

وغم غمت وكأنها لا تقول شيئا :

- الفعل بسيط كما ترى .. ولا يحتاج لمن فى مثل ذكائك !

أحس كئانه يختنق فاندفع يسأل محتدا :

- واذا كنتم تعلمون انه عمل لا يحتاج الى من هم فى مثل ذكائى فلماذا تقسروننى عليه ؟ ..

أهو نوع من العقاب على جريمة إقترفتموها أنتم ؟!

فقطبت سارة حاجبها وابتسمت ابتسامة ذات م غرى وقالت تتصنع الاستنكار :

- عقاب .. ابدا .. لم نفكر فى هذا قط ..

فارتسمت الحيرة مع مزيج الغيظ والحنق فى عيني سامح وتساءل :

- اذن لماذا ؟

- ماذا ؟

- ألا يكفيكم ما تعلموه لنا فى المدرسة .. إننا نردد كثيرا امثال تلك الكلمات عنكم ..

- آه .. تريد اللطامات لا يكفى .. للأذكىاء ..

- ماذا ؟

قالت :

- آه ...! يبدو انك لم تقرأ اللافتة التى على الهاب الخارجى قراءة رشيدة ...!

- قرأتها مائة مرة ..!

صاح بها سامح فى مرارة واستدرك فى شبه احتجاج :

- إصلاحية المتفوقين الإسرائيلىين العرب ..

ثم أضاف لنفسه :

- آه .. ان هذا يذكرنى بشيء فقد احتاج ابى من قبل للانتحار ليثبت انه حر فى المعتقل ...!

وسكت لحظة يفكر ثم استرسل لها فى سخرية مريرة :

- أتعرفين ان هذا شيء غاية فى الغرابة .. تلك الحجرة بظلام أركانها وهوائها الفاسد ورطوبتها المرتفعة والضوء الذى ينساب من تلك الطاقة قرب السقف وقطعة الحديد التى لن ترتفع حرارتها الى درجة الإحمرار الكافية لجعلها لينة للطرق رغم وجود تلك المداخل فى أعلى المبنى .. المهندس الون الذى بنى بيتنا ولا أدري متى وكيف ..!

الهم الا فى درس " أين تتجه " الذى نلت فى الاجابة على اسئل ته الدرجة النهائية بالمدرسة .. ومع هذا يبدو الامر غير كاف فحشو الاذهان لا يكفى بالنسبة لى انا وان يكن يكفى لبقية التلاميذ الاقل ذكاء .. والمجىء هنا وما يعنى من إهمال المدرسة التى تعنى المزيد من النبوغ .. وناهيك عن أننى لا أرى تلميذا آخر غيرى وكأننى النابغة الوحيد فى تلك المدينة .. والكاهن الذى تزعمين وجوده ولم أره أبدا .. اننى لا أفهم لا أفهم .. ماذا تريدون ؟ .. ما اشد حبكم للغموض ..!

ربتت سرله على كتفه بعطف مفتعل وتمتعت وهى تزمع الخروج فى عدم إكتراث :

- أطرق يا بنى بدلا من الثرثرة ..!

فتغيط وأمسك بالمطرقة ثم رفعها الى اعلى بجريئة أربكتها معتقدة انه سيهوى بها على أم رأسها فتراجعت الى الوراء وهى تكتم صرخة وتتسائل فى جزع :
- ماذا انت فاعل ..؟

وأدرك هو خوفها فطابت نفسه وانتعشت روحه وتنهى ثم اطلق ضحكة ساخرة وتسائل وهو يرمط قطعة الحديد بمقدمة المطرقة بنفس لهجته السابقة :

- انتم تتوقعون اننى ساطيعكم بضيق وحزن .. أليس كذلك ؟

أجابت وهى تتنفس الصعداء وتعلق سخريته من خوفها :

- بالطبع .. فمن المستحيل على النفس البشرية أيا كان تركيبها أن تقبل ذلك بشغف ومرح !

- آه ..!

ووضع سامح يدا فى خصره على حين إعتد باليد الأخرى على المطرقة مسترخيا وشرذ بذهنة يفكر فى إجابة عملية حكيمة لهذا السؤال " هل أطيعهم .. وإن فعلت .. فكيف أعبر عن غضبى ؟ " فكر طويلا وبرقت عيناه من شدة التفكير ثم أ خيرا تهللت أساريره وقال وهو يكتم شهقة سرور طاغية كأنما قد اكتشف كنزا :

- ليكن .. سأطرق .. سأردد الأكذوبة .. سأستسلم راضيا .. لكن بوعى .. بفرح .. سألته فى فضول :

- كيف ..؟

رد عليها بمنتهى البساطة :

- لانكم تتوقعون أننى سأحزن ..

صاحت فى إستنكاف شديد وتوعد :

- هكذا ..!

فقال وعيناة تغيمان بعيدا .. بعيدا .. لكأنما الى حيث أبيه وبصوت خفيض لكنه واضح :

- نعم .. هكذا ..

اما هي فقد قلبت شفيتها الى داخل فمها ورددت بعين اللهجة وهو تخطو خارجة :

- حسنا .. سنرى ..

وخرجت وانتبه سامح لنفسه على صوت دبيب أقدامها وهي تتباعد فمضى ينصت اليه ويردد لنفسه في نشوة وشبه إنتصار " كان لقدميه ا الجميلتين وقعا كالموسيقى الناعمة أما الآن فهي كقرع الطبول الأهوج " ثم قبض على المطرقة بكتلى يديه ورفعها بهمة غير عادية الى أعلى وهو يقول بصوت مدو :

- المهندس النون ..

وهوى بها على وجه قطعة الحديد في ابتهاج غضوب كما لو كان يفتت وجه ذلك المهندس مستطردا وسط الضجيج الذي ملأ أذنيه :

- هو الذي بنى بيتنا ..

ومع فرحته وغضبة أغرورقت عيناه بالدموع ..

- 17 -

ظل سامح في تلك الحجرة يطرق مدفوعا بقوى الإستسلام الواعي والتحدى بالرضا ، تلك التي فجرت في أعماقه الأصوات الصارخة التي غطت على كل صوت إلا صوت ذاته ، وجعلته يشعر أنه يجابة إمتحانا تؤكد نتيجة إجتياز بنجاح الرابطة الوحيدة التي تربطه الى الحياة ويوشك أن يفقدها .. رابطة انه سيد مصيره .. بمحاورها الثلاث : أمه وبيته ومدرسته " تلك الرابطة التي اليها يعزى هذا السرور الباطنى الغريب الذى إ جتاح نفسه فأضاء روحه وقوى عزيمته على الطرق ولو بلا نهاية .. بل وشدد من عضلات ذراعية وأحبال صوته أيضا فراح يطرق بلا هوادة يردد تلك المقولة عن المهندس النون ، ونداء سعادته بالنتيجة التي تبلى عنها الواقع يدوى في إصرار منتزعا سلطان الكآبه والإ حباط عن عرش روحه الذى تسنى له ان يتربع عليه زمنا طويلا .

على أن الأمر فى الحقيقة لضعف بنيته ولأنه كان يقضى فترة طويلة بين الصباح والمساء دون أن يأكل شيئاً لم يكن خالياً من الإرهاق ولهات الأنفاس وقد تفصد عرقه وزمت وجهه من فرط ما جهد مع الحديد ، فجعل يتوقف بين الفينة والفينة ليلتقط أنفاسه بعمق رنيته .. وفى تلك الهدنة القصيرة .. كان أحياناً يردد لنفسه " لقد وجدتها .. نفسى ! .. هذه هى الحقيقة الكبرى التى أتاحوا لى رؤيتها فشكرا لهم ! " أو " لقد عرفت من أنا وماذا أكون .. إننى أقوى من حديدهم البارد .. أسمى مما أرادوه لى .. ولهذا لن اتخلف عن المجيء الى تلك الغرفة يوماً واحداً .. وسأعرف كيف انظم حياتى بين الدراسة وبين الطرق على الحديد البارد وبين الذود عن شرفك يا امى ! "...

وبالفعل .. إستطاع تنظيم وقته فأدخل بعض التعديلات الجوهرية عليه فى تلك الأمسية التى لبث يطرق فيها الى أن صارت الاضواء الآتية من تلك الكوة قرب السقف إلى شحوب وخفوت فأدرك أن أوان ذهابه آن وعليه أن يسرع بالعودة قبل جثوم الظلام وقبل – الأهم من ذلك – أن ينتاب أمه القلق عليه أو تساورها الشكوك .. فلا بد أنها عادت الآن الى البيت ولم تجده فى انتظارها كما تعودت طوال حياتهما السالفة .. فأسند مطرقته فى مكانها على الجدار وبالزاوية التى كانت عليها إمعاناً فى إبداء الرضى والبراء وخرج دون ان يقول شيئاً لساره التى كانت ماتزال جالسة فى وداعة مع اشغال إبرته وتابعت مروره الصامت عليها بكثير من الدهشة والفضول " الفتى يبدى خنوعاً لا يريح ! " هذا ما كان يروغ فى رأسها قبل أن تسرع بتذكيره الى أن مواعدهما فى الغد .. فأشار لها بيده وهو خارج دون ان يدير ظهره اليها إشارة انه يعلم ثم اطلق لساقية العنان هروباً من وحشية وسكون الغابة الصغيرة التى بدت له رهيبه فى أضواء الغسق الرمادية وحتى يبلغ البيت بالسرعة الواجبة لوضع حد لقلق امه ..

كان يجرى فقط دون ان يرى ما أمامه ودن ان يفكر فى شىء سوى امه وحين وصل بعد هبوط الظلام كان التعب وتقطع الأنفاس قد وصلا الى أقصى مدى فجلس امام الباب برهة

ريثما تنتظم أنفاسه ويجف عرقه لنلا يدخل عليها وهو بتلك الحال فتضطرة الى التماذى فى الكذب عليها ليرىح افكارها .. وبعد ان اطمأن الى ذلك قام وف تح الباب ثم صعد الى حيث وجدها جالسة فى انتظاره على تلك السجادة ذات النقوش الباهتة امام الطعام الذى فقد حرارته وقد اتكأت برأسها على راحة يدها فى وضع اخذ بمجامع فؤاده .. فاندفع اليها بكل جوارحه .. ورفع رأسها اليه وراح يلقي عليها سيلا من الإ عتذارات عما سببه ل ها من إضطراب وألم ، وردت عليه هى بأن حبه بنظرة تتحدث كثيرا دون ان تقول شيئا ثم اقعته الى جوارها وراحت تدس الطعام فى فم ه ناسية نصيها منه ، فاستسلم لها وهو يحاول جاهدا ان يبدو مرحا سعيدا ويثرثر مرتادا موضوعات شتى لا رابط بينها مبقيا إياها فى حالة إستماع مسرورة اليه كيلا تجد فرصة لسؤاله عن المكان الذى خرج اليه وحمله على البقاء فى الخارج كل هذا الوقت مع انه يعلم انها لن تتذوق لقمة واحدة حتى يعود ، ومع انه نجح فى تشتيت افكارها بعيدا عن هذا الامر بعض الوقت فانه فوجيء بها تسأله اثناء قيامه الى حوض الغسيل بعد أن سد غائلة الجوع مسرعة يلهتبال فرصة سكوته عن الكلام برهة :

- أين كنت ؟..

ولأنه كان يتوقع مثل هذا السؤال على أية حال فإنه لم يجد صعوبة فى ان يقول لها انه خرج يتمشى بعد أن ناله بعض السأم من المذاكرة ثم هرع الى حوض الغسيل وهو يردد لنفسه " لقد صدقتنى .. حمدا لله .. حمدا لله !.. ولاحظ انه سكب على يديه فى هذا الم ساء كمية كبيرة من الماء على غير المألوف ، الأمر الذى جعله يتساءل " لماذا ؟ " .. ولم يدرك إجابة هذا السؤال إلا بعد أن إعتكف بغرفته ووضع كتبه أمامه وراح يقرأ فاكتشف وقلبه يسقط بين ضلوعه أن أمه لم تنخدع بأكذوبته لأنه نسى وهو ينهى اليها ان خرج ليهدده د سأمه من طول ما ذاكر ان يتذكر حقيبه التى كان قد تركها على السلم فى المكان الذى كان يجلس عليه الرجل فى إنتظاره ومع حساسية الأم ووقوع هذه المخالفة للمألوف والعادة

فلنأخذ لآبد قد إستنتجت من هذا انه لم يصعد الى غرفته وان امرا إقتضاه ان يرمى بحقييته على اول الدرج ليخرج على وجه السرعة واذن فهذا هو تفسير ذاك الوجود الذى رآه يرسم أماراته العابسة على محياها ففضلت ألا تعلق على إجابته وكلها يقين انه سيعلم حالا انه يكذب عليها تلك الأيام لأمر تجهله .. وهكذا وجد نفسه يدرك تلك الحقيقة المؤسفة التى لا إصلاح لها سوى أن يقوم ويصارحها بالأمر كله ، وخاصة أنه يعلم أنه الذى حدث الليلة سيتكرر غدا وبعد الغد .. الى ما شاء الله .. وان الوضع سيتغير تماما عما كان عليه .. فبعد ان كان ينتظرها متعجلا حضورها بالطعام م فى لهفة .. ستنتظرة هى وسيطول إنتظارها وستقوم بتسخين الطعام اكثر من مرة .. فبماذا يعلل لها الامر حينذاك ؟ من المستحيل عليه بلئ من رابع المستحيلات ان يصارحها .. واذا فالحل الوحيد هو ان يفرع من دق قطعة الحديد تلك فى " الإصلاحية " على عجل ثم يؤوب قبل ان يسقط قرص الشمس فى البحر وهو وقت أوبتها اليومية ولأن الفترة الزمنية التى تنحصر بين خروجه من المدرسة وبين مغيب الشمس لا تزيد عن ثلاث ساعات فى الصيف وساعة ونصف فى الشتاء .. والمفروض انه سيقضى شطرا منها فى المسير الى " الإصلاحية " والعودة منها لا يقل عن ساعة ونصف الساعة من الخطو السريع الذى لا يعطله شئء فانه بحسبة بسيطة أمكنه أن يدرك انه لن يتاح له اكثر من ساعة ونصف يقبع فيها بتلك الغرفة " بالإصلاحية " صيفا .. أما فى الشتاء فانه لن يكاد يصل اليها حتى يبارحها ليلحق الوقت قبل أن يفوت وتأوب امه .

فماذا يكون الحل ..؟

أختصر يوم الدراسة فيبقى بالمدرسة حتى تنتهى الفترة الاولى ثم يتخلف عن حضور الفترة الثانية فيوفر بذلك حوالى ثلاث ساعات اخرى ؟ .. انه ان فعل ذلك فسيمكنه تعويض تلك الساعات الثلاث بمجهودة الذاتى وسيسغه ذكاؤه ولن يبذل جهدا مرهقا فى المذاكرة كما ان ادارة المدرسة لن تعترض على شئء لأنه على حد قول سارة له فى اول لقاء " لن

تقيد غائبا فالدراسة فى تلك الاصلاحية تكمل دراستك بالمدرسة ! " ولكن .. إن كان يضمن الأمر من تلك الناحية الروتينية التى لا تهتم فى شىء فكيف يضمن ألا يلحظ المعلمون أمره وفيهم رائد الفصل مثلا وهو رجل أعطى الدليل على إستعداده لمشاحنه الغير م ن أجله .. واذن تبدو تلك الفكرة على وجاهتها صعبة التحقيق ..

واذا كان الامر كذلك فماذا يفعل ؟

عليه ان يقضى ساعة . على الاقل فى تلك الغرفة شتاء ليتحاشى تدخل ساره فى تنظيم وقته وحينئذ يفقد قدرته على التوفيق بين مطلبات صموده ومعنى هذا انه تبقى لديه نصف ساعة على الاكثر يقضيها فى الذهاب والإياب فهل يستطيع بوسيلة ما ان يجعلها كافية .. يبدو الامر سهلا .. لو كانت امه تنفحه بنقود تكفى لركوب " اتوبيس " فى رحلة ذهابه وعودته من المدرسة .. فانه انذاك كان يمكنه توفيرها لرحلة ذهابه وعودته من الإصلاحية غير أنه للأسف ليس هناك نقود كافية لمعيشتهما فكيف لركوبة ؟..

مستحيل .. ينبغى ان يجد حلا وإلا ! نهار كل شىء .. ولا حل بغير الاعتماد على الحلول الكامنه فى ذاته .. وهذا يعنى انه سيكون عليه ان يسابق نفسه ويجرى عشر دقائق فى الطريق من المدرسة الى " الإصلاحية " وثلاث الساعة فى الطريق من " الإصلاحية " الى البيت فالمدرسة أقرب قليلا من البيت ..

فهل يستطيع ؟..

يستطيع انه لا حل غيره .. وعلى هذا – وحيث ان الوقت الان شتاء – فيكون تخيلة لنشاط يومية على النحو التالى " فى الصباح يذهب الى المدرسة ويستغرق فى التحصيل الى ان يذق الجرس دقته الاخيرة .. فيحرص توفيراً للوقت على ان يكون فى طليعة الخارجين .. ثم يجرى الى الإصلاحية ليقطع المسافة فى عشر دقائق بأية وسيلة .. وأيا كان التعب الذى حل به من جراء ما بذل من جهد فى العدو فلن عليه ان يحمل فى بدنه من إمكانات القوة والنشاط ما يحقق له طرق قطعة الحديد اللعينة والصياح بمقولة " الون " بفرحة هذا "

التمرد الراضى " الذى أزمعة إلى أن يأتى أوان عودته فيلزم نفسه بقطع ا لمسافة بين الإصلاحية والبيت فى ثلث ساعة على الأكثر ليصل قبل أوبة أمه .. فيتناول معها الطعام ثم يستريح بعض الوقت .. وينشط الى دروسة ليستوعبها بنفس الهمة والتركيز الذى تعودهما .. تخيل الموقف كله على هذا النحو كما لو كان واقعا تحت حسه وبصره وبطبيعة الحال أدرك انه سيتكلف مجهودا جسيما فوق الطاقة .. وانه لهذا قد يبوء بالفشل الذريع لاسيما انه يقضى النهار كله دون ان ياكل او يشرب شيئا يجدد حيويته ونشاطه .. ولكن هل لديه حلا آخر .. إن عليه ان يحاول ويجرب ذلك غدا .. أما الآن فليدع التفكير فى هذا الأمر وليذاكر دروسه باستغراق لئاستغراق البوذى أو ممارس رياضة اليوجا !

وفى الغد التالى ما كاد جرس المدرسة يرن رنته الاخيرة حتى كان سامح اول من خرج من المدرسة .. ولحسن حظه إكتشف طريقا فرعيا يوصله الى الإصلاحية دون ان تعطله حركة المواصلات والناس فى الطريق الرئيسى وفضلا عن انه طريق لا يعج بالحركة فانه يتميز بميزة أخرى أهم وهى أنه أقصر كثيرا فراح يركض فيه مغلقا فمه ومركزا عملية التنفس وسحب الهواء فى طاقتى أنفه فحسب حتى لا يلهث .. ويركز أفكاره أيضا .. وكانت نتيجة ذلك سارة جدا فلنله ما لبث ان وصل فى الوقت الذى قدره او تجاوزه قليلا .. ودفع الباب ثم تجاوزه مخترقا الردهة الى ال باب الذى كانت سارة تجلس أ مامه تحملق فيه وتنظر الى ساعتها وقد رفعت حاجبها دهشة من ان يصل بتلك السرعة فهى تعلم ميعاد إنتهاء اليوم الدراسى الذى لم تتوقع ان يحرص سامح عليه الى آخر دقيقة فيه بالإ ضافة الى دهشتها من هذا الحماس الذى كان واضحا عليه من إقباله على طرق الحديد والذى يبدو انها لم تكن لتتوقعه ايضا وحياتها بايماءة من رأسه ثم إنسل داخلا وفى الحال إرتفع ضجيج الطرق ممتزجا بصياحة وهو يردد تلك المقولة واستمر ذلك بلا توقف وكأنه لم يشعر بالتعب ولم تهرب منه أنفاسه لحظة ليتوقف مما أضاف الى دهشة المرأة التى واصلت شغل الابرّة على حين كانت تنصت اليه – الحيرة من أمره .. ثم جاءت لحظة توقف فيها فلم تعد تسمع شيئا

وخيل اليها لأول وهلة أنه بعد هذه الجولة الطويلة قد توقف ليلتقط أنفاسه لكنه فاجأها بأنه قد وضع نهاية مبكرة قليلا لعمله فى هذا اليوم بظهيرة خارجا .. حينئذ وقعت عينها على أقسى وأبشع منظر لإنسان بذل جهدا عضليا ونفسيا فى إنجاز عمل فقد فر لونه تماما حتى أصبح بلا لون بعد ان تعدى مرحلة الإحمرار الدموى التى تشى بالإرهاق الى مرحلة ما بعد الإرهاق التى تهرب فيه ألوان الوجه .. وقد أغرق العرق ملابسه حتى بدا وكأنه قد إستحم بها وأنفاسه التى كانت تتلاحق فى سرعة مخيفة وكأن فى رئتيه شيئا يتحسرج داخلها ويوشك ان يخنقه .. وقد تدلى لسانه .. وسال لعابة وعن لها ان تقول له " يا إلهى إسترح على السرير لحظة .. نحن لا نريد أن تجود بأنفاسك الأخيرة !" لكنه أذهلها مرة أخرى .. بأن يجد - وهو يلتقط تلك الانفاس بالكاد - بقايا قوة على إلتقاط حقيبتة التى لكان قد وضعها على المكتب أمامها ريثما ينتهى .. ثم فى جريه على ه ذا النحو وقد ضم الحقيبة الى صدره ليمسك بها روحه التى ستسرق منه لامحالة أو ليساعد نفسه فى العدو .. لا تدرى .. منصرفا .. فنهضت مستثارة ووقفت بالباب وهى تقول لنفسها انه لن يلبث ان يسقط مغشيا عليه بعد امتار قليلة من ابتعادة عن المبنى ومرة اخرى أخطأ ظننها .. فقد كان يعدوا مبتعدا باقصى سرعة ك ما لو كان فى كامل قواه ، فخبطت أ خماسا فى اسداس وظلت تتابعه بناظريها الى أن إختفى وهى تتوقع سقوطه تعباً بين لحظة واخرى .. ثم عادت الى مكانها واثناء ذلك غمغت وهى لا تكاد تصدق ما رأت :

- هذا الفتى مجنون ولا شك .. لقد أنجز عمل اليهم فى نفس واحد ولمدة ساعة كاملة كما لو كان يملك قوة ثور يخور خوارا متصلا تحت وطأة ما يشعر به من عنفوان ضاغط .. ثم أسرع يجرى وهو يكاد يموت تعباً كما لو كان يخشى أن يفوته قطار .. ومع ذلك لم يتوقف ليسترد أنفاسه .. لماذا .. وما سره ؟ ثم إلام أنصرف اليوم وما زال الضوء فى غرفة الطرق قويا لبضع دقائق أخرى ؟ .. صحيح أنه أنجز اليوم أضعاف ما أنجزه بالأ مس لكنه حرص

على الإنصراف مبكرا بحوالى نصف ساعة ... فلماذا .. لماذا ؟ إنى حائرة من أمر هذا الفتى العجيب .. إنه مجنون ولا شك !..

أما عن سامح فان أصدق تصوير لحالته وهو يجرى فى ماراثونه الخاص انه كان يحاول شئ ليس فوق طاقته المحدودة فحسب وإنما فوق طاقة البشر .. ومع ذلك لم يقف هنيهة .. تهالكت قوى ساقية ومع ذلك لم يتوقف .. لم يعد يرى شئنا امامه ومع ذلك لم يتوقف .. كان يجرى بقوة إرادته فحسب .. ويبحث داخل نفسه عن مصادر قوى جديدة غير قوى الجسد التى إنهارت تماما ونفذت .. فأمدته نفسه بدفعه من القوة الكامنة والتى اكتشفت الآن أنها تغنى عن قوى الجسد وإلا فلماذا لم يصصره فقدان قواه الجسدية .. ولماذا ما يزال يجرى بدونها ..؟..

ومازال سامح يتساءل هكذا الى ان بلغ أعتاب البيت فاصطدم بالباب صدمة عنيفة كما لو كان تيار العزيمة الجارف قد سيطر على مركز الحركة فى عقلة فلم يعد يعمل وفات عليه أن يصدر أمرا الى ساقية لتتوقف فى الوقت المناسب .. مما جعله يبدو فى صدمته بالباب كما لو كان كرة دفعها صبى بقدمه .. ولكن هل توقف هذا التيار بعد ان إطمأن الى أنه قد وصل قبل مغيب الشمس .. كلا لأنه أدرك أن الخطر - كل الخطر - فى أن يستسلم لهذا الإرهاق الذى لا يوصف فيتصرم وقته الغالى وتعود أمه وتجده - على غير العادة ايضا - ينتظرها بالباب .. فتعلم من هيئة ملابسه ووجهه وحقيبه انه لم يعد الى البيت إلا الآن .. وحينئذ تضيق جهوده المستحيلة عبثا .. ولذلك .. فليفتح هذا الباب فى سرعة حسنا قد إنفتح الباب .. وليصعد السلم مدفوعا بقوة هذا التيار .. حسنا ها هو يصعد .. ثم ها هو يفقد تلك القوة بغته على قيد خطوات من حجرته .. ويسقط على الأرض منهارا كالجدار .. ثم ها هو يريح حطام تلك الأعضاء ويخطف بقايا تلك الانفاس .. مشبعا بنشوة الانتصار .

وبعد بضع دقائق كانت الام قد دفعت مفتاحها فى قفل الباب .. وسمع سامح صوت
الشخشة التى صاحبت فتحة فانتصب على قدمية من رقدته امام باب غرفته ثم فى التو
رمى حقيبته فى أى مكان داخلها وهروا الى رأس السلم ليستقبلها ويتعجل صعودها
بالطعام فى جلبة ونفاذ صبر كما ألف هو ان يفعل وكما ألفت هى ان تراه .. وأحس إبان
ضجيجها هذا أنه سعيد يغمره الرضا بكل شىء .

كان سعيدا راضيا لانه عرف الطريقة المأمونة التى يعامل بها هؤلاء الناس دون ان يفرط
فى واجباته المدرسة ولان امه مازلت على الرغم من هواجسها جاهلة بكل شىء ولانه
اكتشف فى اعماق نفسه مصادر جديدة للقوى .. وان قطعة الحديد فى تلك الحجرة المظلمة
الاركان لن تفل عزمة .. على العكس .. ستقوى عضلاته .. ولان رائد الفصل على اتم
إستعداد للتضحية بنفسه من أجله إن أراد .. بل كان راضيا حتى عن ساره .. غير أن
رضاه وفرحته بنجاحه تلك الأمسية فى لقاء أمه على رأس السلم كان أكبر وأعمق من
فرحته ورضاه بهذا كله .. وعندما بلغت الأم آخر درجة تمهل قليلا حتى تستقر فى وقفها
تماما ، ثم دفع نفسه فى صدرها فصحبته الى الداخل و ..

تكرر ما يحدث كل مساء باختلاف طفيف لا يغير من رتبة الاحداث هو ان سامحا فاجا امه
وفاجا نفسه – إبان تناول الطعام – بسؤال غريب " عمن بنى بيتهما " وتوقفت الام عن
المضغ برهة تنظر اليه بفضول .. وبانت على محياه البدايات الاولى لتكوين ع لامة
إستفهام او إستهجان .. لا يدري .. فاسرع هو يقول مفسرا :

- إنى أعلم ولا أشك ان جدى هو الذى بنى هذا البيت منذ نحو نصف قرن ..

قاطعته بحرارة :

- واكثر ..!

فاستدرك :

- لكنى لا أسال عن ذلك .. إنى أسال إن كنت تعلمين اسم المهندس او المقاول الذى قام ببنائه ..؟!

وتبادل الاثنان نظرة تفاهم .. فى توقيت واحد .. كانما هناك اتفاق متبادل .. ثم حولت الام عينها الى الجدار الذى يواجهها .. وشردت قليلا كأنما تستعيد ذكريات الايام الخالية ثم قالت فى بطء وحزن :

- ما كان اعظم جدك يا سراح .. كان رجلا بمعنى الكلمة ..!

ثم التفت اليه واسترسلت وهى تتنهد وتبتسم إبتسامة عذبة حنونة :

- لم أكن قد ولدت بالطبع حين بنى جدك هذا البيت .. فقد بناه وهو بعد شاب لم يتزوج .. لكن .. يالأسرف لا اقدر الآن على تذكر الاسم الذى تسأل عنه .. وإن كنت أؤكد لك أننى أعرفه .. لكنه لا يحضرنى الآن .. وأعدك أن أخبرك به ذات يوم بمجرد أن أتذكره لكن .. أخبرنى أولا .. لماذا تسأل هذا السؤال العجيب ؟!

ووضع سراح اخر لقمة فى فمه ثم استعد للنهوض وهو يقول :

- لا .. لا لسبب معين .. لكن حاولى ان تتذكرى اسم هذا الرجل .. فانى احب ان اعلم كل شىء ..

واستدار خارجا .. ثم أوى الى غرفته وفكر فى أن ينكب على دروسه ومطالعاته .. ثم تذكر ذلك المجهود الخارق الذى بذله اليوم فخامرته نشوة و أرجفته فى ذات الوقت رعشة لإدراكه انه سيتحتم عليه غدا ان يجتاز نفس المحنة ويجاب ه ذات الإختبار لقدراته .. واستولت تلك الرجفة عليه تماما وهامت بأفكاره ومشاعره بعيدا عن التفكير فى المذاكرة .. لانه حينما تذكر قطعة الحديد البارد وساره والمطرقة والمهندس ألون هدر فى اعماقة صوت يقول " ستنجح .. ستهزم هم جميعا .. لا تخف " ثم سمع فى أعقاب هذا الصوت صوت أمه وهو يقول ما كان أعظم جدك .. كان رجلا بمعنى الكلمة فغمره فيض من إنفعالات الزهو والرضى واستدار بجسده الى حيث كانت صورة أ بيه المعلقة على الجدار

خلفة .. ووقف حيالها وقتا يتأمل شاربة الكث .. المستقيم .. وملامحه الهادئة الرصينة ..
وعيناه الثابتتين الراسختين .. والتهبت خيالاته فالقت به فى افاق شاسعة .. وطفق يتخيل
نفسه فى صورة جندى هبط من السماء حاملا مدفعا يطلق نوعا من الاشعة الكونية الى
مسافات بعيدة فيذيب كل شىء .. البيوت والرمال والسيارات والطائرات والاشجار تجرى
ممتزجة بمصهور المعادن والأحجار فى كل مكان .. آخذة طريقها الى البحر لتتطهر .. ثم
بدا له وهو يفكر لا شعوريا ان قد ساوى فى حلمه بين الطيب والخبيث فبدأ يعيد ترتيب
الأوضاع ويركز أشعته الساحقة على الدبابات والطائرات الحربية والسفن المحملة
بالأسلحة فى عرض البحر فقط ودون ان

يريق تلك المرة نقطة دم واحدة .. واستمر يحلم على تلك الوتيرة الى ان تبلجت وسط
الحطام وسحاب الدخان صورة أبيه فانتبه لنفسه وقال بعد ان إنقشع الحلم تماما عن
تقاطيع وجه الأب السمحة الأبية " كان رجلا بمعنى الكلمة هو الآخر " ثم تضاحك فى
أعماقه ساخرا من حلمه .. واتجه راضيا مغتبطا الى فراشه وفى الحال راح فى سبات
عميق ثم كان يومه ال تالى عاديا ككل الايام من بداية استيقاظه فى الصباح الى ان دق
الجرس معلنا انتهاء اليوم اليومى الدراسى .. وبالطبع .. كان فى مقدمه المنصرفين يجرى
فى سرعة وعزم ومثابرة صوب الإصلاحية ويمنى نفسه بالفوز بتلك النشوة المريحة التى
ظفر بها بالامس القريب وما إن بلغها فى الوقت المحدد حتى شعر لفرحته ان إرهاقه أقل
مما شعر به البارحة وهو يدنو من الباب وكأن جسده بكل أعضائه وأجهزته قد بدأ يتكيف
ويتعود على هذا المجهود .. ولذلك الفى نفسه أكثر إملاكا لإرادته وتفكيره .. فلم يدفع
الباب فى ضجر كما كان يفعل سابقا بل نقر عليه بعد أن اجتذب من الهواء نفسا عميقا أعاد
به الى رئتيه إنتظام حركتها .. نقرا مهذبا .. وسمع صوت سارة يناديه من الداخل قائلا :
- أدخل يا سامح ..

فدخل بخطو وجنان ثابتين .. ثم ألقى عليها تحية المساء بإيماءة من رأسه أكثر وداعة تلك المرة فأومأت له بمثلها ثم انتظرت حتى جاورها فى سير ه ناحية الباب فأمسكت بيده لتستبقه قليلا وأثناء ذلك قالت :

- إنى أراك فى خير حال تلك الايام .. لكنك تنتظر بالمدرسة الى نهاية اليوم وهذا يؤثر على دراستك هنا .

هتف متمالكا اعصابه :

- انى ...

قاطعته مستطردة :

- انت لا تكاد تسمع آخر جرس حتى تجرى الينا .. لتمنحنا ساعة من وقتك الذى تسرف فى إنفاقه هناك بينما نقتر هنا .. الى حد انك تسرع بالانصراف لسبب لا ندره فى الوقت الذى يكون فيه الضوء قويا بدرجة كافية لعدة طرقات أخرى .. فلماذا ؟
- سيدتى ..

- اتظن انك تأتى هنا لتمرين عضلاتك !.. انت يا فتى فى غفلة من أمرك .. ولا تريد ان تفهم ان الدراسة هنا لها اهمية ال دراسة هناك .. إن لم تكن أكبر .. وانه سيعقد لك امتحان وستضاف درجات نجاحك فيه الى جانب درجات المواظبة وحسن السير والسلوك الى درجاتك بالمدرسة .. فهل تعلم ذلك ؟

- سيدتى ..!

- سحقا لسيدتك .. إننا نطالب .. بلى نأمرك بقضاء ثلاث ساعات على الأقل ه نا لا ساعة واحدة ..

إنخلع قلب سامح وهو يسمع قولها الاخير فصاح :

- ثلاث ساعات ..

فردت عليه قائلة وهى تتجاهل صيحته ببرود :

- أجل فى الشتاء .. وتتضاف ساعة رابعة فى الصيف .. لحين صدور تعليمات أخرى اليك ..
فقد نزيدها ! والآن اذهب من نصف عنك تلك المرة فقط .. لكن .. إياك .. إياك ان تمكث
بالمدرسة غدا الى نهاية اليوم .. فدراستك هنا ..

قاطعها محتدا وهو يمسح بأنفه :

- أية دراسة تلك التى تزعمين ؟.. الطرق على الحديد البارد وترديد المقولة الفارغة !
أتسمين هذا الهراء دراسة ..؟!

وسادت بينهما دون توقع لحظة من الصمت .. فقد كان عليها ان تعلق بشيء على قوله
الخطير .. لكنها مضت تنفرس وجهه وتنظر فى غور عينية بالطريقة التى عودته إياها
حينما يقع منه أمر يستدعى إنعام النظر لعجم السريرة ، ثم قطعت صمتها قائلة :
- إذن فلنتعلن احتجاجك وسخريتك مما نقدمه لك يا فتى !.. أجل هكذا اظهر على حقيقتك
.. اظهر !.. وانا التى كنت اظنك ..

فقاطعها ثانية قائلا بضيق :

- دعك من إستنتاجاتك وظنونك .. فقد تحسنت أحوالى فعلا فى اليومين الأ خيرين .. لقد
فهمت !

وسكت لحظة تنفس فيها الصعداء ثم أردف :

- وأظن أن الوقت قد حان لهذا ..!.. لم أكن أعرف شيئا أبدا قبل أن أدخل تلك ال غرفة ..أوه
..لا ! .. كنت أعرف أشياء كثيرة عما يراد بنا .. ولكنى لم أكن أعرفها معرفة كاملة .. وما
أظنكم تستطيعون معى ذلك ابدا .. وإن كنتم قد أصبتم بعض النجاح مع غيرى إلا أنكم لن
تقدروا على !.. ان كل من فى المدرسة حتى أولئك الذين لا يحموننى .. يعتييوننى أذكى
طالب هناك .. وأنا أرى نفسى ذكيا إلى حد يزعجكم .. إننى لست كغيرى .. انا أفهمكم كثيرا
.. كثيرا ..!..

صاحت مغضبة فجأة :

- أنت مغرور كبقية قومك !.. م غرور وغبى لا تفهم شيئا ..

فضحك ضحكة مرحة طويلة لأنه أفلح فى إخراجها عن طورها وغمغم :

- مغرور كبقية قهوى .. لم لا تقولين ومختلف أيضا عنهم !..!.. حسنا .. انا مغرور وغبى لا

أفقه شيئا .. لكنى فى ذات الوقت مخلص ومطيع لاننى أفقهكم جيدا ..!..! فأرجوك يا سيدتى

لا داعى لهذا القذف والتجريح الذى لا طائل من ورائه .. لنلا يضيع الوقت الذى على أن

أنفقه فى البرهنة على أننى أبادلكم حبا بحب !..!..

وسكت عن الكلام هنيهة ليرقب الأثر الذى تركه فى نفسها .. بدا له أنها إستعادت هدوءها

ولم تعد تكثر به .. فأنحنى لها مستأذنا فى الإنصراف بحركة دمثة مغالى فيها وأضاف :

- عن إذنك الآن .. المطرقة تدعونى !..

ثم توارى داخلا .. واستطاعت هى من صدى صوته فى أذنيها ومن وقع خطاه ان تستشف

خنوعا غير مريح فغمغمت لنفسها وهى تقضض اسنانها :

- إنه يتخاضع !..

وما لبث صوتها أن ضاع وسط صياحه وضرباته .

- 19 -

توالى الاحداث بعد ذلك سراعا فى الايام التالية وتصادعت وتآزمت لأن سامحا لم يمتثل

لأمر ساره بتقسيم وقته بين المدرسة والإصلاحية .. بحيث يقضى ثلاث ساعات على الأقل

فى غرفة الطرق ومضى ينظم وقته بالطريقة التى قررها والتى كلفته غاليا من صرخته

فشحب وجهه واحتدت ملامحه وبدا لكأنه كتلة من الإرادة فقط .. كان يوشك على الإنهيار

الصحى ومع ذلك لم يتحرك عن موقفه قيد أنمله مما أزم الأمور بينه وبين تلك المرأة التى

إكتفت فى اليوم التالى بلفت نظره .. ثم لما لم ينبعث عن أنفرتة فى اليوم الثالث .. ولما صعر

خده ورفع أرنبه أنفه الى السماء فى إستعلاء أعدت له فى اليوم الرابع مفاجأة لم يكن

ليتوقعها .. فقد وجد فى انتظاره امام باب الاصلاحية رجلا مفتول العضلات يكشف عن ساعدية القويتين رغم برودة الجو وحين رآه تسمرت أقدامه بالأرض رعبا ودهشا ففوت على نفسه فرصة الهرب من هذا الرجل المخيف الذى وثب عليه ودفعه الى إحدى الأشجار ثم ربطه بها ربطة الكلب وأخرج من تحت قميصه سوطا لاهب كان يتخصر به ثم جعل ينيهاً عليه ضرباً دون أن يميز الأماكن التى يقع عليها سوطه ورغم أن السوط كان يهرسح فى الهواء ويلذع سامحا حتى العظام فإنه تماسك .. لم يصرخ أو يبكى .. راح يتلوى فقط .. ويهين أنينا خافتا مكتوما .. مما أهاج الرجل فانهال عليه كالمجنون يضربه فى كل مكان .. الى أن افقده رشده ..

وكانت سارة واقفة اما الباب تنظر عن كثب بابتسامة عريضة على شفيتها .. فلما رأت أنه فقد وعية أمرت الرجل الذى بدا كأنه فقد عقله .. بأن يكف وإلا رفض الغلام أن يخرج من غيبوبته الى تلك الحياة بعد الآن فلبى الرجل أمرها صاغرا .. وصرفته هى .. ثم دلفت الى الداخل وعادت بعد نحو دقيقة حاملة دلوا صغيرا يمتلىء الى حافته بالماء المثلوج وألقت ما فيه على وجه سامح دفعة واحدة فلغرقته وبللت ثيابه وفى التو أطلق سامح شريعة كاد ان ينفطر لها قلبه ثم بدأ رأسه الذى كان قد إنحنى على صدره كرأس المشنوق يتحرك .. وشيئا فشيئا إسترد وعيه ورفع عينيه ليراها واقفة أمامه ترنو اليه فى شماته وبيدها الدلو كأنها تقول " حرمت ! " وتبسم له بسمة مقيمة فصرخ وهو يشعر ان كل جسده يلتهب :
- فكى وثاقى يا غليظة القلب ...!!

فأطلقته من أسره وهى تحذره أن يأتى عملا طائشا ينتقم به منها .. فليس صحيحا أنه وحدها فى هذا المكان بل إنها تستطيع وقتما تشاء ان تستدعى عشرات الرجال التى تنشق عنهم الارض او الجدران على حد قولها ، فكان رد سامح غريبا غاية فى الغرابة .. إنه لم يهرب أو يرميها بحجر أو أى شىء من هذا القبيل .. بل حث خطاه فى ضعف .. وهو يكظم أنينه من الآلام التى كان يشعر بها تتضاعف كلما تحركت عضلاته وخطا خطوة نحو الباب

فظنته يلوذ بالسرير ليريح جسدة المنهوك .. المضضع .. ودلفت خلفه لتري أنه ليس على السرير وليس فى أى مكان بالردهة .. وقبل أن ترسم على محياها أمارات الفضول والتساؤل إرتفع من باطن الحجرة الداخلية صوته جريحا مئطوما يردد مقولة الون .. على حين كان يصروع قطعة الحديد بخبطات ببت لها طائشة ثقيلة من فرط تعب فالتنفها الحرق والكمد من تصرفه هذا الذى رأته فى هذا الوقت فظيعا لا يحتمل .. ثم إندفعت الى الغرفة وصاحت به بمجرد دخولها :

- ماذا تريد ان تثبت ؟

فتجاهلها ومضى يضرب ويصيح بحماسة أكبر .. غير آبه بالآلامه التى كانت تندلع كلما تحركت عضلاته فصرخت به مكررة :

- ماذا تريد أن تثبت ؟

ولما رأت تصميمه على تجاهلها .. حدجته بنظرة مقت وحقد أضاءت لها عيناها .. ثم إنقلبت عائدة وهى تغلى وتفور ولا تستقر على حال .. وظلت هكذا تروح وتجىء فى الردهة وهى تصيح فى نفسها :

- يا إلهى .. وحش قد خلقناه لأنفسنا !.. وحش إنطلق من قفصه ولن نستطيع إمساكه بعد الآن .. لن نستطيع أن نخرس صوته .. إنه يحاربنا بنفس سلاحنا !..

وبعد حوالى الربع ساعة خرج سامح محظما .. وبين فى صمت من آلامه .. وكل همه أن يستحث أقدامه على المسير الى البيت قبل أن ترجع أمه .. فقد إنصرف مبكرا فى هذا اليوم لانه رام ان يكسب الوقت وهو بتلك الآلام .

وما كاد يطمئن الى أنه قد ابتعد الى الحد الذى لا يسمعه فيه أحد ، حتى أفلت لصوته الحبيس العنان فراح يصرخ وينفث آلامه ويبصق الى أن خرج من الغابة وأصبح على الطريق الرئيسى فللجم صوته مرة اخرى

ثم مرت تلك الليلة كما اراد لها ان تمر ولكى يفوت على الام فرصه تأمله طويلا وسؤاله عن أحواله راح يثرثر بقصة مختلفة عن زميل له ينافسوه وهو يزدرد طعامه ثم أنهى إليها أنه متعب قليلا من عمل اليوم بالمدرسة وفزع إلى غرفته وأغلقها على نفسه .. ونام نوما أرقا متقطعا يكتظ بالكوابيس وتباريح الاحلام وفى الصباح التالى .. شعر ان قواه لا تسعفه بالخروج الى المدرسة هذا اليوم .. لكنه تحامل على نفسه كيلا تظن امه شيئا – ودائما أمه – وخرج وهو يغالب ويكبح آلامه التى لم تكن قد سكنت بعد .

ولسبب ما اضطربت الدراسة فى هذا اليوم على اثر نشوب عراك بدأ بمشادة كلامية بين مدرس يهودى وآخر مسيحى ثم تطورت حتى شملت بقية المدرسين من مختلف الطوائف .. فهاجت المدرسة وماجت .. وتجمهر التلاميذ أمام الفصول يتفرجون على المهزلة التى يمثلها معلموهم أمامهم .. وذهبت الجهود سدى فى تهدئة النفوس .. وجاءت الشرطة فوضعت حدا لهذا الشجار لكن بعد ان بدا مستحيلا مواصلة الدراسة فى هذا اليوم .. فلمر مدير المدرسة بفتح الأبواب لخروج التلاميذ .. الذين كان معظمهم قد إنتهز الفرصة وتسلق الأسوار وهرب .

ووجد سامح نفسه فى الطريق لا يجد مكانا يذهب اليه بعد ان انتهى اليوم الدراسى ولم يكذبدا .. ودون أن يفكر أين يذهب هذا الصباح !.. أخذ طريقة الى الإصلاحية وهناك ألقى سارة فى إنتظاره دون أن تعجب أو تقول لنفسها " أنه إستسلم " لأن خبر تلك الفوضى التى وقعت بالمدرسة كان قد وصل إليها .. ولهذا توقعت حضرة مبكرا .

ودخل سامح الغرفة وأمضى بها بضع ساعات .. ثم خرج بنفس الطريقة التى دخل بها دون ان ينظر إليها وسار الى الباب الخارجى مزمعا الإتصراف .. فلحقت به هى وأمسكته من كتفية وأدارته إليها ونظرت فى وجهه لحظة ثم قالت بابتسامة صفاء وود :
- لماذا لا تريد ان تخاطبنى او تنظر الى " .. اما زلت غاضبا منى ..؟!

فنزح نفسه منها بامتعاض واولاها ظهرة ذاهبا .. ولم يعجبها تصرفه هذا فاسرعت تذكره
قائلة بضيق :

- غدا عطلة نهاية الأسبوع وعليك أن تلتى من بداية النهار لتقضيها معي .. !
بقي انه فى اليوم التالى جاء متأخرا بعد الظهيرة .. ثم قضى ساعتين فى الغرفة الداخلية
وخرج فقالت له محذرة :

- تذكر انك غدا ستختصر وقت المدرسة لتقضى هنا ثلاث ساعات على الاقل..!
فلم يبد إهتماما بها وانصرف على عجل .
ثم عاد فى اليوم التالى بعد أن إنتهت الدراسة ومتأخرا أيضا عن الميعاد مما أوعز اليها
بانه قطع الطريق ماشيا على مهل .. وهذه كانت - فى نظرها - بادرة غير طيبة منه
أفهمتها انه لا جدوى معه من إتباع القسوة فى معاملته لأنها لن تزيده إلا عنادا وأن عليها
ان تروضه بطريقة أخرى .. ولذلك أسرعت تسقبله بابتسامة مصطنعة لم تنطل بشاشتها
على ذكائه فلمعن فى الصمت والتجاهل وهو يتجاوزها داخلا من الباب الذى خلفها عندئذ
أمسكته من تلايبه وألقته مباشرة على ركبتيها وتمتمت وعيناها تغوران فى عينية بنبرة
صوت إستشعر فيه - لحيرته - نشوة حقيقية :
- أنت تدعونى لحبك يا فتى .. رباه .. تتجاهلنى هكذا .. كل هذه الأيام .. كلا انا لا اطيق
خصامك ..!

فخلص نفسه من بين ذراعيها وهو يهمهم بنفور وتقزز :
- أووه .. دعينى وشائى .. لم نتفق على هذا .. ليس بينى وبينك من أسباب الحب سوى تلك
المطرقة وهذا الحديد ..!

واسقدار ذاهبا لحال سبيلة .. تاركا إياها تعلق شعورها بالمهانة والإحتقار .. ثم ما كادت
تمر بضع دقائق على الطرق والصياح حتى خرج فجأة يبغى الإنصراف ، وكان يتوقع ان
تحتج على هذا التصرف فتعبس فى وجهه وتقول له مثلا انه وقد جاء متأخرا فإنه ينصرف

مبكرا .. غير انه وجدها تتأمل ذهابه بهدوء وابتسامة صريحة راضية تلاعب شفيتها ..
فهر لها كتفية فى لا مبالة .. وانصرف .. ثم راح يسير فى الطريق بين الاشجار .. يفكر فى
معنى إبتسامتها ويطلق من بين شففيه صفيرا مرحا .. وقد وضع يديه
فى جيوبه .. وفى بعض الأحيان كان يروق له أن يضرب بمقدمة حذائه فى جسارة غير
معهودة على هذا الحذاء قطع الحصى والطوب التى كان يقابلها .. وعيناه تدوران حوله ..
كما لو كان يود لو رأى إنسانا او حيوانا حتى .. ليبادلله الحديث وتحقق له ما كان يصبو
اليه من محادثة إنسان .. حين خرج الى الطريق العام لطيته فرأى عجوزا محدودب الظهر
يتكىء بذقته الرخوه على عصاه التى قبض عليها بكلتى يديه محملا فى الطريق ناحية
الداخل كما لو كان يرقب شخصا آتيا من الغابة .. حينئذ لوح له بيده فى مرح قائلا :
- هيه .. !.. أيها الجد الطيب .. ماذا تنظر فى هذا المكان المقفوف ..؟
وأطل العجوز عليه بنظرة تحوى عمق تجربته الطويلة مع الحياة وكان مجيبا كأنه يداعبه
او يلاطفه :
- أنتظرك أنت ..!
وتلقى سامح دعابته فى حسن نية وتساءل :
- تنتظرنى انا ..؟
- اجل يا بنى .. فقد شعرت بك وانت قادم من هذا الطريق .. فحدثنى قلبى بانك فى حاجة الى
.. فقلت لنفسى انتظر لترافقنى فى رحلة العودة الى داخل المدينة .. فلستفيد أنل صحبتك
الفتية .. وتستفيد أنت حللتمتى العجوز ..!
- وماذا كنت تفعل هن ..؟
- أضيع هذا الوقت الباقي من حياتى ..!
- ماذا ؟

ودعاه العجوز الى السير ممسكا يده فى عطف لا يماثلة إلا عطف أمه .. على حين يتوكأ باليد الأخرى على عصاه .. دون ان يجيب سؤال سامح الذى ساير خطواته الوئيدة بكثير من الإشفاق والألفة .. ومضت برهة صمت رمقه العجوز أثناءها بنظرة تأمل آسرة طويلة من ركن عينه ثم تقسم :

- يبدو لى أنك تعاني شىء ما يا بنى ..

فهمس سامح قائلا فى إيجاز وهو يزفر :

- بالفعل ..!

وحياه العجوز بنظرة اخرى عميقة تدعو للإنتناس والاطمئنان قبل ان يقول :

- اذن .. لماذا لا تقص على حكايتك ؟ .. قل لى ماذا يجرى فى هذا المكان ؟ .. وماذا يضطر

فتى مثلك إلى إرتياد مثل هذه الاماكن المنعزلة التى لا يفضلها سوى عجوز مثلى يقضى

أيامه القليلة الباقية فى الحياة دون هدف أو أمل .. اللهم إلا فى أن يأتيه داعى الموت بوجه لا يخيف ..!

وانتابت سامح مشاعر العطف التى يمكن تخيلها على هذا العجوز " الذى يقضى أيامه

القليلة الباقية فى الحياة دونما هدف أو أمل غير أن يأتيه داعى الموت بوجه لا يخيف ! " ..

وفكر فى الأمر لحظة .. ثم قال :

- دعنى أصارك بان هنك اسبابا قوية تمنعنى من ان اقص عليك حكايتى .. لكن لا بأس

بصفة عامة من ان اقول لك اننى وقعت فى حبال قوم لا .. لكن .. أخبرنى أولا .. ما اسمك ؟

كان سامح يقصد من معرفة اسمه ما إذا كان يهوديا ام لا .. كيلا يندفع فى حديث يؤذى

شعوره .. وفهم العجوز ما يرمى اليه فضغط على يده مطمئنا وهو يغمغم بانفعال :

- كلا .. إطمئن .. آه .. حتى أنتم أيها الصغار تقولون هذا الامر عنيتكم قبل ان تقدموا على

شىء .. إطمئن .. انا عربى مثلك ..

- وشردوا عائلتك ايضا ..؟

- وشردوا عائلتي ايضا ..!

- وانتزعوا أرضك أو بيتك ؟

- انتزعوا كليهما ..!!.. والآن ان اعيش أيامى الباقية عالية على بعض الاصدقاء القدامى

الطيبون ..بلا اقارب وبلا ابناء .. اولادى جميعا .. وقد كانوا سبعة رجال أشداء لا يسع

المرء إلا ان يفخر بهم .. قتلوا أو إعتقلوا .. لا أعرف شيئا عنهم .. أنا وحيد ..!

قالها بطريقة أوجعت منها سامح وشرع بكل كلمة تنفذ الى قلبة وتمزقه كأنها طعنة فى

الصميم وامتلات عيناه بالدموع واغتصب إبتسامة خادع بها العجوز ثم قال مهونا :

- لا تحزن يا جد .. نحن جميعا مثلك .. انا ايضا فقدت ابى .. واوشك ان أفقد امى وبيتى

ومدرستى ..!

- انت ايضا ايها الصغير البائس ..!؟

- اجل يا جدى العزيز .. والله .. انا ايضا ..!

صمت العجوز لحظة ينعم الفئو كأنما يبحث عن نصيحة غالية ينفخ بها الفتى الطيب

المعذب ثم اخيرا أغمض عينه المواجهة له نصف إغماض وتمتم وهو يتنهد تنهدة ضعيفة

تناسب وقار سنه وتجاربه :

- وماذا انت فاعل ..؟

- اهذا سؤال .. سأقاومهم طبعاً .. لكن بطريقتى الخاصة ..

- حماقة !

صاح بها الرجل بنبرة مرتفعة أربكت سامح وجعلته يشعر بشيء من التخرج والتحير ثم

استدرك الشيخ وهو يضغط يده فى نبضات دافئة متتالية :

- انت يا صغيرى تبدو لى فتى طيباً .. من اسرة طيبة .. ويعز على ان .. آه .. مازلت صغيراً

على ذلك !

فهم سامح أنه يقصد الموت المبكر بالنسب اليه .. فنظر اليه لحظة يتأمل غضون وجهه ..
وتهدل تلك الشعرات البيضاء التي تطل على إستحياء تحت طاقيته الصوف .. ثم قال له
هامس في رقة تنطوى على بعض الاستنكار :

- أتريدنى ان استسلم ايها الشيخ العجوز ..؟!

- أريدك ان تبقى على قيد الحياة فقط !

هنا سحب سامح يده فى إشمئزاز مفاجيء وألهب العجوز من قمة رأسه الى أخمص قدميه
بنظرة أوعها كل ألمه وحيرته وعذاباتة ثم هتف متبرما :

- سحقا للحياة ..!!.. قد دفع أبى حياته ثمنا لكرامته وحريته ولن أكون أقل منه .. أجل .. لن
أحنى رأسى ابدا ..!

فهز العجوز هامته فى غير ارتياح ثم تناول يده مرة ثانية وقال :

- لا يا فتى .. ابدا .. لم اطلب منك احناء راسك فى مذلة .. انكم يا اولادنا لا تعرفون الحقيقة
التي عرفناها ولهذا تنطحون رؤوسكم فى الجدران الصماء و

وسحب سامح يده من جديد .. ثم حدج العجوز بنظرة تقطر ريبا وقال مقاطعا إياه :

- اذن فهذه حكمة السنين ..! ايها العجوز .. انت تحاول معى شيئا يفقدك إحترامى .. ثم ا

فقدته إناس اعرفهم جيدا .. ولهذا فانى استأذنك فى التخلّى عن صحبتك فى أدب ..

ثم أسرع فى سيره مبتعدا عنه فى تأفف وأضاف لنفسه :

- وغضب ..!

وهنا حاول العجوز ان يناديه :

- أيها الفتى .. أيها الفتى .. إنتظر لحظة انت لم تفهمنى ..!

فلن مئات الأقدام كانت قد نبئت له وحملته بعيدا .. فلم يعد يسمع نداءات صوته الواهن ..
المرتعش .

إنطلق سامح هائما على وجهه وصورة العجوز وصوته يملآن رأسه كله .. وبعد قليل كان فى غرفته امام النافذة يرقب البحر والسماء ويحصى عدد الأمواج ويتطلع الى أضواء الشمس الغاربة .. وغرق فى شبه حلم .. ثم أقبلت أمه بعد دقائق ودخلت عليه غرفته فلم يشعر بها .. واسترعى شروده نظرها فدنت منه مبتسمة فى رفق وابتدرته متسائلة :

- مالك سامح ..؟

أجابها فى بغة المفاجأة وهو على حاله لم يغير وقفته وفى صوته رنة إخفاق وتوجس :

- مالى .. مالى ..؟

- نعم .. أحوالك تلك الأيام لا ترضى أحدا .. لماذا لا تبوح لى بذات صدرك كما كنت تفعل ..

أتظن اننى لم الحظ شيئا ..؟

قال وهو يواجهها :

- أوهام يا أمى .. أوهام برأسك ..!

وتضاحكت هى بمرارة وقالت :

- هون عليك ..!.. أنت لن تستطيع خداعى باكثر من ذلك .. أتظن أننى آخر من يعلم ..؟!

- أقبل عليها وهو يتسائل فى خوف :

- كيف ..؟

أجابته دفعة واحدة :

- هذا الشغب الذى نشب فى المدرسة منذ يومين بسببك ..!

صاح فى ذهول :

- بسببى ؟

- اجل ..

- كيف ..؟!

- هذا الرجل الذى يقال انك اصطدمت به أمام البوابة .. ورائد الفصل الى تدخل لأجلك !..

شعر برهبة تهبط عليه فغامت عيناة وقاطعها بصبر نافذ متسائلا :

- وما علاقة ذلك بما حدث ؟..

وسكت لحظة يستجمع افكاره ثم تساءل مفتعلا عدم الإكتراث كيلا تفهم شيئا من إهتمامه
بالأمر :

- وهل عرفوا شخصية الرجل ؟

وفى إرتياح بالغ إستقبل إجابة أمه وهى تقول :

- كلا .. الرجل لم يكن موضوع الشجار .. ولكن أحدهم وشى برائد الفصل لدى المدير ..
زاعما انه منحك درجة لا تستحقها فى الإختبار الذى ..

ولم يهتم سامح بالإصغاء اليها أكثر من ذلك .. فقد تدرجت كرة الأمور خارج ملعبه !..
كان أخوف ما يخافه أن تكون شخصية الرجل قد إنكشفت .. ولكن ها هى ذا تصرح له بأن
الأمر كله لا يعدو مجرد وشاية عادية مما يحدث غالبا بين الزملاء فى العمل .. حينئذ رمى
بنفسه فى حضنها وقد تملكته نوبة سرور وارتضاء وغمغم :

- معذرة يا أمى .. كنت افكر أمام النفذة فنسيت أن استقبلك كعادتى على رأس السلم .. ألن
نأكل ؟..

ولم تكن الأم قد إنتهت من حديثها بعد فسألته :

- لكن .. اخبرنى .. من هذا الرجل الذى إحتككت به .. أنا لا أخال الأمر مجرد صدمة عفوية
مما يحدث ..

قاطعها متضايقا برفق وهو يفرك رأسه فى صدرها :

- أمى .. أريحى نفسك من تخيل أوهام لا أساس لها !..

- سامح !.. أنت بهذا لا تريح قلبى قط .. لقد تناقشت فى الامر مع زينا وانتهيت الى أنه ثمة
علاقة بين الرجل الذى رآته زينا معك فى هذا اليوم الذى ..

ولسبب ما توقفت فجأة لأنما غيرت رأيها عن الإفصاح له بسر .. او تحدثت اكثر مما يجب
مخالفة خطة رسمتها لنفسها فاحتبست انفاس سامح وهو يمعن فى إخفاء وجهه فى
صدرها حتى لا تلم بحقيقة إنفعالاته وصاح فى أعماقه :

- اذن فقد تحققت مخاوفى وحننت زينا بوعدها ..!

وحولت الام مجرى الكلام متسائلة :

- سامح .. اذا كان هناك من يطاردك تلك الايام فلماذا لا تخبرنى بالحقيقة ؟

-

- أتخفى أسرارك ومتاعبك عن أمك .. حبيبتك ؟

-

- سامح .. تأكد أنك إن لم تخبرنى الآن فسأعرف ذلك من مصدر آخر .. وحياة أبيك ..

أخبرنى لتوفر على الجهد ..!

وعند هذا الحد من الكلام ومن إنفعالات أمه أيقن أنه إن لم يقل شيئا يبدد به مخاوفها تماما

فلنلها لا محالة ستعرف .. وفى ذات الوقت إعتملت فى صدره رهبة عارمة فى إفراغ

وتسكين سرورة قلبها لدرجة انه أوشك أن يعترف لها بكل شيء وينتهى .. ولو استطاع أن

يهزم نفسه ويفتك بمشاعره فيقول لها وهو مغمض العينين :

- يا أحب أم .. ينقطع لسانى إذا قلت : كم أنت حمقاء إذ تفسدين تدبيرى ..!

ولكن نجوم الفجر كانت أقرب اليه من تعنيف تلك الام الحبيبة – وانهارت مقاومته وراغ

الدمع فى عينيه فلأدار لها ظهره وأخفلهما بعيدا عنها ينظر الى البحر عبر النافذة ..

ولاحظت الأم أنه ينتحب من إهتزاز كتفية فصاحت بجزع :

- أتبكى وتخفى عنى دموعك أيضا؟!.. هذا كثير .. كثير !

فقال لها ببرود مصطنع دون ان يستدير اليها :

- امى .. انت تبالغين كثيرا .. فارجوك ان تذهبي لتسخين الطعام .. انا جائع .. وابكى من شدة الجوع !

فانفجرت الام فى نوبة بكاء وتثريج واندفعت على هذا النحو خارجة قبل ان تقضى منه غرضها .. اذ انه عرف كيف يتخلص منها بتلك الحيلة عن بكائه من فرط الجوع .. والتي كان يستحيل عليها ان تتجالها ولو كانت تعلم انها مجرد وسيلة ذكية لصرفها .. ولم تضايقه بعد ذلك بالالاحاح على هذا الامر فى تلك الامسية التى اعتلقت فيها بغرفتها متحاشية الظهور أمامه وكأنها أزمعت تسقط الأخبار من مصدر آخر .

ثم انها فى الصباح التالى اخذت الى الصمت ولم تبادله سوى تحية الصباح وتركته يخرج الى مدرسته وهو ينظر اليها نظرة مستريية واجفة فتساءل فى نفسه " ترى ماذا قررت ان تفعل وعلام يدل صمتها القهرى ؟! " وظل هذا السؤال يطارده طوال يومه بالمدرسة مشتتا تركيزة فخلق بلفكاره بعيدا وسأله رائد الفصل ما به أكثر من مرة .

وحين دق الجرس دقته الأخيرة .. مضى من فورة الى الطريق ولازال هذا السؤال يقلقه ويطوح بافكاره العاجزة عن إدراك اجابة :

ثم لم يغادر هذا السؤال رأسه لحظة واحدة فيما بعد .. وهو يولج " الإصلاحية " ثم وهو يمر على سارة صامتا .. ثم وهو فى الغرفة يطوح بالمطرقة ويخبط قطعة الحديد خبطا عشوائيا ثم وهو يقرر الإنصراف قبل الميعاد وقد ضج بهذا السؤال المطارد .

كان ذاهلا .. مصبورا .. يمشى ناظرا فيما أمامه بشرود كأنه فى عوالم أخرى فلم ير ذلك الشاب الذى أخفق عندما حاول - عقب رؤيته أول مرة - أن يلحق به ليستدرجه الى حديث يفهم منه شيئا عما يراود به وهو يداعب سارة ويناوشها محاولا تقبلها .. ومر عليهما كالصخرة الجامدة او كالتمثال المتحرك فى اقاصيص الاطفال الخيالية المرعبة ..! إنه حتى لم يسمع تلك الضحكة الساخرة التى اطلقها فى أعقابه وخرج يستقبل الطريق ويعب

من هوائه النقى بنهم آلى .. وما هو إلا ان شعر بيد توضع على كتفه من الخلف فالتفت
جزعا يتساءل :

- من .. من ..؟

وراعه ان يرى وسط ضجيج السؤال القارع فى رأسه .. الرجل العجوز ينظر اليه نظرتة
المجهدة الوانية الاضواء .. الخبيرة .. مبتسما فى رقة وبشاشة وعمق رهيب .. هبط على
سامح فالقى فى روعه أن الحركة التالية التى سيجيب بها نظرتة وابتسامته هى أن يخر
راكعا ..!.. فهمس فى روع :

- سيدى من أنت .. ماذا تريد منى ؟ .. انا لا أريدك .. لا أريدك ..!

فقال له وهو يربت على كتفيه فى الفقا وتودد :

- هدىء نفسك يا بنى .. أنت لم تفهمنى بالأمس .. انا أريد مساعدتك !

هتف سامح متسانلا بفضول وحيرة شديدين :

- تساعدنى على ماذا ..؟

- اتظن اننى معهم ضدك .. اسمع ..!.. إنهم يريدون إسرائيل يهودية صافية .. وانت

مخطيء فى ظنك بى لاننى عانيت اضعاف ما تعانيه انت .. رغم ان أبى يهودى مثلهم لكنهم

لا يعتبروننى كذلك لان أمى ليست يهودية وزوجتى ايضا ..!

ثم سكت وفرك عينيه بطريقة تدعو للإشفاق التام عليه .. وراح ييم النظر اليه فاستاء

سامح وصاح به مغضبا :

- لا تنظر الى تلك النظرة العميقة ..!.. أخبرنى بلا لف أو دوران .. ماذا تريد منى أنت الآخر

!؟..

قال العجوز :

- ينبغى اولا ان تفهم اننى خمنت ...

قاطعة ضجرا :

- تخميناتك كلها فى محلها .. فماذا تريد انت منى ؟!

واستجمع العجوز انفاسه ثم قال :

- اريد ان اقدم لك نصيحة .. اسمع .. بالامس سمعتك وانت تقول انك بتوشك ان تفقد امك

وبيتك ومدرستك فهل هذا نوع التهديد الذى يمارسونه عليك ان لعبت ببنيلك او هربت من

قبضتهم ...!!.. لقد سمعتك أيضا وانت تقول انك ستقاومهم على طريقك الخاصة .. والآن

أرى انك تفكر بطريقة غير سليمة .. فهم سينتصرون عليك حتما ولو اضطروا الى قتلك ..!

وتوقف لحظة حتى يتسرب لنفس سامح اثر هذه الكلمات المرعبة ثم كرر هلمسا :

- نعم .. قتلك .. قتلك ..!

وتملل سامح ضجرا نافذ الصرير متلهفا على العودة لبيته وساعل نفسه متعجبا " ولكن لم

هذا الإصرار على نعمة القتل ..؟.. صحيح ان هذا الاحتمال قائم وبقوة .. لكن لم يكرره

ويؤكد العجوز على هذا النهو .. اهو مأجور لهم ..؟! واسترق اليه نظرة ثاقبة ثم إستدرك

لنفسه " ربما .. وان كان ظنى هذا فى محله .. فهل من الحكمة ان أصده وأبصق فى وجهه

قائلا له انا افهمك انت ايضا .. أم أصبر عليه حتى يفرغ كل ما فى جعبته ويكشف وجهه

الحقيقى كلية ؟!"

ساد بينهما الصمت حين كان سامح يحدث نفسه بهذا .. واخيرا هز رأسه كأنما قد وصل

الى قرار وقطع الصمت قائلا :

- انها نصحية غالية يا جدى .. وتأكد اننى فكرت فى الامر منذ لحظة فرايت ان الحق معك

فعلا .. ينبغى ان اعرف كيف احافظ على حياتى .. ان لم يكن لى فلأجل أسمى المسئينة التى

سيقضى عليها الحزن حتما إن أفقدتها إياى .. بعد أن أفقدها أبى إياه ! .. ولهذا يسرنى أيما

سرور أن اعبر لك عن شكرى وعرفانى بالجميل و

إبتسم العجوز فى إغتباط للنتيجة التى توصل اليها وبقتم وهو يومىء برأسه فى تواضع

مقاطعا :

- لا شكر على واجب يا بنى .. نحن العرب ابناء طائفة عذبتها الاضطهاد طويلا ! وما كاد
سامح يسمع تلك الكلمة " طائفة " حتى تأكد لديه فعلا ان ظنونه كلها صادقة فهي هو
العجوز الغبى الذى صرح له بالأمس وكرر الآن أنه عربى مثله ..يعتبر نفسه وقومه مجرد
طائفة فقال فى نفسه " إنه يتحدث كما لو كان بلسان القوم الذين لا يعترفون بإنتمائه اليهم
!! ثم قال له ممعنا فى خداعه :

- ولهذا أريد ان أعبر لهم بطريقة عملية عن إستسلامى التام .. فبماذا تنصحنى يا جد ؟
اجابة العجوز على الفور كما لو كان قد أعد تلك الاجابة سلفا :

- حجة ملكية البيت .. انت تعرف أنها فى دولاب أمك .. وهم أيضا يعرفون أنك تعرف !!
- هكذا .. آه .. تقصد ..

- اجل بالطبع حتى يتأكد لديهم أنك لم تستسلم لهم فقط بل وتثق فيهم ثقة عمياء !

- اذن فأنتم تعرفون ان حجة البيت فى دولاب امى !

- ماذا تقصد بقولك أنتم ؟

- وتعرفوت ايضا اننى اعرف .. حسنا .. واذا كنتم تعرفون فلماذا لم تسرقوها بانفسكم
ولديكم مفاتيح لكل البيوت ..!

- ايها الفتى انت تتحدث بطريقة غريبة .. ماذا تعنى بقولك انتم ؟

فكشر سامح عن انيابة وهدر صارخا وعيناه تقدحان شررا :

- ايها الشيخ .. لا تتغابى .. نحن نفهم بعضنا جيدا .. والله لولا كبر سنك وصغر سنى لعرفت

كيف القتك درسا ينفعك فى آخر أيامك .. وبعد هذا تنتظر ألا يأتيك داعى الموت بوجه

مخيف !! لعنة الله عليك .. لعنة الله عليك !

ثم اولاه ظهره واسرع منصرفا فى تقرز واضاف لنفسه :

- ولعنة ايضا على الأوغاد جميعا ..

وعبثا حاول العجوز ان ينادي :

- ايها الفتى .. ايها الفتى .. انتظر لحظة .. انت لم تفهمنى !
فان مئات الاقدام كانت قد نبتت لسامح وحملته بعيدا .. فلم يعد يسمع نداءات صوته الواهن
المرتعش ...!!

- 21 -

ثم تواصلت الأحداث تترى بعد ذلك ...
فمن ناحية توصلت الأم إلى خبر الإصلاحية ولعلها سعت هي إليها بإقتفاء أثر سامح .. أو
لعل أحدا من رجال الإصلاحية سعى إليها هي فاخبرها بالأمر لإستدراجها الى هناك وصولا
الى أغراضهم عن طريقه وكان مفروضا أن تواجه ابنها بما كشفتته من أمور .. لكنها
آثرت أن تعمل جهودها لإنقاذه دون أن يعرف شيئا مخافة أن يعرقل مساعيها بغيرته
ومخاوفه التي كانت تعرفهما فيه خير المعرفة فأخذت تطرق مختلف الأبواب الممكنة
والمتاحة .

طرقت باب زوجة رئيس البلدية أولا .. باعتبار أنها مفعمة بإعجاب لا تخفيه بإبنها .. وعلى
إعتبار أنها زوجة رجل له فى أوساط السياسة كلمة مسموعة .. فوعدها الزوجة
بمساعدها ثم طلبت منها أن تمهلها بضعة أيام ريثما تقنع زوجها بالتدخل وريثما يصل الى
نتيجة ثم نصحتها فى ذات الوقت ألا تقدم بلاغا الى الشرطة .. بحجة أنهم لن يفعلوا لها
شيئا لأن بعض رجالاتها ينتمى الى عضوية تلك الإصلاحية المزعومة فعملت الام
بنصيحتها وفوضت لها الأمر كله - بعد الله - وانتظرت على أحر من الجمر - كما يقولون
- حتى انقضت الأيام التي طلبتها منها الزوجة .. بل وحتى أضيفت إليها عدة أيام أخرى ..
وبدا الأمر كما لو أن الزوجة قد توصلت الى نتيجة غير محموددة وأنها تراوغها فقط..
فألحت عليها الأم أن تخبرها بالحقيقة مهما كانت قاسية فإنها لم تعد تطيق صبرا .. فكانت
إجابة المرأة لا تخرج عن ان زوجها وقد بذل مساعيه المشكورة عرف أنه لا خطر ولا
خوف من أمر تلك الإصلاحية بدعوى أن دراساتها تكمل دراسته بالمدرسة وأنه لن يحصل

على الشهادة الابتدائية - وهو على وشك الحصول عليها - بدونها .. وأنها ينبغي ألا تتخوف أو تعطى هذا الأمر أهمية .

ولم تقنع تلك الإجابة الغريبة الأم .. فذهبت الى المدرسة وقابلت مديرها لتسمع عين الإجابة ...

حينئذ تحيرت أين تذهب بعد ذلك وقد عرفت ان إلتجاءها إلى الشرطة لن يجديها فتيلا...
أذهب الى تلك الإصلاحية وتتوسل الى القائمين عليها أن يدعوا ابنها وشأنه من أجل دموعها ؟ ...

وترددت فى الإقدام على تلك الخطوة المشكوك فى نتائجها طويلا .

ومن ناحية أخرى كان سامح يراقب صمت أمه الذى تلفعت به تلك الأيام وتجاهلها أمر السؤال عن حقيقة هذا الرجل الذى كلمتها عنه زينا .. بمزيد من الحيرة والتوجس .. ولم ينقطع عن الذهاب الى الإصلاحية يوما .. وحافظ على وقت المدرسة المحافظة التامة .. فلم يخضع لضغوط سارة التى مارستها عليه معالجة معه كل الوسائل المؤثرة .. بلا جدوى .

وإن كان هذا العجوز لم يره وجهه مرة أخرى منذ هذا اليوم .. فإنه رأى فى ردهة الإصلاحية مرات كثيرة ذلك الشاب الذى يمشى مركزا نظراته أمامه فى لا مبالاة والذى سبق أن رآه فى أيامه الأولى وفكر أن يكسب صداقته ويعرف منه شيئا يبدد له سحاب غموض تلك الأيام .. رآه .. أكثر من مرة .. يمارس مع سارة الحب فى أوضاع - مخجلة - بالردهة .. وخيل إليه أنهما يتعمدان ذلك أمامه فقط .. لأنه كان يتصنت اليهما .. بعد دخوله غرفة الطرق فلا يسمع صوتا .. ولا شهقة مهموسة من تلك الشبهقات الشبقة المبالغ فيها .. التى كانت سارة تطلقها فى هوس كلما دخل وراهما معا ...!!..

و ذات مساء .. بينما كان يدفع باب الإصلاحية داخلا على سجيته .. وهو لا يتوقع أن يرى أو يسمع شيئا غير العناق والقبلات والأصوات البهيمية التى كانت تصبغ وجهه الشاحب

بحمرة الأرجوان .. ولا تصبغ شيئا – غير العبت والمجون – على وجهى سارة والشاب ..
خيل اليه لدى أول نظرة يلقيها داخلا .. أنه يرى .. ويرى ماذا .. وقد ارتجفت أوصاله " لا
.. محال " وارتد الى الوراء مذعورا فجاوز عتبة الباب الذى إنصفق بفعل تيار الهواء .. أو
أن ثمة يد أسرع بإغلاقه - لم يكن يدرى - فقد كانت الارض تميد تحت أقدامه .. وأشجار
الغابة تدور من حوله .. فلم يعد يرى إلا ضبابا .. ولم يعد يسمع من الداخل إلا دويا ..
وأصابه غثيان .. فجلس على قدمية واستسلم للقىء غير ذات مرة وهو يمزق شعره
وبعض شفته السفلى حتى أدمت .

كان قد رأى فى لمحة خاطفة امرأة من الظهر .. تحسر عن ساقها وتنحنى على الأرض
أمام أعين سارة والشاب – والشاب بوجه خاص – فى هذا الوضع الذى ذكره بأمه .. فوقع
فى وهمه أن هذه الشغالة التى تمسح البلاط ليست إلا أمه .. وساعده على الإنسياق فى
تيار هذا الوهم الجموح .. أن المرأة كانت تحمل فى تكوينها من الخلف نفس تكوينات أمه ..
فحدث له ما حدث .. ولبت وقتا طويلا .. فى الخارج .. يتقيأ أو ينثر دموعه .. بينما يدير فى
رأسه خوانس الأفكار ويشعر بالرعب كلما فكر فى الدخول .. إلى ان إنفتح الباب .. فخيل
اليه ان فواده هو الذى يتفتح منشقا إلى نصفين .. ظانا أن أمه وقد عرفت أنه إنقلب
مذعورا على عقبه فقد أتت تطيب خاطره .. أو .. لا .. إنها ساره .. التى وقد طال انتظارها
لدخوله ثانية خرجت تستطلع جلية الأمر .. راسمة هذا الشداه المصطنع من غرابة اطواره
.. يا الهى ..!

- ماذا هناك يا فتى ..؟

- ماذا هناك ؟.. أنت أول إنسان فى هذا العالم المسكين يعرف ما هناك !..

وخيل اليه ان ملكا من السماء قد تهادى الى الارض واخذ يتمرغ فى حمأة الأوحال ..
فاندفع داخلا ليناقش أمه الحساب فى غل وعنف ولكن .. ماذا يرى ..؟.. إنها ليست هى ..
أ يكونون إمعانا فى الكيد له قد خبأوا أمه فى تلك الغرف المغلقة دائما .. ووضعوا بدلا منها

تلك المرأة التى راحت تلاقى نظراته النهمة الفاحصة بفضول .. يرتسم التعب فى عينيها ..
وهو يحدق فى وجهها أنا .. ويدور حولها من الخلف ليتأمل تقاسيم ظهرها أنا آخر .. لا ..
هذه واحدة أخرى لا ريب .. فهو وإن كان لم ير وجه الأولى .. غير أنه يكتشف الآن .. أنها
لا تحمل نفس الظهر الذى لأمه ..!

صرخ :

- اين ذهبتم بها ..؟!!

إقتربت منه ساره فى تردد وسألته مأخوذة :

- من تقصد ؟..

- هى ..؟

- هى من ؟

- أأ ..

فى تلك اللحظة أدرك - لحسن الحظ - أن إحتمال أن يكون ما رآه مجرد أوهام وخيالات
تأججت فى نفسه بسبب ذلك التشابه الكامل والوضع الذى كانت عليه " الشغالة " وبين ما
يتخيله من وضع لأمه وهى تمسح بيوت الموسرين فقال لنفسه " وإذن تكون الإجابة
المريحة على سؤالك يا سارة ليست من العقل والحصافة فى شىء .. فإننى بهذا أعطيكم
طائعا .. سلاحا ناجحا لكسر شوكتى .. وحتى إن كانت لا قدر الله ظنونى صحيحة .. فإنهم
حتى الآن يجربون تلك الوسيلة معى إن كانت تنفع .. او بمعنى آخر يجسسون نبضى .. بدليل
انهم أسرعوا بتبديل أمى بتلك المرأة " ..

وأضاف لنفسه " أنه وإن حدث واعترفت لهم يمكنون صدرى .. فسيكون ذلك دليلا أكيدا
على النجاح المحتمل لتلك الوسيلة معى .. وإذن .. إن أردت إنصاف نفسى فعلى أن أنسى
ما رأيته نسيانا تاما !.. "

ولم يشأ ان يحدث نفسه أكثر من ذلك .. لأن سارة كانت تنتظر إجابته فأسرع يقول موضحا :

- آه .. لا شيء .. إنى أشعر بالإجهاد والغثيان اليوم .. ولما خيل الى وانا داخل أن رغبتى فى القىء قد أصبحت عند حلقى .. فلقد خشيت أن ألوث نظافة الصالة وأضيع جهود تلك السيدة الطيبة عبثا .. ولذلك خرجت لأتقيأ بعيدا .. أما عن هذه التى أسأل أين ذهبتم بها .. فإنى أقصد تلك المنضدة الصغيرة التى كانت أمام السرير دائما .. والتى ربما وضعتموها فى مكان آخر ريثما تنتهى السيدة من ..

- كفر ثرثرة !...

صاحت بها سارة مستاءة من لباقة الفتى .. ومن دقة ملاحظته .. فهو لا يفوته شيء ابدا .. ثم استتلت :

- والآن يا فتى .. أنت لا تنصاع لأوامرى .. وتصبر على المجيء متأخرا بعد إنتهاء دراستك بالمدرسة .. فأشر على أنت ماذا أفعل حتى تطيعنى وتكف عن معاندتى ؟!...

فتدخل الشاب متكلماً لأول مرة قائلاً وهو يسدد قبضة يده نحوه مهددا :

- قلت لك ألف مرة هذا الولد رأسه صلبة مثل المرحوم أبيه !.. دعيه لى وسأعرف الطريقة التى ألين بها رأسه !

قالت كأنما تروم أن تلقى الرعب فى قلبه :

- يبدو أنك على حق .. وأنه لم تعد لدينا حيلة أخرى .. إنى أتركه لك .. إفعل به ما تشاء ..!

وفى الحال تقدم الشاب خطوة للأمام ثم اسر فى أذن " الشغالة " بشيء فانصرفت لتوها .. وأصاب سامح مما سمع ومن تلك الحركة بعض الخوف .. وراح ينتظر وهو يرتعد الخطوة التالية وأغلق الشاب الباب خلف المرأة بالمفتاح ثم وضعه فى جيبيه .. فتركزت إضاءة المكان فى تلك الأضواء الصفراء التى يشعها هذا المصباح الكهربى فى السقف .. ولم يعد هناك أمل فى الهرب ايضا .. على حين خطت سارة على مهل نحو المكتب وجلست ثم

تناولت أشغال إبرتها ومضت تنتسج دون ان يبدو عليها أدنى اهتمام بما سيجرى هنا ..
حينئذ أيقن سامح أنه واقع – لابد – فى حبائل هذا الشاب المتعجرف النزق .. الذى أبدى
فى الأيام السالفة مجونا فى مداعباته لسارة لا يحتمل .. والذى دنا منه .. ثم أمره بفضافة :
- إخلع ثيابك ..!

وتقهقر سامح الى الواراء حتى اصطدم بالحائط .. وصرخ هلعاً :

- يا إلهى .. ماذا أنت فاعل ..؟

فأطلق الشاب ضحكة عابثة متهتكة .. وقال وعينه تبرقان :

- لاتخف .. سأفعل بك ما كان أبوك يفعله بأمك ..!

- يا إلهى .. الحقينى يا ...

- إخلع ..!

- ستفعل ذلك أمامها ؟

- إخلع يلعنك الله .. وإلا اضطررت إلى تمزيقه! عنك ..!

- رباه غفرانك .. غفرانك ..!

ولما بدا على سامح أنه لن يفعل ذلك راضيا بأي حال .. غرس الشاب فى لحمه الجاف
قبضة من برد .. ثم تولى بنفسه خلعه .. ولدهشته وحيرته لاحظ ان الصبى لا يغامر
بمحاولة إتيان أقل مقاومة .. وكأنه قد فوض أمره لخالقة فتركة ينتزع عنه ثيابه قطعة بعد
قطعة .. لأنه كان يخشى إن قاومة أن يحقق تهديده بتمزيقها .. وهذا وإن يكن أكرم للنفس
أن يتم الأمر بعد مقاومة يائسة .. إلا أنه أدرك بوعى تام أنه لن يجنى منها غير تمزيق
ثيابه التى لا يملك سواها .. فضلا عما سيحدث حتما من خسائر أخرى ..!.. فاختار ان
يخفف خسائرته الى أدنى درجة وأذعن له .. على حين كان يختلس الى المرأة نظرات
يتنازعها الشعور بالمهانة والتأنيب والتوعد ..

وبغلة أوقفت الشاب بإشارة من أطراف أناملها فامتثل ساكنا لايلوى على شيء .. بعد أن بلغ من خلع الثياب القطعة الأخيرة ينتظر أوامرها .. على حين قامت هى فى رصانة أخاذة ومقينة إلى خزانة الأدوية وراءها .. وتشاغلت فى إعداد إبرة حقن دقيقة أو نحوها .. ثم إستدارت بنفس الهرود بل الجمود وخطت نحوه وحقنته فى خفة وهى تتبسم لخنوعه الفجائى ولتلك النظرة التى يصعب تصويرها فى عينيه .. وفى لحظة شعر بدوار من نوع آخر يتلاعب برأسه .. دوار يمتزج فيه الألم ببعض الصور المريحة ! .. وما لبث أن غلبه النعاس .. وعندما إستيقظ وجد نفسه منسدحا على السرير وساره إلى جانبه ببسمتها الرصينة المقينة وأشغال إبرتها الأبدية ولا أثر للشباب العتل .. وتحير " ماذا حدث ؟ .. أكان حلما ماوقع .. ؟ أم أنه حقيقة أليمة ؟ .

- 22 -

مرة أخرى أجدنى مضطرا لأن أقول .. إن الكلمات تبدو غير كافية إطلاقا لتصوير شعور سامح الموزع بين الريبة واليقين .. بعد ان سمحوا له بارتداء ثيابة وبالاتصراف فى هذا المساء فهو شيء أكبر من الذهول والحيرة والقنوط والتوعد والغيط والرعب .. شيء يقصر الفكر عن تخيله إن لم يمر المرء بتجربة مماثلة! ولكن قد يكون فى الإمكان ان نضيف بحذر أن الشك إنزوى وانحسر فى النهاية لأسباب لا حصر لها .. أهمها رغبته الجارفة فى تأثيم أعدائه !.. الذين عمقوها بكبرياء وصلف وذكاء أفضل من الغباء .. لأنهم ظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا .. فلستولى عليه شعور بغيض بأن جسده بوجه ما من الوجوه لشدة حساسيته قد دنس .. وأنه أصبح لا يليق بروحه أن تسكن به .. وأن أقل شيء يفعلته للتخلص من شعوره .. هو أن يخلع عنه هذا الجسد ويرمى به فى البحر ليتطهر .. ثم يعود فيرتديه .. أو يبحث لروحه عن جسد آخر .. ولكن حتى إن استطاع ذلك وهو مستحيل .. فكيف يمكنه ان يمسح عن ذاكرة الشاب وسارة بنوع خاص .. ذكرى ما حدث .. هذا هو

المستحيل بعينه .. فهل يبكى وماذا يفيد البكاء؟ .. أم هل يصرخ هاتفا بسقوط الأوغاد
جميعا .. وماذا سينال الصراخ من علو الأوغاد الشاهق؟ .. وأذن لم يبق إلا أن يضحك ..
ليضحك .. يضحك من صميم فؤاده ساخرا من ملهاة الحياة .. ضحكة لم يضحكها قبلا ..
يضحك بمرح كئيب ..!

- ماذا تفعلون هنا يا اخوان ؟
- الا ترى ... نصلى ...
- تصلون لمن ؟
- أخرجوا هذا الوغد المجنون !
- لا عليك .. أردت فقط أن أضحك !

- سيدى .. ماذا تفعل ..؟
- أبيع ..
- تبيع ماذا ؟
- ألا ترى .. برتقال .
- ولماذا لا تبيع البلح ؟
- لأن موسم البلح قد إنتهى .
- وهذا البرتقال ما لونه ؟
- أصفر من الخارج طبعاً ..
- ومن الداخل .. أصفر أيضا .. أم أحمر دموى ؟
- أتمزح .. أغرب عن وجهى أيها الوغد المجنون ..
- لا عليك ... أردت فقط ان اضحكك ..!

- أين أنت ذاهبة يا سيدتى ؟
- الى مستوصف رعاية الطفل والامومة ..
- وأين هو الطفل ؟
- فى بطنى لم ألد بعد ..
- ولماذا هو ببطنك ؟
- اهذا سؤال ؟
- ولماذا هذا سؤال ؟
- اتسخر منى .. أبعدوا عنى هذا الوغد المجنون ..
- لا عليك .. اردت فقط ان اضحكك !..

- سيدى .. ماذا تحمل فى تلك الحقيبة ؟
- ساعة وجهاز ضغط الدم .. وبعض الحقن والادوية ..
- طبيب ..؟
- اجل ..
- كنت أظنك محاميا ..
- لماذا ؟
- ظننت لاول وهلة انك تحمل فى تلك الحقيبة ملفات وقضايا ..
- والآن ..؟
- أنت تقول أنك طبيب ..
- ولماذا تقول اننى اقول ؟
- لانك قلت !..

- أتمزح معى .. البك عنى ايها الوغد المجنون ..

- لا عليك .. اردت فقط ان اضحكك ..!

- سيدى .. لماذا تجرى ؟

- دعنى .. اريد ان الحق بالاتوبيس ..

- لماذا .. اين انت ذاهب ؟

- امى تحتضر .. اريد ان الحق بها حتى ترانى !

- ولماذا تراك ..؟

- اتهزل .. اذهب عنى والا رfstك فى بطنك ايها الوغد المجنون !

- لا عليك .. اردت فقط ان اضحكك !

- لماذا تمديدك هكذا ..؟!

- أشحد !

- ولماذا تشحد ؟

- لأننى لا أعمل ..

- ولماذا لا تعمل ..؟

- لان ذراعى الأيمن فقدته فى الحرب ..

- ولماذا فقدت ذراعك الأيمن فى الحرب ؟

- لاننى لم أفقده فى مكان آخر ..؟

- ولماذا لم تفقده فى مكان آخر ..؟

- نصيبى ..!

- ولماذا هو نصيبك ..؟

- أتضيع وقتى فى الثرثرة .. أبعد عنى ايها الوغد المجنون !

- لا عيك .. اردت فقط ان اضحك !

- فتاتى .. ما هذا الوجه الجميل .. لمن ..؟!!

- لحبيبى ...! انت ايضا تغازلنى يا صغيرى ..؟

- ولماذا لا يكون زوجك ..؟! اغازلك كيف ..؟

- سيكون طالما اريد .. تغازلنى كما تفعل الان ..!

- ولماذا لا يكون عشيقك ؟! وماذا فعلت ؟!

- لاننى رفضت .. ثم انت غازلتنى ..!

- ولماذا رفضت .. ولماذا تسمينه غزلا ؟

- حتى أتزوجه .. ولأنك وصفت وجهى بالجمال أسميه غزلا ..

- ولماذا تتزوجينه .. ولماذا لا تتزوجينه ..؟!

- أيهما تعنى الزواج أم السؤال ؟

- الزواج والسؤال .. او السؤال والزواج ..!

- أتَهْزِل ..!

- قولى إبتعد عنى ايها الوغد المجنون .. حتى أنصرف ..!

- حسنا .. ابتعد عنى ايها الوغد المجنون .. حتى تنصرف !

- لا عليك .. اردت فقط ان اضحك ..!

- أمى .. أمى .. أمى العزيزة .. لا لن ارتمى فى احضانك الليلة !.. انا اليوم قدر .. وانت

ايضا .. انت يلى امى .. يا للحسرة .. لا .. لا اريد طعاما .. انا وانت أكلنا من حفرة الغائط ..

كفانا ما أكلنا ...!.. كلا .. لا تنظري الى تلك النظرة البرئية ...!.. أنت لن تخدعيني بعد اليوم

بطهارتك يا عاهرة !.. آه .. معذرة .. أقصد يا عفيفة !..!.. يا أعف عاهرة .. يا أعهر عفيفة
!..!.. ماذا تستجيرين بالله .. مم ولم ..؟.. تقولين رحماك يا رب السموات السبع .. ومن
أدراك أنها سبع ؟.. يالها من كلمة معبرة حقا ! .. سأعاود أنا أيضا إستعمالها ! .. قد كنت
لبوة اليوم لأحد السباع !..!.. أما أنت .. أنت يا أمى .. آه .. اخبريني أين ذهبت .. وإلى أى
منطقة انحسر ثوبك ! .. هيه .. رباه .. تأخذك البغته .. تنشقين رأسا لقدم .. يصفر وجهك
كالليمون .. هيه .. لم لا ترتجفين أيضا ..؟.. أجل .. كما إرتجفت تلك الرجفة اللذيذة فى ..
آه .. الغيظ يقتلنى .. الخزى ينهشنى .. العار يجذب أنفى الى الطين .. يا إلهى .. ما هذه
الأحوال التى أغوص فيها برأسى !..!.. الطين يحتوينى من الداخل والخارج .. وفضلات
المجارى أيضا .. لن ارى الشمس بعد اليوم الشمس أيضا عاهرة !.. سأسبح فقط فى
مواشير المجارى ! ماذا .. ماذا ؟ .. رباة مرة أخرى .. قد جن ولدك الوحيد !..!.. كلا .. بل
انا العاقل وهم المجانين .. دعينى .. دعينى .. آه .. كم اتمنى لو استطعت أن أشق جسدى
إلى الذيل .. كما تفعل العذارى فى ليلة الزفاف .. او التكالى فى ليالى المآثم !.. آه.. أنظرى..
أنظرى البحر الجميل .. انظرى يا أمى كيف يترقرق الماء الطاهر !..!.. هيا بنا يا امى .. هيا
نستحم معا فى البحر .. هيا نخلع عنا أبداننا ونغسلها كما تغسل الملابس .. وبعد ذلك
ننشرها على حبل الغسيل لتجف .. ثم نرتديها بلاكى .. لأننا لا نملك أجر الكواء .. هيا لا
تخافى لن يرانا أحد فالليل ستار أربب !..!.. ماذا .. ماذا تقولين ؟.. لا يظهر الخطئية سوى
بحر من الدم .. او ماذا ؟.. الموت !..!.. بكل أسف يا أمى .. الدم شريان الحياة .. وزفير
الهجر .. الدم عرق الشمس .. هيا يا قصيرة الذيل .. حتى أنت يا أمى تفوح منك راحة
وعرق الليل أيضا ! الخطئية النتنة !.. قلت لك هيا معا نطالب بحقنا فى التطهر .. أنت
ممسحة كل البيوت ولا بد ان خطيئتك تفوق خطيئتى .. لا تريدين .. تودين الصراخ .. حسنا
لن يسمعك احد .. الصراخ لا يكفى .. البكاء لن يفيد .. لنضحك .. نضحك من صميم قلوبنا ..

نضحك سخرية من ملهاة الحياة .. ضحكة لم نضحكها قبلا .. نضحك بمرح كئيب .. " أنا ..
أنا " .. أم .. " أنا لست أنا " هذا هو السؤال ...!!..

- 23 -

أعقت حالة الإكتئاب المرح التي إكتنفت سامح في تلك الليلة .. حالة أخرى أمر وأدهى
وصحيح أنه في تلك الحالة الجديدة لم يكف عن الهذيان .. لكنه هذيان الغياب بعد الوعي
والذهول بعد الادراك .. التي كادت الام ان تنتشت لها لبا .. وهي ترى عقل ابنها الوطيد
ينهار من بعد قوة ويتخبط في الضباب من بعد نور .
وفي تلك الامسية التي رفض فيها احضانها وطعامها .. جلس الى نافذة غرفته ساكنا
السكون كله .. شاحبا شحوب الموت .. يحرق بعينين زائغتين في أمواج البحر التي تتلاطم
فضية تحت أضواء القمر .. وبين الحين والحين يحدث نفسه بخليط من الاقوال غير
المفهومة .. التي راحت الام تصيخ السمع اليها وتبكي وتنهنه في صمت وهي واقفة بالباب
ترقب أطواره هلعا والغريب أنه كان ينهى كل نوبة إلتياث بسؤال واحد كانما فيه سر علتة
هو " أنا .. أنل .. أم أنا لست أنا ..؟! " وفي كل مرة حاولت الام ان تلقيه في أحضانها وتؤكد
له قائلة " يا بنى الحبيب أنت أنت ! " كان يدفعها بعيدا عنه في نفور وهو يكاد ان يتقيأ ..
وكأن بها أو به قاذورات او ميكروبات لا يريد ان تنتقل من أحدهما الى الآخر .. وإبان ذلك
يتهته كالمعتوه " هل أنت نقية .. هل أنت جميلة ؟ .. إن كنت نقية وجميلة فأنا إذن لست
إبنك .. وان كان العكس فانت اذن لست امي ..!

- يا إلهي .. يا رب السموات ..!

- السبع .. هيه .. السبع يا .. اذهبى الى فراشك بعيدا عنى .. وارقدى على ظهرك !!
فتعود الام وهى ترتعد رعبا من المعنى الخبيث الذى حوته كلماته الضاربة فى الجنون ..
الى وقفاتها بالبواب وترسل اليه دموعها ونظرات اللوم ايضا ..
ثم بغته تتذكر شيئا هاما فتذهب الى المطبخ وتغيب بعض الوقت ثم تأوب حاملة طعاما ..
وتضعه أمامه على المكتب وهى تغمره بنظرات التوسل والضراعة ان يفعل خيرا ويتناول
ولو بضع لقيمات ان لم يكن من اجله فمن اجلها هى .. وعبثا تحاول .. فإنه آنذاك كان
يمعن فى جموده وشروده .. او يقول او يفعل شيئا يعيدها به ثانية الى الباب مجللة
بالشعور بالعار والرعب .

وأضت الليلة على تلك الحال .. ليلة سحقتها حتى العظام .. ووزعت فيها نفسها بين
الإنصات الى هذيانه وبين محاولات إغرائه لا بحنان صدرها .. فقد كان موبوءا بحساسية
خاصة نحو كل ما يمت للأجساد بصلة .. وإنما فقط طعامها إلى الذى توفرت على تسخينه
مرات عديدة وبين البكاء فى صمت مصبور .
ثم اشرقت الشمس فى صبيحة اليوم التالى .. وملأت اشعتها وحرارتها عينيه وهو جالس
عين الجلسة .. فنهض خارجا من الغرفة .. وسمعت امه حركة اقدمه وهى فى المطبخ تعد
له الطعام الذى لم يدخل معدته منه شىء منذ افطاره البارحة .. فهرعت خارجة والفته –
بكل الامل والدهشة والتوتر – قد تجاوز الردهة التى يطل عليها المطبخ الى راس الدرج ..
ولحقته به فى لهفة وسألته " أستخرج هكذا دون افطار ايضا ؟ " فلم يجبها وفى لحظة كان
قد هبط السلم وانفلت خارجا .. فوضعت يديها على عينيها وأنشجت تبكى محطمة لا تدرى
سر هذه المصيبة النكراء التى حطت على ابنها الوحيد .. اليتيم بينما كان هو يستقبل وجه
الشارع ويسير فى زحام الناس المتوجهين الى اعمالهم كما يسير النائم .. وخيل اليه عندما
أفاق لحظة من غيبوبته انه يرى عند إحدى اشارات المرور الوهاجة التى تجمعت امامها
السيارات فى انتظار الضوء الاخضر .. سيارة المهندس " الون " تقف فى مقدمة تلك

السيارات .. وانتقدت عناية .. ثم تساءل لكن من هذا الذى يقودها .. إنى أرى زى ضابط .. ومع ذلك يلوح لى انه يحمل وجه هذا المهندس .. فكيف ذلك ؟" واراد ان يستوثق من شخصية الرجل فهبط الافريز ثم خطا امام سرب السيارات على مهل غير عابىء بانها قد تنطلق فى ايه لحظة وتدهمه .. الى ان بلغ السيارة المقصودة .. فوقف اماما يحدق فى قائدها من خلف الزجاج الامامى .. " انه هو .. هو ! " وفى الحال اضىء الضوء الاخضر وانطلقت ابواق السيارات المنتظرة تزرق فيه .. وأيدى اصحابها تلوح له من النوافذ فى غضب وتنذره ان يبتعد والا اضطروا الى دعسه فهروا مبتعدا وهو ينظر خلفه فى رعب مكبوت .. ولا زال يسائل نفسه " انا انا .. ام انا لست انا ؟" ثم تأمل اندفاع السيارات برهة .. وواصل سيره النائم اليقظ .

كان يمشى على هذا النحو وبتلك المشاعر فى اتجاه المدرسة .. وسرعان ما بلغها .. ثم سرعان مادق الجرس والفى نفسه يساق الى الدخول الى فصله مدفوعا للامام بفعل الصدمات التى كان ينالها من التلاميذ فى اندفاعهم الى فصولهم .. ثم بعد لحظات سكنت الاصوات من حولة فعرف ان المدرس قد دخل .. وغاب عن نفسه برهة ثم إنتبه الى صوت المدرس يقول تلك العبارة :

- لقد تحصن الدروز فى قراهم لكثرة أعدائهم مما إضطرهـم الى الدفاع عن أنفسهم ضد

هجمات الاعداء..!

فتساءل فى نفسه :

- اعداء .. من هم الاعداء ؟..

ثم حلق فى وجه المعلم الذى كان يواصل الشرح دون توقف هنيهة رأى فيها على هذا الوجه خيالات وطيوف غريبة .. فضحك .. ثم صمت فجأة .. ولم يدر ما حدث بعد ذلك .. فقد يكون المدرس وقد ساءه ان يضحك احد التلاميذ مقاطعا اياه .. توقف متسائلا عن إجتراً وارتكب تلك الفعل الشنيعة .. وقد يكون التلاميذ لم يذكروا اسمه لديه حفاظا على حقوق

الزمالة .. فلما رأى المعلم ذلك عاد الى درسة مرجئا استطلاع الامر الى وقت آخر .. قد يكون .. لم يعرف سامح ذلك .. فقد انزلق الى إغمائه أفكاره مباشرة بعد ان صمت هذا الصمت المفاجيء ولم يشعر كذلك بأعين التلاميذ التي انشغلت عن متابعة الدرس بالنظر اليه .. وكان المدرس فى تلك الآونة قد رفع أمام أعين تلاميذه صورة كبيرة ملونة لآله زراعية حديثة .. مكتوب تحتها بخط عريض " الآلات الزراعية دخلت القرية العربية " وطالبهم بان يرددوا خلفه تلك العبارة فرددها بعضهم .. وتلعثم او تخلف البعض الآخر .. وفى اللحظة التى أدرك فيها المعلم سر إنشغالهم عنه افاق سامح ثانية على الاصوات التى رددت .. افاق بعنف ودهشة .. ثم ساد الصمت فاطلق ضحكة ثائرة .. وشعر بالمدرس يدنو منه ويسأله ما به ولماذا ضحك فدار بينهما الحوار التالى :

- سيدى المدرس .. ماذا تفعل ..؟
- الا ترى ..؟.. اشرح درسا فى العلوم الاجتماعية .
- تشرح درسا لمن .؟؟
- لكم ...
- ولماذا .
- هذا عملى .. أم أنك تشك فى ذلك ؟
- وهؤلاء التلاميذ .. ما عملهم ..؟!
- اهذا سؤال ؟
- لابل سؤال السؤال ..
- اتمرح .. تفضل بالخروج ..
- أخرج أين هذه مدرستى ؟!
- مدرستك .. أخرجوا هذا الوغد المجنون !
- لا عليك .. أريد فقط ان اضحك !

- تضحك ..!

قالها المدرس وهو يصفعه على وجهه .. ودن ان يفكر سامح فيما هو فاعله وجد نفسه يبصق الدم الذى إنبتق من عنف الصفحة التى إنغرست لها اسنانه فى شفتيه .. ودن ان يحترز وربما دون إرادته .. فى وجه هذا المدرس .. الذى تلوث بالدم .. واهتاج .. وفقد اعصابه فانهال عليه ضربا وهو يصرخ :

- المجنون .. المجنون .. المجنون ..!

ثم ما لبثت صرخته أن دوت فى أرجاء المدرسة .. فتوقفت الألسن وارتسم الفضول فى الأعين وتعطلت بهذا حركة التلقين والدرس .. وجاء مدير المدرسة يتساءل " ماذا حدث ؟ " .. ثم امر المدرسين فى الفصول الأخرى بمواصلة العمل .. فلبوا أمره وبدأ الأمر كأنه إنتهى .. وكان قد انتهى فعلا بالنسبة للجميع .. فيما عدا سامح الذى إصطحبه المدير الى مكتبة بعد ان تبادل مع المدرس الهائج بضع كلمات .. خيل الى سامح فيها ان المدرس يلوك شيئا عن جنونة البادى ويطالب بطرده من المدرسة .. وفى المكتب انهال عليه المدير بالاسئلة ليستنبطن دخيلته ويستوثق من توازن قواه العقلية فلكنت ردود سامح على أسئلته محيرة تماما .. ولا تخرج عن " لا أدري " " وقد يكون " وأنتم اعلم منى بما تريدونه لنا ! " و " ربما " مع ان الاسئلة كانت تقتضى اجابات محددة بنعم او لا .. ثم انه كان يضيف احيانا بعض الكلمات غير المفهومة التى تعبر عما يفور فى باطنه من إفعالات مثل " البحر جميل وظاهر ! " ومثل " ينبغى ان نستحم جميعا كل صباح فى ماء البحر قبل ان نخرج من بيوتنا ثم كل مساء قبل ان نعود اليها ! " ومثل " سأجعل الحديد البارد ساخنا .. لن افرط فى لحظة واحدة من وقت الدراسة ! " ومثل " كنت القى بنفسى فى أحضانها كل مساء .. لكنى لن افعل ذلك ثانيا لانها أعف عاهرة ! " ومثل " الشمس ايضا عاهرة ! " ومثل " كلا .. اننى افهمكم جميعا .. افهمكم اكثر مما افهم نفسى ! " مما اضطر المدير فى الحال الى استدعاء طبيب من الوحدة الصحية التى تتبعها المدرسة .. وجاء الطبيب ثم جس

نبضة وتسمع الى دقات قلبي ونظر في حلقة واذنية !.. ثم وجه اليه بدوره بعض الاسئلة الأكثر تحديدا وتخصصا .. ورغم ان إجابات سامح عليه لم تختلف كثيرا عن اجاباته السالفة للمدير .. فان الطبيب اوما براسه قائلا له فيما سمع :

- انت مرهق نفسيا !..

ثم التفت الى المدير واوجز النتيجة التي توصل اليها من فحوص بقوله :

- مجرد اضطراب عصبى .. يستحسن ان تعطوه اجازة لكي يهدأ .

ثم كتب قائمة بالدواء اللازم .. ودسها في جيب سامح .. وهو يربت على ظهره .. وخرج بصحبة المدير مودعا حتى الباب وهما يتساران بكلام لم يسمعه سامح .. الذى انتهز فرصة خلو الحجرة الا منه فلخرج الورقة الطبية من جيبه ثم القى عليها نظرة استخفاف واستياء ومزقها ثم رمى بها من النافذة وراح يتأمل الوريقات الممزقة وهى تطير فى الهواء ثم تهبط الى الارض .. الى ان عاد المدير وأمره بان يخرج حالا من المدرسة فهو فى إجازة مفتوحة من الآن حتى يبرأ من مرضه ..

" حينئذ يمكنك ان تأتى الينا لنفحصك ونرى ما اذا كنت صالحا لتلقى العلم "

ولم ينس المدير ان يزوده بنصحية غالية مؤداها أن يتفانى - تشجيعا لهم على الاستجابة لطلبة بانهاء إجازته - فى الذهاب الى تلك الاصلاحية " كيلا يضيع وقتك كله هباء وينحدر مستواك العلمى الرفيع .. اتفهم ..؟! " فاجابة سامح وهو يبتسم ساخرا ممرورا :

- افهمكم تماما يا سيدى المدير !..

ثم انصرف .. ولبت يتسكع فى الشوارع والحدائق الى ان غاب النهار او اوشك دون ان يفكر مجرد تفكير فى الذهاب الى تلك الاصلاحية اللعينة !

وحين قرر العودة الى البيت تناهى الى سمعه اثناء مرورة على إحدى الكنائس صوتا يجلجل فى أعماقه واعظا .. فادرك لطيته أن الصوت لقس قوى البنيان واستخلص تلك النتيجة من قوة الصوت الذى اخترق هديره الجدران السميقة للكنيسة وتجاوزها إلى

الشارع .. لكن لمن الصوت .. ؟ يخيل اليه انه سمعه كثيرا قبل الآن وانه يعرف صاحبه
معرفة كاملة .. وراح يتذكر ويتذكر .. آه .. انه هو .. هو بعينه ! " ثم إندفع يجرى داخلا
ويكاد فى اندفاعه ان يصطدم بالجدران الصلبة والأعمدة العالية .. واجتاز ممرات كثيرة
داخل الكنيسة الآمنة المشبعة بأضواء الثريات الهادئة .. المختلطة بأضواء زرقاء وحمراء
وصفراء .. تتسلل خافته من الخارج خلال الزجاج الملون العتيق للنوافذ التى تقبع قرب
السقوف .. لتلقى ظلها على النقوش الملونة التى تحكى أساطير الدين على الجدران العالية
.. الى أن بلغ المذبح .. ورأى وهو يخترق بعينه صفوف الرواد الواقفين فى خشوع
ينصتون ذلك المهندس .. أو الضابط .. أو القس " ألون " لا يدرى .. يقف على المنبر
بملابس الكهنوت الوقورة ويكاد صوته ان يشق حنجرتة وهو يلطم الجدران والآذان سابحا
فى تيار خطبته الدينية .. ولم يشعر به أحد .. ولسبب ما إرتعد وصرخ .. حينئذ تحولت
الأنظار كلها اليه ترمقه فى استنكار .. بما فى ذلك أنظار ذلك القس الذى قطع خطبته وتحفز
لسؤال الفتى عما يريد وما يقصده بهجومه هذا .. بيد ان هذا الاخير عاجلة صائحا وهو
يلوح فى وجهه بقبضة يده فى شبه إحتجاج او تقرير .. كما لو كان لا يعى شيئا :
- فى الصباح ضابط .. وفى المساء قس .. وبالأمس مهندس إنشاءات !.. ما معنى هذا ؟ ..
إحتيال ..؟.. انت يا سيدى محتال .. محتال !
وكانت مفاجأة ألجمت لها الألسن واستدارت الأعين ذهولا واستهجانا من هذا الصبى الوقح
المجترى .. ومضت برهة سكون رهيبة .. لم تختلج فيها عضلة ولم ينطق لسان .. وكأن
إنفجارا مروعا قد وقع وحبس الأنفاس وأحال الوجوه الى رخام !.. ثم ما لبث ان استفاق
الجميع فى توقيت واحد وتصايحت أصوات محمومة :
- امسكوا هذا الوغد .. اقبضوا على هذا المجنون !.. بالأمس هاجم معبدا آخر !.. لا تدعوه
يفلت .. سنحطم رأسه !.. المجنون .. المخبول .. المجنون !..

كان سامح يقف تلك اللحظة خلف الجميع على مقربة من الباب فأسرع يهرب بجملده ..
ولاحقته اقدام كثيرة يتصايح اصحابها ويتخبطون فى مؤخرات بعضهم البعض .. وهو
يجرى كالأعمى بين الممرات التى لم يكن يعرف الى ماذا تؤدى .. فالممر يسلمه الى ممر
آخر .. وكأنها شبكة لا نهائية ستنتهى حتما باصطياده .. ولسوء طالع .. إستطاع وهو
يعدو تمييز صوت المعلم الذى اشتبك معه فى الصباح .. فقد كان اكثر الأصوات حقدا وغلا
.. وأمعنهم ايضا فى نعته بمختلف اوصاف الخبال والجنون .. فانتابه رعب لا يوصف
وأيقن انه لا محالة هالك .. ثم خيل اليه ان فؤاده قد توقف عن النبض حين الفى نفسه فجأة
فى مواجهة حائط لا منفذ فيه .. فصرخ :

- الحقينى يا امى ..!

ثم دارت راسه وهو يلتفت خلفه ليرى الوجوه التى تكشر عن نواجزها وانيابها قد دنت منه
.. وايقن انها بعد ثوان قليلة ستغرس فى لحمه .. ففقد قدرته على التنفس واستسلم
للاغماء .

- 24 -

يا إلهى ما معنى هذا .. ماذا حدث له ؟ .. انه ولا شك لم يتأمل المكان من حوله جيدا .. فترك
الغرفة المستديرة الاركان ليست بالقطع غرفته .. وهذا الفراش الصغير ذو الملاءات
البيضاء .. ليس فراشه .. وتلك النافذة المفتوحة ذات الستائر المسدلة ليست نافذته .. اذن
ماذا ؟ .. اىكون قد اخطأ التفكير والتدبير فخلق لنفسه بعض المتاعب الهينة ؟! .. آه .. انه
يتذكر الان كل شىء .. الوحوش كادوا ان يقتلوه رعبا إنه اذن فى غرفة بمستشفى .. ولكن
.. ها هو ذا يقوم من الفراش سليما معافى ليس به خدش واحد .. فما معنى وجوده هنا ؟
وما نوع المرضى الذين يستقبلهم هذا المستشفى بالضبط ؟ أهو مستشفى الأصحاء ؟! .. ثم
كم من الوقت إنقضى عليه فى تلك الغرفة الضيقة .. آه .. ها هى مركبة الشمس الذهبية ..

تشق طريقها فى بحر السماء الأزرق .. انه يراها من خلال تلك الانفراجة الضئيلة بين الستائر التى لم يحكم إغلاقها .. واذن فهو فى اليوم التالى .. رباه .. معنى هذا أنه أمضى الليل هنا بعيدا عن بيته وامه التى لا تطيق بعده لحظة .. يا ترى من يدري حالها الان ؟ كن معها يارب .. قد اخطأ الظن بها ولا بد انها قضت ليلة كأنها قطعة من الجحيم .. تفأثو فى مختلف الخطوب الفظيعة التى قد .. أه .. ماذا يسمع ..؟ .. صراخ وصياح .. ودبيب اقدام تجرى متسارعة فى اضطراب .. خارج الحجرة .. ليخرج ويعرف علة الأمر .. ما هذا ؟ .. كهل فى ملابس بيضاء يجرى فى الطرقات ويقهقه فى جنون .. على حين يتجرع شيئا من زجاجة وأطباء وممرضوا المستشفى يجرون وراءه ويختطفون الزجاجة من فمه .. لماذا .. أهى زجاجة سم .. هل أراد أن ينتحر يأسا من المرضى ..؟ ..

- سيدتى او آنستى .. معذرة لا أدري .. لماذا يريد هذا الرجل التخلص من حياته ؟

- ادخل غرفتك انت لا شان لك .. انه خليل عبد النور .. سارق الكحول الشهير !

- ولماذا يسرق الكحول ..؟

- ليشربة طبعاً ..

- لماذا .. أهو مجنون ..؟

- هذا السؤال ينبغى ان تسأله لنفسك .. كفى ثرثرة معى .. ادخل غرفتك حالا ..!

قالت له " يسأل هذا السؤال لنفسه " حين سألها " أهو مجنون " " ماذا قصدت وما

معنى ؟ .. أه .. رباه .. ماذا يسمع ثنية ؟ .. صراخ وعويل فى ناحية أخرى يجاوبة ضحك

وقهقهة وأقدام تجرى فى إتجاه الأصوات الهستيرية التى لا يدري ان كانت تشكو او تتألم

او تندب حظها فى الحياة .. انه فى الحقيقة لا يفهم معنى هذا .. ا يكون هذا مستشفى

للمجانين ؟! .. وان كان حقا فما موقفه هو من هذا الجنون .. ما موقعة هنا بالضبط ..؟ .. انه

يعرف بداهة .. ان اى مستشفى يحتوى على نوعين من البشر .. المرضى والأطباء

ومساعدتهم .. وهو يعلم انه ليس طبيبيا ولا مساعدا .. اذن فهو مريض .. مريض ..؟.. من قال هذا ..؟.. ومريض بماذا ..؟.. ب.. آه .. الحقيه يا أمه ...!

- سيدتى او آنستى .. معذرة .. لا أدري ..!

- ماذا تريد مرة ثانية .. ؟ .. هيه .. تبغى تضييع وقتى فى الثرثرة ..!

- أين انا ..؟..

- هىء ..!.. فى مستشفى العقلاء يا عزيز عينى ..!

- العقلاء .. آه .. مستحيل .. أحلم .. كابوس .. أمى .. أين أنت يا أمى ؟!

- أمسكوا هذا الفتى .. إنه يهرب ..!

- أمسكوه .. أمسكوه ..!

يا للسماء .. ها هم يجرون وراءه ايضا .. كما لو كان مجنونا بحق .. ليقف ويناقشهم الامر

.. ليحدثهم عن أمه وبيته ومدرسته .. أحبائه الاقربون .. ادلة وجوده ورمز حضارته

ووعيه .. يجرى هكذا .. فيظنون أن إحدى هيجات الجنون قد أذهبت عقله فيقبضون عليه

.. ويكشفون عن مؤخرته ويحقنونها بعقار مهدىء او مخدر او منوم .. فيرى الجميع

بياضها .. كلا .. ليقف ويناقشهم الأمر

- سادتى .. سيداتى .. أنا سامح امين مطر .. التلميذ الأول بالمدرسة الابتدائية .. وأمى

تعمل خادمة لديكم فى البيوت .. إن كنت لا تعرفون !

- إهدأ ..!

- قلت لكن انا .. يا الهى .. ماذا تفعلون .. كلا .. دعوا ثوبى وشأنه .. لن اسمح لكم بهذا

ثانية .. ساقتل من يقترب منى !

- إهدأ أحسن لك ..!

ماذا ..؟.. تمكنوا من السيطرة عليه .. شلوا حركته .. يجرون الثوب عن مؤخرته .. آه .. ها

قد فعلوها أعين الرجال والإناث تحملق فى بياضها !.. لماذا .. لماذا .. يصرون على

معاملته تلك المعاملة المهينة وهو لم يفعل شيئا غير إفناء نفسه فى حب أمه وبيته
ومدرسته .. آه .. يدفعون تلك الابرّة الغليظة فى لحم مؤخرته .. رباه .. يالآلم .. يا للحسرة
والخجل ..

- قلت لكم انا سامح امين مطر ..

- اهدا يا قصير الذيل ..!

الذيل .. هيه .. الذيل الذى فى المؤخرة ...!.. اذن فهذا هو الامر المقصود .. إنهم يحاولون
هنا .. تركيب الذيل الذى فشلوا فى تركيبه هناك بالاصلاحية .. فهل هذا ثمن الحياة بينهم
؟!.. أهى ضريبة يدفعها لمكاسب نبوغه ؟ .. الذيل والطرق على الحديد البارد ومنحهم حجة
ملكية البيت على سبيل التعبير عن الثقة العمياء ! وأن يكون هو أو أمه أو كلاهما معا لبؤه
لأحد السباع .. ثم عليهما ان يأكلا من حفرة الغائط .. ويناما على الطين .. ويستحما فى
مياة المجارى ..!.. ثم ماذا .. ثم ماذا ؟ .. سحابة سوداء تغشى عينية .. ماذا فعلوا به .. إن
جسده يتراخى .. الوجوه والجدران تدور من حوله .. لم يعد يرى شيئا انه يدخل فى مملكة
الظلام ..

- آه ..!

مرة أخرى .. الغرفة المستديرة الأركان .. والفرّاش الأبيض .. والنافذة غير المحكم إسدال
ستائرهما .. ثم ماذا ..؟!.. قرص الشمس الأحمر ينفذ أجفان الكرى ..!.. معنى هذا أنها قد
تقهقرت الى مهد الشروق بعد ان كانت تشق بعربتها الذهبية صدر السماء الازرق شقا
..!.. أم .. أم ماذا ؟ .. اتكون شمس اليوم التالى .. رباه .. ونام كل هذا الوقت .. ثم ماذا
يشعر ..؟!.. وماذا يسمع ؟ .. الصراخ ثانية .. الاقدام التى تجرى عبد النور سارق الكحول
الشهير مرة اخرى .. ان هذا .. آه .. ان هذا .. يا الهى .. ينبغى ان يبارح هذا المكان
المخيف باقصى سرعة .. ينبغى ان تأتى امه لتأخذه او يهرب ..!.. يهرب .. كيف ؟.. لينظر

من النافذة ويقف منها على إمكانيات الهرب .. حسن .. ها هي حديقة عرى جسد أشجارها
سبع الشتاء هو ايضا !.. ثم ها هو سياج حجرى مرتفع ينحنى ويلتف ليحيط بالحديقة
والمبنى إحاطة تامة .. لكن .. لماذا هو أملس ..؟.. ولماذا هو شاهق العلو هكذا كأسوار
السجون ..؟!.. ثم ها هي بوابة حديدية ضخمة متشابكة القضبان .. وها هي غرفة صغيرة
الى جوارها .. وها هو ال.. ماذا يرى ..؟.. انه ليس بوابا .. انه شرطى يحمل بندقية .. اذن
فلا مهرب .. قد احكموا سد المنافذ فى وجهه .. ومن يدري .. قد يقضى هنا بقية عمره ..
فلا يكون مهندسا ولا محاميا ولا طبيبا .. ولا يكون شيئا ابدا .. وقد لا يرى وجه امه
الحبيب ثانية .. يا ترى كيف حالها الان ..؟.. وهل عرفت ما انتهى اليه مصيره .. أم مازالت
فى عماية الجهل المؤلمة تعمه ..؟!.. من له بها يراها وتراه وتمنحه أحضانها فيأخذ فهذا
مستشفى لذوى العقول الذاهبة .. وعقله هو .. هل ذهب ؟.. الى اين وما زال يشعر معه عتيا
فى رأسه ؟ ثم ماذا لو أقنعهم بهذا ؟ إنه يستطيع ولكن هل لهم آذان تسمع ؟. او بمعنى آخر
.. هل لديهم الاستعداد الكافى لتفهمة ؟!.. قد يكون نعم .. وقد يكون لا .. وقد يكون لا نعم
ولا لا ..؟!.. ولكن .. ليحاول .. ليحاول ..
- ايها السيد .. اين مدير المستشفى ؟!
-
- ايتها السيدة .. اين مدير المستشفى ؟!
-
- ايها الاوغاد تدعون الصمم .. انت يا سيدتى او انستى .. معذرة .. لا ادري ..!
- ماذا تريد يا فتى ؟.. انك تعطلنى ..
- اعطلك عن ماذا ؟
- عن خدمة المرضى ..!
- وانا .. الست احد المرضى .. آه .. هذا اكتشاف مفرح .. انتم اذن لا تعتبروننى مريضا و..

هكذا .. ها هو يقترب منكما .. ثم ها هي تلمحة وتجهش بالبكاء فرحا لمرآه .. وتمد يديها الحبيبتين من خلال قضبان البوابة الحديدية .. ثم تتلقفانه .. وتحاولان جذبها إليها .. وها هو يحيط ظهرها بذراعيه .. ثم ها هو الحديد القاسى يحشر نفسه بينهما .. ويصر على منع صديهما من أن يتلامسا .. وأدفعهما من أن تمتزجا وكأن هذا عمله الوحيد يا الهى !..

- امى .. امى .. حمدا لله لاننى رأيتك مرة اخرى ..

- ولدى الحبيب .. ولدى الحبيب المعذب !..

- كفى هذا !..

- ايها الشرطى .. لحظة واحدة .. اليس عندك قلب ..؟!..

- قلت كفى هذا !..

- دعنى .. دعنى !..

- ايها الشرطى الطيب .. إمنحنا دقيقة واحدة أخرى .. عندى لك هدية .. خذ !..

- ولكن انا لا أقبل الرشوة !

- قلت لك خذ .. إنها هدية وليست رشوة !..

- ليكن .. من أجل خاطرك يا سيدتى فقط ..

- شكرا لك .. يا الهى .. شكرا لك ..

25

ثم مرت ايام ثلاثة بعد ذلك .. قضاها جالسا امام النافذة يترقب بصبر ولهفة لحظة ظهور أمه المأمول ثانية عند البوابة الخارجية .. ليتحقق لهما فى غفلة من أعين إدارة المستشفى لقاء جديد .. لكنها - لأسف سامح و ألهه - لم تحضر .. وكأنها آثرت الانتظار الى يوم الزيارة الاسبوعى كيلا تحمل نفسها او تحمله مشقة مثل هذه اللقاءات الناقصة .. التى لا

تروى الظماً ولا تتركهما على حالهما .. بل تزيد لهفتها إلتهابا او ربما لأنها لم تجد هدية أخرى تنفج بها الشرطى فاحتمال ذلك اكبر .

وفى خلال تلك الايام ايضا .. اتفق له فى لحظات اليقظة التى سمحوا له بها والتى كان يقضى معظمها مطلا من النافذة أن يتعرف على شخصية الكهل سارق الكحول " الشهير " من صيدلية المستشفى .. فوجده رجلا يائسا للغاية .. لا يستقر له حال .. ولا يكاد المرء أن يضع فى ذهنة فكرة محددة عنه حتى تتغير الى نقيضها تماما .. فهو آنا عابس .. مذهوب العقل .. لا يتبادل مع أحد كلمة واحدة .. ومنشرح الصدر حلضر البديهة .. ثرثار آنا اخر .. ولاحظ سامح ان حالة الإ نشراح تلك لا تواتيه الا اذا نجح فى سرقة بعض القطرات من الحكول الابيض وشربها .. حينئذ كان يمكن الرجل أن يداعبه ويربت على ظهره ويغمره بنظرات حانية طيبة غاية الطيبة .. ولذلك تعلم ألا يبحث عنه حين يشعر بافتق اده .. وما أكثر ما كان يشعر .. إلا بعد ان يعرف انهم قد طاردوه فى ردهات المستشفى وممراتها بعد سرقة إحدى الزجاجات لانتزاعها من قبضة يديه قبل ان يأتى عليها .. آنذاك كان يبلرح غرفته ويغيب لحظات ثم يعود مسطحبا إياه لينعم بالراحة التى كان يستشعرها بقربه كلما أطل الكهل عليه بتلك النظرات التى تبلغ إستكانتها حد إثارة الإشفاق فى نفس من يراها .. والتى ابكت سامحا نفسه غير ذات مرة .. متضائلا أمام قهتها الرقيقة التى كانت تنفذ الى اعماقه فتتنظفها مما علق بها من أدران القنوط والكآبه .. بل تغسل روحه غسلا .. وهكذا وجد فى رفقة هذا الرجل بعض العزاء لنفسه .. فقد هونت عليه أمورا كثيرة وروضته على قبول فكرة البقاء بالمستشفى فلم يعد يفكر فى المطالبة بمقابلة المدير .. بل واستسلم لجرعات الادوية التى كانوا يصبونها فى جوفه أ و أوردته .. إستسلم عن رضى .. لأنها كانت تسلمه الى نوم عميق .. او تظمن خواطرة وتمتص طاقة إنفعالاته الباطنة التى كانت تلهب دمه توترا من إنتظار أمه .

ثم جاء يوم الزيارة .. وتكالبت جموع الزائرين على البوابة الخارجية واحتشدت .. وأطلت رؤوس المرضى من النوافذ .. فى انتظار اللحظة الى تنفتح فيها البوابة .. وما هى إلا دقائق حتى إندفعت أمه داخله غرفته تسبقها فاكهتها وحلواها .. فاستقر فى احضانها أخيرا .. أخيرا يا أمى؟! وكانت ساعات او لحظات سعيدة هائلة .. وزعت الام فيها نفسها بين تقشير البرتقال والموز او فض أغلفة " السلوفان " عن الحلوى .. وبين إغتراف النظرات من وجهه الحبيب وبين إهالة دفء صدرها عليه .. ووزع فيها نفسه هو بين الإستسلام لكل هذا .. وبين التفكير فى اليوم المنشود الذى يغادر فيه تلك المستشفى ويعود الى بيته ومدرسته .. ثم انهما لم يكونا وحدهما كل الوقت .. إذ ولج الغرفة عليهما صديق الكهل .. وكان يبدو عليه انه أخفق هذا الصباح فى استلاب قطرة كحول واحدة .. مما أهاب بسامح أن يسرع عليه من خيرات أمه ما يعوضه عن شعوره بالظما الكحولى .. فراح يتودد اليه بكرم فائق الى أن فض عبوسه وبدأت تلك النظرة العميقة الطيبة الآسرة تأخذ مكانها فى عينيه .. وكانت سعادة سامح بذلك لا تعادلها .. إلا سعادته بقرب أمه .. فمضى ثلاثتهم يتجاذبون أهداب الحديث الذى احتفظ الرجل لنفسه بنصيب الأسد فيه .. موجها إهتمامه الى الأم معظم الوقت .. وهذا وإن يكن قد أثار غيرة سامح قليلا .. بيد انه لسبب ما شعر بالرضى عنه وعن أمه وعن المستشفى وعن كل شىء .. وشعر بالرتاء للرجل ايضا .. لأنه على ما بدا له من إنفاق وقت الزيارة كله معهم .. لم يسعد بزيارة أحد ذوى قلبه .. وفكر لحظة أن يسأله عن ذلك .. لكنه تردد وابتلع سؤاله مخافة أن يجرح شعوره أو يوقد أوار آلامه .. التى قد تكون جذوتها قد إنطفأت تحت الرماد منذ زمن بعيد .. او على الأقل تحولت الى جمرة تحت هذا الرماد .. ولا يدرى كيف خامره إحساس قوى بأن سعادة أمه مجرد قشرة على السطح تتقلقل تحتها هموم تنقل فؤادها الا انها لا تظهر ذلك له .. وعرج بذهنه الى هؤلاء الرجال الذين يحتفظون بمفاتيح لكل البيوت فتوهم شيئا أفسد عليه سعادته وغبطته قرب إنتهاء وقت الزيارة .. وفى اللحظة التى قرر فيها ان يصارحها بحقيقة

شعوره رنت أجراس تعلن الزائرين بالإصراف .. فتعالت أصوات الوداع و آمال اللقاء
مختلطة بدبيب الاقدام .. وتحول هدوء المستشفى الى جلبة تماثل الى حد كبير تلك التى
تحدث على أ رصفة القطارات .. وتكأ عمال ال مستشفى وممرضوها على الحجرات
والعنابر لحت المتبطلين على الذهاب .. وكانت أمه آخر من خرج من المستشفى إ ذ رأى
الشرطى يغلق البوابة وراءها وهو يطل عليها مودعا بدموع ه من النافذة .. وأثناء ذلك
يفكر فى تهيب أنه سيتحتم عليه ان ينتظر أسبوعا كاملا قبل ان يرى ويلمس تلك الام ..
فضلا عن الخوف الذى ملأ قلبه عليها .. أن تتعرض أو تكون قد تعرضت فعلا لمضايقات
جماعة الإصلاحية؟؟

ثم كانت الأيام والليالى التى تلت ذلك طويلة .. طويلة .. على نفسه .. ومشحونة بالقلق
والهواجس والمخاوف الطاحنة .. فقد تضخم لديه إحساس المبهمة بلن هناك من يطارد أمه
حتما ..
لماذا؟؟

كان من اليسير عليه إختلاق آلاف الأسباب الوجيهة لذلك .. فهناك "حجة البيت" .. وهناك
شرفها .. وهناك أمنية إلتئام شملهما مرة ثانية .. وهى أمنية قد يساومونها عليها .. فتدفع
الثنم الغالى الذى أبى ان يدفعه وإن كان الآن يعانى من تكاليف صموده لهم .. لكنه يعتبر
نفسه لم يهزم وأنهم لم يفقدوه شيئا اللهم إلا الإنتظام فى الدراسة .. التى كان يؤلمه التفكير
فيها كثيرا .. بيد انه لم يصعب عليه الوصول الى حل .. حين قرر أن يفتح أمه فى هذا
الأمر فى الزيارة القادمة ويطلب إليها أن تحمل كتبه ومذكراته إ ليه .. ولو اضطرت الى
التنازل تلك المرة عن حمل الفاكهة والحلوى ..! - إن وجدت صعوبة فى حمله م اسويا-
ولهذا راح يتعجل أيام الأسبوع أن تنقضى الى غير رجعه - هو غير آسف عليها - فيراها
أولا .. ويفاتها فى أمر كتبه ثانيا .. ثم يسألها هذا السؤال الذى ضاعت عليه فرصة
سؤالها اياه فى نهاية الزيارة السالفة .. ولكن من أدراه أنها لن تخفى عليه الحقيقة تبديد ا

لمخاوفه كما كان يفعل معها هو نفسه حينما وضعت الظروف منه النفس الموضع ؟!..

سؤال ضاعف من حدة إنفعالاته وجعله عصبلي تلك الأيام بصورة اضطرت القائمين على طبيبه الى مضاعفة جرعات الأدوية المطمئنة والمخدرة والمنومة التي ألقى بوعيه في حالة غياب مستمر تقريبا .. فلم يكن يكاد يفيق ويصرخ أو يبدي سلوكا من قبيل الإ هتياج وفقد التوازن .. حتى يهرعون اليه لحقنة .. وكان من نتيجة ذلك أمران – أحلاهما مر – أولهما أنه لم يعد يرى الكهل العجوز او يسمع عنه الا فيما ندر .. وثانيهما إ هلاك الأيام والليالي .. فلم يعد يشعر بمرورها وبثقل وطأتها على صدره .. الأمر الذي عجل بطرق يوم الزيارة لبابه آتيا بأمه .. التي أفلها تدخل عليه – لفرحته ودهشته – محملة بالفواكة والحلوى وبكتبه وكراساته أيضا .. وكانهما كان يتبادلان نفس الخواطر على بعد المسافة بينهما .. مما جعله ينسى كل شيء .. إلا غبطته بهذا التوارد لخواطرهما .. الذي إن يدل على شيء فعلى أنهما مهما فرقوا بينهما فليهما معا دائما بروحيهما .. وعلى قدر ما أسعده هذا الأمر .. على قدر ما اغتم له بعد إنصرافها ناسيا ان يكشفها بما يعتل في صدره من مخاوف عليها لانه إن كان حقا أنهما يتخاطبان على البعد .. وتزور روح أحدهما روح الآخر .. فليق هذا معناه ان تلك المخاوف في محلها تماما !!

وهكذا كتب له ان يعاني في الاسبوع التالي عين ما عاناه في الاسبوع السابق .. وبصورة أشد .. لأنه أضيفت الى آلامه شعور قارع بالذنب مزقه حين اكتشف ان جرعات الدواء لا تتيح له اليقظة الكافية للتركيز على القراءة والمطالعة ..

ومع ان الحل كان هينا ويتطلب منه مجرد رجاء القائمين على إذهاب وعيه – بدعوى العلاج – ليلعدوا بين مواعيد الحقن .. فلينه لم يفعل .. لانه هذا كان معناه أن يرسف في أغلال الهواجس وتباريح التشوف لرؤيا امه .. تلك التي كان سيصيبه الفشل الذريع إن حاول التحلل منها ..

ولهذا استسلم وكانت لحظات إنتباهه ويقظته مريعة لا تحتمل .. اذ كانت تقع عيناه مباشرة بمجرد إستفاقة على منظر الكتب التى وضعتها أمه الى جانبه فوق خزانة صغيرة .. فلم تتحرك من ساعتها .. حينئذ كان يراها كالجثث .. وكان لا يفكر فى إ خفائها عن ناظره .. رغم وجاهة هذا الحل .. وذلك لئلا تتحرك عن الموضع العزيز الذى وضعتها فيه أمه بيديها الحبيبتين !

ولهذا كله كان يسرع بالفرار عارضا نفسه عليهم بنفسه ليحققه .. قبل أن يدوى بالصراخ أو يؤتى عملا طائشا يؤذى به نفسه أو غيره .

وذات مرة أفاق من غيبته فر أى الكتب غير موجودة فى مكانها فارتعد وارتعب وتعالى صراخه وعجيجه .. وجاءوا اليه يتعشرون حاملين جرعة الدواء .. فتم لص منهم وراح يجرى فى أرجاء الغرفة ويتصايح " أين ذهبتم بالكتب " فعرف أن إحدى الممرضات قد ألقت بها تحت سريره .. بحجة أنها كانت تزحم سطح الخزانة الصغيرة بلا فائدة .. ولحسن الحظ .. لم تكن تلك الممرضة حاضرة فى تلك اللحظة .. وإنما سمع ذلك من ممرضة أخرى .. وإلا فلله كان سينفجر فيها بطريقة تعطيهم دليلا دامغا على جنونه البين !.. وطفق يجمع الكتب من تحت السرير ويحاول تذكر الترتيب الذى تركتها عليه " سيدة الحبايب " ! .. وعندما تم له ذلك على خير وجه .. هدأت ثائرتة وأعطاهم مؤخرته وهو يتعجلهم ان يحققوه بسرعة حتى يدخل ضربة النسيان التى كانت تصنع منه أسيرا فى غمضه عين .

وفى الزيارة التالية .. أتت أمه فاستطاع ان يلوح لاول وهلة بإحساسه المرهف نحوها .. أنها كابدت خلال الاسبوع الفائت آلاما شديدة .. وفضلا عن أن الفواكهة والحلوى لم تكن فى مثل جودة وحجم الزيارات السالفة فإنه قرأ أيضا فى نظرة عينيها التى كانت تحاول أن تنهضهما من كبوتهما لتضىء لأجله .. ومن هذا الإ رهاق الشديد الذى رسم خطوطه الزرقاء الكليلة حول تلك العينين وألقى ظلا شاحبا على وجهها الذى برزت نتوءات عظامة

بغته .. والتي كانت تحاول أن تداريه عنه برسم إشركة مغتصبة عليه .. فلم تنجح إلا فى جعله أكثر إرهابا وإثارة للشفقة والمخاوف ..

ومر هذا اللقاء دون ان تقول هى شيئا يفصح عما ألم بها .. ودون أن يلحف هو فى سؤالها .. لانه كان يعلم انها لن تكون صريحة معه مهما ألحف فى السؤال ولعل العدوى إنتقلت الى الكهل العجوز الذى ألف أن يقضى أوقات الزيارة كلها معها .. إذ بدا لعينى سامح أ قل احتفالا بها .. وأقل ثرثرة أيضا .. وكأن روحه هو الآخر بدأت تعرف طريقها الى روح ها .. فعلم ما يدور بسريرتها و .. إنقضى أسبوع آخر ليس أفضل من سابقه .. وسعت أمه لزيارته دون فواكه او حلوى تلك المرة .. وأشد هزالا وانغلاقا على أعماقها رغم ما كانت تحاول جاهدة أن تبديه من مرح بانس أفضل منه الكآبه !.. كما أن الكهل فى تلك الزيارة لم يتفوه بكلمة واحدة .. وإن كان قد احتفظ فى عينيه بتلك النظرة الى احبها سامح كثيرا . كانت الأم إبان تلك الزيارة تسترق الى سامح - فى غفلة منه - نظرات نهمه جزعة يائسة .. كأنما تراه لآخر مرة .

ثم أنها كانت تسرع بتغيير معانى الإنفعالات الباطنة التى تدل عليها تلك النظرات المختلطة منه .. دون ان تغض من بصرها .. كلما وجه اليها نظراته لئلا يرتاب فى أ مرها ويصبح أمر إقناعه بأنه لا شىء أكثر من أ حزانها الطبيعية المعتادة ل ما آل إليه حاله .. معضلة تحتاج لفك عقدها الى حذق شديد لا يتوافر لها - وهى بهذا الإجهاد - مهما استعانت بقوى النفس غير المحدودة على قوى الجسد الواهنة .. ورغم حرصها التام على ذلك .. فلن سامحا أو شك أن يقرأ قنوطها وعذابها حين ت أخرت ثانية واحدة فى إحدى المرات عن تحويل تلك المعانى فى عينيها الى رقيضها المخادع .. فدهمها بنظرات التساؤل والفضول .. ولم تجد شيئا تشتت به أفكاره .. إلا تصريحها المفاجيء له بأنها تذكرت إسم الشخص الذى بنى بيتها فاذا هو يدعى " نور الدين الظواهرى !"

صرحت بهذا الاسم .. ربما قبل الميعاد .. لأنها كانت تحتفظ به لوقت آخر تبدو فيه الأمور أكثر تعقيدا .. فإذا بوجه سامح يضيء كله ويبتسم ابتسامه عريضة لئلا .. أبهجتها وفصلتها عن مرارة الواقع بضع لحظات .. وبدا لها كأنه لم يكن يتوقع منها ان تتذكر هذا الاسم الغالى فى هذا الوقت بالذات .

وفى خلال الحديث الذى إنطلق فيه م عبرا عن سعادته بتذكره ا .. والذى غير من وطأة الإنقباض والكآبه اللذين كانا يخيمان على جو الزيارة – فابتسم الكهل ايضا – إختلست اليه نظرة سريعة حذرة ومسبثرة .. كما لو أن كل معانيها تقول " هذه آخر مرة أراك فيها سعيدا يا بنى !"

ولم ير هو تلك النظرة لأنه كان مندفعاً فى حديثه الشجى .. لكن .. يبدو ان الكهل لاحظها .. إذ أشاح بوجهه بعيدا .. لكننا أراد أن يخفى بتلك الحركة دموعاً نفرت من عينيه على الرغم منه .. وربما أدركت الأم سره .. إذ ضغطت على يده منتبهة فرصة وجه فيها سامح نظرة عابرة الى النافذة إبلن حديثه الطويل الذى لم يكن قد انتهى منه حتى تلك اللحظة .. ضغطة أو ما لها العجوز برأسه متفهما .. فحبس مدامعه .. وأقعد نظرتة العطوفة فى عينية مرة أخرى ..

ثم حان موعد الإنصراف سريعا .. بعد ان أصبح متعذرا على الأم أن تبقى لحظة اخرى .. فقد رنت الاجراس منذ دقائق .. ودخل أحد الممرضين وزجرها .. ثم خرج لعمل آخر مفهما إياها أنه سيعود بعد دقيقة واحدة ليرى إن كانت قد ذهبت .. فقامت الأم متناقلة وتذودت منه بنظرة طويلة متراخية .. ثم عانقته عناقا لم ينتشلها منه إلا صوت الممرض حين عاد تسبقه شتائمه ..!

وعلى الفور هرعت الام خارجة وهى تنظر اليه وتكاد لذلك ان تصطدم بالباب .. وتوارت .. وبقي سامح فى مكانة يفكر فى معنى نظرتها ويصغى الى دبيب أقدامها الحبيب وهو يتباعد ويتخافت وصوت مبهم فى أعماقه يهتف به " إنها آخر نظرة .. آخر نظرة ..! .. قم أنظر

إليها من النافذة .. أظفر منها بنظرة أخرى فإنها آخر مرة .. آخر مرة ! " .. فانتفض من جلسته ووثب الى النافذة .. ثم اكتسح البوابة بنظراته ال لهفى .. ورآها تتوقف لتبادل الشرطى كلمة او كلمتين متعمدة حتى تستدير وتوجه الى النافذة نظرة أخيرة عسى أن تراه فرأى .. سامح وجهها الذى لم تكن ملامحة واضحة على البعد .. واضحا غاية الوضوح .. وكأنه أقرب إلي من حبل الوريد ويبدو ان الشرطى قد إنتهزها حين ساء ه أن تنشغل عن الثرثرة معه بتأمل تلك النافذة التى لم يكن يدرى ماذا تمثل لها .. إذ إلتفت اليه بغته .. وفى لحظة .. كانت الأسوار اللعينة قد غيبت ظلها الحبيب .. ربما للابد .

- 26 -

كل شىء إنحدر من سرىء الى أسوأ بعد زيارة الام تلك .. التى اشعلت اللحظات الاخيرة فيها الحرائق فى قلبه وعقله ووجدانه .

ثم حدث بعد ذلم مالك يكن فى الحسبان .. تخلفت الام عن الزيارة التالية .. فأعطته بذلك وقودا ممتازا لتغذية أوار تلك الحرائق وتأجيج ضرامها .. إذ كان لهذا التخلف معنى واحد ا لا ثانى له .. هو ان ظنونة ووساوسه بأحوالها المتدهورة التى أنفقت جهد ال يائس فى مداراتها عنه إبان زيارتها الأخيرة أدلة كافية للتصديق عليها .. فان تخلفها هذا سيد الادلة .. لاسيما أنه كان يوقن بانه لا يفرق بينهما شيئا غي المرض او الموت .. وكلاهما سجن ..

وقد ضاعف من جيشان الآلام فى كيانة حتى شملت كلة خلية من خلاياه .. أن الكهل العجوز ساءت أحواله هو الآخر بغته .. بعد أن أمضه إنتظار مجىء الأم فى هذا اليوم الذى لم ير سامح فى حياته يوما أنكد وأقتم منه .. وكان الاثنان ينتظرانها جنبا الى جنب فى نافذة غرفته .. ويتبادلان بين الفينة وا لأخرى نظرات يتسرب اليها اليأس رويدا .. متعقبا بجيوش فلول الأمل الذى لم ينحدر إلا بعد أن رنت الأجراس معلنة إنتهاء الزيارة ولم تأت

الأم بعد يا إلهي .. فى تلك اللحظة تأوه سامح من كبد مفطورة .. واعترت وجه الكهل كآبه
لا نهاية لها .. واندفع خارجا لأنما يهرب من هزيمة ساحقة لحقته ..
وبعدها لم يره سامح حيا ابدا .

كان لابد له من أن يراها .. وإذا كان هذا مستحيلا تحقيقه فى غير يوم الزيارة الذى كان لا
يستطيع بأى حال إنتظاره .. ولو إستعان الآخرون عليه بآخر ما توصلت اليه قريحة العلم
من وسائل العجم والثويم .. لأن أعتى تلك الوسائل فعلا لم تعد تؤثر فيه .. ليقظة آلامه
التي كانت تتطلب علاجا من نوع آخر لا يتوفر فى هذا المستشفى وإنما فى البيت ..
وإذن فلا وسيلة غير إنهاء وجوده نهائيا - أو مؤقتا - فى هذا المكان فكيف يتسنى له ذلك
وإدارة المستشفى لن تفلته .. والفرار أمر صعب أيضا .. وإن يكن أقل إستحالة .. ولذلك
جعل كل همه فى تلك الأيام تحين فرص الهرب فلم يكن يمكث بغرفته إلا قليلا .. ويقضى
معظم وقته فى التجول بالحديقة للبحث فى اسوارها عن نقطة ضعف واحدة او ثغرة ينفذ
منها .. الامر الذى لم يوفق اليه ابدا .. فقد كانت الاسوار تطالعة متحدية بعلوها ونعمومة
لمسها الذى ذكره - ولا يدرى كيف - بنعمومة الملمس الزلق ليد تلك الأنثى فى الإصلاحية
وبات يقينا لديه أنه لا منفذ غير البوابة الرئيسية التي يحرسها هذا الشرطى الذى لا يكاد
يفارقها لحظة .

على أن حدث فى صباح أحد الأيام بينما كان يذلف الى الحديقة مبتدئا هذا اليوم جولة
تنقيب أخرى ضائعة أن خيل إليه أنه يرى على مرمى بصره بجوار ال سور جسدا مسجى
بين العشب وأخذ الفضول ومنظر الجسد الذى لا حراك فيه فه طع اليه ركضا .. وهناك
وقعت عيناه على آخر وأبشع ما كان يحب ان يتصوره أو يفكر فيه ..

رأى الكهل العجوز منكفئا على الأرض وقد أمد ذراعيه فى اتجاهين متوازيين بطول جسمه
كما لو كانت آخر حركة عالج بها الحياة هى التضرع الى السماء لتبعث اليه أحدا ينقذه على
حين ألصق خده بالأرض فوق بقعة من الدم المتجمد لذى كان ينبثق منه خطان مستقيمان

من طاقتى أنفه ليختلط بدم تلك البقعة .. ورأى سامح - بللهول كله - جانب وجهه الآخر الذى فر منه الدم وتخرثر مالها أذنه وما تحتها مغرقا عنقه وقباء ثوبه .. وكأن إنفجارا قد وقع له فى شرايين المخ .. أو لأنه كان يصارع - بتغيب الأم - الشيطان نفسه بينما كانت إحدى يديه تنطبقان على زجاجة فارغة من الكحول .. وقد زاغت عينا ه وتحجرت نظراتها فتفجرت دموعه وصرخ :

- عبد النور المسكين ..

ثم لم يحتمل المنظر فاخذ يجرى من هول الرعب والوله كالمجنون فى اتجاه البوابة التى تصادف ان كانت مفتوحة على مصراعيه ا فى تلك الآونة بالذات لإدخال إحدى عربات الإسعاف .. ومن المسافة الضئيلة التى كانت تفصل العربة عن جسم البوابة إنسل وهو يكاد يصطدم بها لينفلت من ورائها .. ولمحه الشرطى فصاح فى الشارع الطويل الخالى الذى أوغل فيه سامح :

- أمسكوه ..

ثم انطلق فى أثره وهو يردد تلك الصيحة بين وقت وآخر فى سرعة اظهرت مدى ما ينطوى عليه سامح من قوة ومران .. ومن رغبة شديدة فى الفرار من هذا الجنون ومن حسن حظة كانت رعى المطاردة تدور فى حى للعمال الفقراء الذين لا يتعاطفون مع رجال الشرطة فلم يعترض سبيلة أحد وكان يرى باطراف عينيه وهو يركض بع ض العمال يقفون فى هدوء على جوانب الشارع ويتطلعون اليه والى الشرطى الذى استمر يصيح مرردا :

- أمسكوه ...!

ورغم أن أمله فى الإفلات منه كان واهيا .. لكنه ثابر على الجرى وتحاشى ما امكنه ذلك مفارق الطرق التى كان يعلم أن رجال شرطة المرور على الاقل يتمركزون بها وكانت ميزته الوحيدة التى يتفوق بها على الشرطى انه كان يندفع بملابسه الخفيفة بقوة رغبته فى التخلص من آلامه ورغبته وشوقه لرؤية امه والاطمئنان عليها .. بينما كان الآخر

يجرى بملابسة الرسمية الثقيلة .. ليؤدى واجبه الوظيفى فحسب .. فكان يجرى - او بالأحرى يطير - وإذ هو على مسافة قصيرة من مفترق طريق صادف ه سرعة خاطفة .. لمح أمامه بالقرب منه شرطيا آخر .. أسرع لى رؤياه يتخفى وراء أحد الأبواب لينقض عليه فى اللحظة المناسبة .. ولحسن حظة وافته قوة قفز بها قفزة عالية جدا فى الهواء لحظة عبور ه المكان الذى توارى فيه الشرطى واستدار من قفزته مباشرة الى الشارع المتقاطع .. وبعد خطوات قليلة .. وجدا يدا تمتد من احد البيوت .. وظن هو فى مبدأ الامر أنها يد شرطى ثالث .. فسقط فؤاده وانهارت قواه واستسلم لليد التى جذبتة الى مدخل بيت مظلم .. بينما صاح صوت هامس :

- لا تتحرك .. او تصدر صوتا ..

ونظر سامح الى صاحب الصوت وهو م تقطع الأنفاس .. محمر الوجه .. ملبد الشعر فوق رأسه .. فلذا به يرى من ..

- عارف !!

صاح مأخوذا فى همس م لتقوم يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وضغط صدره فى صدر صديق ه .. لأنه لا يدرى ما يفعل فقال الآخر وهو يربت على ظهره بأنامله ويستمع بانقباه شديد إلى وقع أقدام الشرطيين التى كانت تدق أديم الشارع بالأحذية الثقيلة بعيدا عنهما :

- حمدا لله .. لقد إبتعدا ..

وجلس سامح على الارض ليسترىح من هذا العناء الذى تج شمه .. فركع عارف بجانبه ومر بيده عدة مرات فوق شعره وراح يتطلع اليه .. فبادله سامح نظراته وأخذ يتفحص وجهه وثيابة ويقول فى نفسه " لشد ما تغير " ثم تمتم وهو ينهض متألما :

- اننى على ما يرام الان ..

سأله رفيقة وقد ناله بعض الخجل من نظراته المتاملة إخرقت ملابسه الرثة :

- هل أنت واثق ..؟

ثم صمت لحظة واستدرك وهو يرفع رأس صديقه التى كانت قد إنحنى بغتة على صدره من فرط الإهراق :

- اذن .. هيان بنا ..

ودفعه صديقه للأمام وهو يهزه من كتفيه لينشطة وأضاف :

- إنك قلت أنك على ما يرام فى حين أنك مرهق بشدة ..!.. آه .. كم كان سباقا ممتازا ..
لحسن الحظ لمحتك وانت تجرى امام الشرطى ففكرت بسرعة وانتظرتك على أمل أن تمر
أمام هذا الباب وكنت انت عداء ممتازا لكن حظك كان أكثر إمتيازاً لأنه كان محتملاً جداً ان
تمر بعيداً عني او تخترق الشارع الآخر !

غمغم سامح :

- لقد كنت فى غاية الرعب والإرهاق قبل ان أبدا الجرى .. آه .. رحم الله هذا الكهل التعس
..

فقال عارف :

- رحم الله كل الناس .. لا يوجد حد للطاقة البشرية ..

فأمن سامح على قوله بهزة من رأسه وقال :

- معك حق .. لا شك فى هذا ..

واجتازا شارعا طويلا قبل ان يعرجا الى ذلك الشارع المزدحم الذى يقع البيت فى نهايته
حينئذ توقف عارف فجأة وسأله :

- الى اين نحن ذاهبان ؟

فأجابه دون ابطاء :

- الى البيت طبعاً ..

ورمقه صديقه دون ان يتفوه بكلمة بنظرة حار هو طويلا فى إدراك معناها لكنها كانت على
الاقل نظرة توحى بالحزن او الأسف لوقوع أمر ما .. فأمسكه بخوف من ذراعه وصاح به :

- ماذا حدث ؟ اوقع لامي ش..

قطع سؤاله .. وابتلع ريقة فى مشقة ثم انطلق يجرى كالمخ بول جزعا وهو يسمع وجيب قلبه الخافق الى البيت .. مصطدما دون قصد بالمارة الذين كانوا يتوقفون وينظرون اليه بغیظ وفضول فى صمت او يسبوننه على إندفاعه الأعمى .. الى ان بلغ البيت ووقف ثمة يسترد أنفاسه واضع ا يده بحركة لا إرادية تعودها فى موضع جيبة يلتمس المفتاح .. فامسكت يدة الفراغ وأكتشف فى تلك اللحظة فقط انه ترك المفتاح فى جيب سترته التى خلعوها عنه بالمستشفى والبسوة بدلا منها هذا الجلباب الابيض المميز للمرضى والخالى من أية جيوب .. والذى كان يجرى به بين الناس غير مدرك لخطورة ذلك .. فان من يراه سيعلم لتوه انه مريض هارب .

وبينما كان يفكر فى هذا الامر شعر ان قلبه قد جمد فى صدره إذ تنهى الى سمعه من داخل البيت رنين قبلة .. وفى أثر ذلك سمع وقع قدمين خفيفتين تطاردهما قدما ثقيلتان .. فامتقع وجهه واتقدت عيناه غضبا ودمدم قائلا فى دهش وذهر :

- إنها تفر من رجل يحاول إنتهاك .. آه.. !

ثم تحول الى الباب فى فورة غضبة مزمعا ان يدفعه بكل خلايا جسده لينفتح لكن حدث فى تلك الآونة ان صك أذنيه صوت الرجل بالداخل يغمغم :

- راشيل .. راشيل .. يا حبيبتي .. إنى سعيد بمجيئنا الى هذا البيت .. سعيد بك اكثر .. فتسمرت أقدامه بالأرض وبرزت عيناه من محجريها ذهولا ورعبا وتساعل ليطمئن نفسه " راشيل " .. ؟ تكون أمى قد أجرت البيت لعروسين يهوديين ؟ ثم رن فى أذنيه صوت راشيل وهى تهمس :

- انت حياتى يا ادلف .. انت سعادتى وحياتى ..

وانفجر فى ذهنه فجأة خاطر رهيب وقف له شعر رأسه لما استبعد ان تكون امه قد قامت بتأجير المنزل .. فضرب الجدار برأسه وأخذ يصيح كالمحموم :

- مستحيل .. كابوس .. كابوس ..

ثم ركع وعقد يديه فوق صدره وهتف من أعماق قلبه :

- رب .. اكتب لأمي السلامة في كل لحظة .. واغدق عليها الرحمة .. وامنحها نصيبي من

الامن والطمأنينة في تلك الحياة .. لا ... لا ... امنحها نصيبها هي .. فأنا .. انا ..

ولم يستطع ان يكمل دعاءه فانفجر منهارا بالدموع ثم فكر ان يتحقق اكثر من صدق هذا

الإكتشاف المرعب فوثب ليترك باب الجارة زينا .. لكنه قبل ان يلمس الباب بأنامله

المرتجفة سمع صوتا من النافذة التي تعلوه يسأله بلكنة عربية " ماذا تريد يا فتى " ورفع

رأسه ليرى امرأة شمطاء مبهوتة الشعر تبدو كأنها إحدى البغايا .. وكان يكفيه ذلك دليلا

فكس رأسه على صدره وارتد الى بيته .. او بمعنى أدق الى ما كان بيته مواصلا جهيشه ..

وراح يستعرض ذكرياته فاستحال ألمه حقدا وموجدة وهتف :

- مستحيل .. كابوس .. أو هام .. أو هام ..

وحانت منه إلتفاتته الى البيت المقابل فرأى شابا ذهبى الشعر يطل من شرفته بدلا من الكهل

ملتقط الاطفال اليتامى الذى يعرفه .. فواصل هتافه وهو يمزق صدره باظافرة قائلا :

- حلم فظيع .. انى أقهر ذلك .. أجل حلم ..

والقى بنفسه على الارض وعاد الى البلاء المر وهو يغمغم :

- انتهى كل شيء .. فالويل لى .. لن أراها بعد اليوم .. حملوها قسرا الى أحد المخيمات

بالقطع .. لم أكن افكر تفكيراً سليماً .. كان يجب ان اهرب منذ وقت طويل .. تركتها لهم ..

تركتها وحدها .. آه .. انا جبان ..

وراح يضرب الجدار برأسه ويصيح :

- نعم .. جبان .. جبان ..

الى ان فقد رشده ...

دعا الشتاء الرياح العكسية لزيارة مفاجئة للمدينة فجاءت على عجل تهدر وتعوى وتهدد خلق الله من فوق الأشجار والجدران .. ثم ما لبث ان جاء رفيقتها البرد فى أعقابها يصفع كل ما يقابله فى وابل عنيف .. فتحطمت الألواح وأرخت الاشجار سواعدها مسقطه عنها أفراخ الطيور الوليدة .. واحتدم غضب السحب فتجمعت وابرقت وارعدت وارسلت صاعقة على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا .. ثم تجشأت سيول المطر .. حين ثاب فتى يدعى سامح الى رشده .. وهب مذعورا يركض هائما على وجهه فى الطرقات دون ان يبالي بالمطر المتساقط الذى اغرق جلباب ه الابيض الخفيف فالتصق بجسده الذى طالما عذب ه وجوده .. وطالما حلم بماء ربانى يغسل أدرانه ويظهره .. وها هو الحلم المنشود قد صار حقيقة واقعة فكيف يحرم منه نفسه ويهرع كما يفعل ال ناس الى بيوتهم إلتماسا للدفع والحماية .. واين هو هذا البيت أصلا ؟ .. انه اذن ابن المدينة .. ابن الشارع .. ابن الشوارع .. ابن الغيث .. ابن الطبيعة .. ابن الحرية .. فليشهق باكيا حتى تتقطع منه الانفاس وليغص فى الوحل حذاؤه .. فانه لن يتريث ليلتقطه .. ماذا تفيد الاحذية .. ؟ وانت ايتها الرياح القاسية .. ويا هذا البرد الغاضب اصفعا وجهه .. انه لم يعد يحس بشىء بعدما فقد امه و بيته ومدرسته .. وفقد ايضا قدرته على التفكير فيما كان وما هو كائن وما سيكون .. أقدامه هى التى لم تفقد قدرتها على الحركة فقط .. ! .. إنه يجرى .. واطراف جلبابه الجوعى تنهش مائدة الوحل الدسمة .. إنه لا أحد غير وغير هذا الكلب الذى وثب من إحدى الزوايا ليجرى خلفه ويبصبص له بذيلة لاهثا يحييه تحية حيوان .. لحيوان .. يتعرضان لظروف قاسية واحدة .. لا احد غيرهما فى الشوارع .. فلم لا يتصادقان وفى اعماقهما بذور للتوافق متشابهة ..

- سامح .. سامح أياه الصديق .. انتظر لا تجر اريد ان اقول لك كلمة ألا تعرفنى .. ؟ انا صديقك عارف لماذا غبت عنى كل هذا الوقت .. ؟ كنت انتظر اوبتك .. اذن فقد عرفت كل

شئ .. سامح الا تسمعنى ؟ .. تجرى فقط .. وسح غنى ألهث الى جوارك .. يا الهى اين انت
ذاهب .. لا اخالك تذهب بقدميك الى تلك الإصلاحيه اللعينة ..

- ها ... ها

- سامح .. اسمعنى فقط .. اريد ان عقد معك اتفاقا .. لا ... بل اريك اخبارك بأمر هام ..
توقف فقط .. اتسمعنى ؟

- ها .. ها ...

- سامح .. اسمعنى فقط .. اريد ان اعقد معك اتفاقا .. لا .. بل اريد اخبارك بامر هام ..
توقف فقط .. اتسمعنى ..

- ها ... ها ...

- سامح .. ايها الرفيق العزيز .. لماذا لا تقول شيئاً .. تضحك فقط ..

- ها .. ها ..

- سامح .. لقد ادركت كل شئ .. عرفت من انا وماذا اكون ؟ استيقظت .. لن اعود الى
التسول فى الطرقات سائلا الاقوام المرحين حسنة سيئة ..

- ها .. ها ..

- سامح يا رفيقى .. توقف .. رباه .. انك تبتعد عنى .. ستندم حياتك كلها ان ذهبت عنى
ضاحكا ..

- ها .. ها ..

- انا رفيقك عارف .. ان التلميذ الاول بالمدرسة فى العام الماضى .. أتذكر ؟

- ها .. ها ..

- سامح .. انفاسى ضافت .. انى الهث .. لم اعد استطيع ملاحقتك .. قد تصمغت أقدامى
بالارض .. سامح عد الى .. قد عرفت الطريق الصحيح .. الطريق الذى يؤدى الى التلال
خارج المدينة .. عد الى نذهب معا .. هناك بعض الاخ وان .. ينتظرونا .. هناك سنصرخ

غضبا حتى تتجاوب أصداء صراخنا فى جنبات الأرض .. سامح .. عد الى .. عد .. يا الهى
لا فائدة .. يخيل الى انك مسير يرداة ما الى تلك الإصلاحية اللعينة .. لم تعد تطيق صبرا ..
تريد حقك سريعا .. مع انهم قد يزهقون روحك .. يا الهى .. إبتعد .. إبتعد ضاحكا .. قد جن
جنونه .. لم أعد أراه .. يلاحقه كلب ..!

ومازالت الريح العكسية تهدر وتعوى وتهدد خلق الله فوق الاشجار والجدران ورفيقها
البرد يصفع كل ما يقابلة فى وابل عنيف .. والالواح تتحطم .. والاشجار ترخى سواعدها
مسقطه افراخ الطيور .. والسحب يحتدم غضبها فتتجمع وتبرق وترعد مرسله صاعقة
على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا .. ثم تتجشأ سيول المطر ووجد الفتى نفسه يدفع
بابا ويدخل ليرى أنثى جالسة جلستها الأبدية مع أشغال الإبرة الأبدية أنثى بيضاء الوجه ..
صفراء الشعر .. صفراء الأعين .. صفراء البسمات .. أصفر لون الصوف الذى تنرجه بين
أناملها الوردية .. والتى ما ان وقع بصرها عليه حتى إنتفضت مأخوذة بالجزع والفضول
وسألته :

- كيف هربت من المستشفى ؟ كيف تسنى لك ان تهرب ؟ ولماذا جئت هنا ؟ نحن لم نعد
بحاجة اليك .. عد من حيث أتيت ..

فانهمرت الدموع من عينية من شدة الغيظ والحقد والغضب .. ومضى يخترق الردهة غير
مبال بتلك الانثى آخذا طريقه الى باب يقبع خلفها .. فحالت بينه وبين ذلك و دفعته فى
صدرة بعيدا وهى تصرخ فى وجهه :

- اتظن انك تستطيع معاودة تمرين عضلاتك ؟ ماذا تظن نفسك ؟ ايها المغرور المتعالى ..
فتجاهل صراخها وعاود الكرة محاولا اقتحام الباب .. فدفعته دفعة اخرى أعنف وتعالى
صياحها :

- ايها المجنون .. انك ترمى الى تمويتنا غيظا .. ساقطك ان اقتربت من هذا الباب ..

والتفت الفتى الى الباب الخارجى الذى كان قد انصفق بفعل الرياح وهو ينفث رويدا مصدرا صريرا اخذا ليرى اللطب الذى كان يتابعه .. يطل برأسه كأنما يستأذن فى الدخول .. حينئذ إفتقر شجرة عن إبتسامة هائلة واعتمل فى قلبه الحب والتقدير لهذا الصديق الوفى الذى تعرف عليه حديثا .. وغامرته نشوة اشعت فى راسه نورا غامرا .. فقرر ان يحاول الدخول من هذا الباب مرة ثالثة ولتمت تلك الانثى بغيظها وإذ هو يخطو اليه تضرعت هى له ثم قفزت أمامه بحركة فجائية قفزة حائقة وأنشبت أظفارها فى عنقه تريد خنقة .. فاهتاج وقبض ببيدة على معصمها قبضة قوية انغrust انامله لعنفها فى لحمها الذى يضاهى نعومة الخز .. فاوجعها وافلنت عنقه وهى تعوى وتهذى .. وما هو الا ان استرد انفساسه اللاهثة والقى نظرة الى الكلب الذى كان قد دخل ووقف بالقرب من الباب يرقب ما يدور امامه كأنما يفكر فيما اذا كان من واجبه ان يتدخل .. ومرة ثانية اعتملت فى فؤادة كافة المشاعر النبيلة لهذا الصديق الوفى الذى تعرف إليه حديثا وخامرته تلك النشوة واشع هذا النور فى رأسه .. وتحرك قاصدا الباب فانقدح الشرر من عيني الم راة وطاش صوابها فانقضت عليه وطرحته على ظهره ارضا .. فى هذا الوضع المخل بالشرف ان لم يكن هناك رباط مقدس .. ثم رمت بنفسها فوقة .. واعيلت فيه اظفارها واسنانها .. فصرخ بالكلب لدهشته وذعره مستجيرا :

- الحقنى يا صديقى ..

وكأنه محض خيال ما حدث .. اذ لى الحيوان الاعجم نداءه .. فنبج نباحا غضوبا .. ثم وثب على ظهر الانثى من الخلف وغرس فى مؤخرتها مخالبه القاسية ممزقا ثوبها .. وما تحت ثوبها حتى بان من خلال المزوق طلائع اللحم الابيض .. فصرخت صرخة مروعة وانكمشت رعبا وهى ترتد للوراء فى انتفاضة متكررة .. اختل لها توازنها فانقلبت على ظهرها .. وتغير الوضع الى النقبض تماما .. ها هو سامح ينتصب على قدمية فى جنون ..

ثم ها هو يرمى بنفسه فوقها ليأخذ هو دوره فى نشب الاظافر .. وتأخذ هى دورها فى الانسداد على الظهر .. فى هذا الوضع المخل بالشرف ان لم يكن هناك رباط مقدس .. ثم ها هو يتذكر تلك النظرة الزجاجة التى رمتها بها حين كان الشاب يفترسه .. فمضى يمزق عنها ثوبها .. ويمزق صدرها ونهديها بأظافره ويتوعد الشياطين كأن به مس من الجنون ويصيح :

- انا انا أنا انا

وكان الكلب يشاركه الغرس والتمزيق .. الى ان تحولت اثوابها كلها الى نتف صغيرة .. ملقاه هنا وهناك فى ارجاء الردهة .. وتعدت تماما .. وغامت نظراتها .. وتملكتها مشاعر الرعب .. ومزيج من المهانة والابتئاس .. فجعلت تصرخ وخرجت صرخاتها همهمه مبجوحة مكتومة .. واستسلمت خائفة القوى لنظرات الفتى والكلب التى راحت تلهب جسدها العارى الدامى .. بخليط من التشفى والإنبهار بالمفلتن الخلافة التى راحت تزلزل اعماقها موقظة غزائر لم تنضج فى احدهما بعد .. وكانت فى الآ خر ناضجة الى حد كان ينذر بوقوع .. أمر مروع .. حال بينه وبين التحقيق حيرة هذا الآخر من إختلاف النوع .. وان كان يدرك غريزيا هذا التماثل التام الذى رآه يجمع بين تلك الانثى وبين اناث اخريات عرف طريقة اليهن فى الطرقات والخرائب .

وما زالت الريح العكسية تهدر وتعوى وتهدد خلق الله فوق الاشجار والجدران .. ورفيقها البرد يصفع كل ما يقابله فى وابل عنيف .. والالواح تتحطم الاشجار ترخى سوا عدها مسقطه افراح الطيور .. والسحب يحتدم غضبها فتتجمع وتبرق وترعد مرسله صاعقة على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا .. ثم تتجشأ سيول المطر ..

وكان سامحا قد ادرك ما يفكر فيه الحيوان وهو يدور حول جسد الانثى التى راحت ترقب تحركاته حولها وهو يزوم ويسيل لعابه على شذقية فى هلع يحدثها قلبها المخلوع بما يفكر فيه .. فأسرعت تستر عرى جسدها بيديها اللتين تحيرتا فيمن يكون له الأولوية فى الاخفاء عن الاعين .. فراحتا تتخبطان بين اجزاء هذا الجسد العاتى الشامخ الذى ذل وانسحق غروره .. مما اهاب بالفتى ان يسارع بانتهاز الحيوان ويلعبادة عنها .. مفهما اياه انه حتى للانتقام من هؤلاء الاوغاد الذين سلبوا منه كل شىء أرضع المنزوعة السلاح وحدوده التى ينبغى ان يؤمنها بنفسه وبدا له ان الحيوان قد تغيط منه لإ حالته بينه وبين تلك الانثى الناعمة المترعة بالمفاتن التى تجندل اعماقه حيث كشر له عن انيابة وبات وشيكا انه سينقض عليه فى عماية غرائزه السائلة على شذقية .. فتقهقر الى الحائط مذعورا حتى اصطدم ظهرة به وتعطلت حركته لما رفع الحيوان قدمية الاماميتين ودفعهما فى صدره مبقيا اياه فى حالة شلل تام .. وهو يزمر فيه ويبعث اليه من عينية شررا ملتهبا .. دون ان يفعل اكثر من هذا فاستسلم له سامح وابتسم ابتسامة ساخرة عندما حانت منه التفاته الى المرأة المطروحة على الارض .. مقارنا بين ما كان يفكر فيه وما انتهى اليه الحال من تعطيل الحيوان من حركته وكأنه هو الذى يمنعه من اتيان هذه الفعلة الشنعاء . واستمر هذا الوضع وقتا ليس بالقصير .. حين تناهى الى سمع ثلاثتهما اصوات غليظة يقترب اصحابها من المكان .. صاحت المرأة صيحة استغاثة .. ودمدم الفتى بالغضب من رؤيته الغرض الذى جاء من اجله فى هذا المكان يوشك الا يتحقق .. وفى ذات الوقت اهتاج الحيوان لدى سماعه تلك الاصوات .. ففك اسرة .. ثم انطلق خارجا يقصد مهاجمة هؤلاء الاشخاص .. وعلى الفور هرول سامح مخترقا الباب واندفع من خلال الباب الثانى الى تلك الغرفة المظلمة الاركان الا من حزم متراسة من الضوء تنحدر فى استقامة من تلك الكوة

قرب السقف .. ووجد المطرقة وقطعة الحديد على الوضع الذى تركه عليهما .. وفى الحال
التقط المطرقة ثم هوى بها على قطعة الحديد وهو يزمجر صارخا :

- المعلم نور الدين الظواهري هو الذى بنى بيتنا ..

وانفصل عما يدور بالخارج كلية إذ والى الطرق والصراخ مرددا مقولته العزيزة وهو يشعر
انه مع كل طرقة وكل صرخه يستعيد لروحه شيئا ضائعا وما هو الا ان رأى دون ان يتوقف
- الشاب الذى اغتصبه والمهندس ... " الون " يدخلان عليه مهاجمين اياه فى محاولة
لانتزاع المطرقة منه .. فالتصق بالحائط ولوح لهما بالمطرقة مهددا ولا زال يصرخ :

- المعلم نور الدين الظواهري هو الذى بنى بيتنا ..

اما الآخران فلم يأبها لتهديطاته ووثبا عليه كل من جانب ثم قبضا على ذراعيه قبل أن تهبط
المطرقة على رأس احدهما .. وأسرع أحدهما باختطافها من يديه وألقاها بعيدا فاصطدمت
بالجدار وهوت إلى الأرض .. على حين أسرع الآخر بشل حركته ولف ذراعيه حوله ثم
حمله حملا .. قاصدا به الخروج من الغرفة .. وهو يتلوى ويدفع ساقية فى مختلف
الاتجاهات .. محاولا التملص منه مردا :

- المعلم نور الدين الظواهري هو الذى ..

وأسكتت صوته دفعة واحدة ضربة من قبضة يد لطمه بها الثانى على أم رأسه وهو يقول :

- نور الدين الظواهري من يابن العاهرة ؟! .. ستعلم حالا من الذى بنى بيتكم القذر !

وكانت الضربة من العنف بحيث افقدته وعيه فاستلانت عضلاته وأرخی ساعديه وتدلّت
رأسه .. على حين كانت الريح العكسية تهدر وتعرى وتهدد خلق الله من فوق الأشجار
والجدران ..

وبعد ثوان قليلة دخلا به الغرفة المقابلة التي لم يكتب له اى يرى ما فيها ابدا .. ولو انه كان فى تمام وعية لرأى انه قد خلع عنه ثيابة تماما .. ثم ارقداه على ظهره فوق منضدة طويلة من الحديد المثلوج .. ودفعاً برأسه داخل نطاق مثبت على الجانب القصير من المنضدة - والذي يمكن فتحه وغلقه بتحريك حزام جلدى مرن فى الجهة العلوية منه واحكما اغلاق هذا النطاق بقفل حول عنقه .. وفعلا نفس الشيء مع يديه وقدميه اذا كانت هناك اربعة نطاقات اخرى اثنان منها على الجانبين واثنان اخران فى الجانب المقابل للرأس عند القدمين .. وبهذا شلا حركته كلية ..

ثم لو انه كان فى تمام وعية لرأى ان احدهما قد إستدار الى آلة يبدو وانها تتحرك على محور طولى بامتداد المنضدة .. وتتكون اساسا من جزئين .. الاول يشبه الالة الكاتبة فهو يحتوى على عدة صفوف من الحروف الابجدية .. وهذا اهم ما فيه .. والثانى يشبه الى حد كبير ماكينة الحياكة بكل اجزائها وطريقة عملها .. الا انه بدلا من الابر فى المقدمة يوجد اصبع من الفولاذ مدبب القمة بميول مستديرة يشبه بالضبط اصبع احمر الشفافة فى حجمة وهينته .. وقام بتنظيم حركة حروف بعينها منها مع إبطال حركة حروف اخرى بواسطة جهاز منظم فى احد جوانب الجزء الذى يشبه الاله الكاتبة .. وحين تم له ما أراد بالتحديد .. أشار بحركة من رأسه الى زميله بان يقوم بتشغيل الآلة .. التى ما ان قام هذا بتوصيل دائرتها الكهربائية حتى تحركت أجزاءها وبدأت حوامل الحروف تتحرك هبوطا وصعودا حول محور رأسى .. ثم الأهم من ذلك بدأت الالة هذا الجزء الذى يشبه ماكينة الحياكة تتقدم للامام متحركة على المحور الطولى حركة بطيئة منتظمة .. نحو جسد الفتى .. وفى مقدمتها تتحرك " صعودا وهبوطا " هذا الاصبع الفولاذى .

وحيثما أصبحت الآلة فوق صدره تماما .. أصدرت صوتا يشبه الانذار .. ثم بدأت تهبط الى اسفل متحركة في ذات الوقت الى اليمين عند اول كتفة .. وفي تلك اللحظة كانت الطاقة الكهربائية قد تحولت فيما يبدو الى طاقة حرارية في هذا الاصبع الذى احم من شدة حرارته .. وما هو الا ان انغرس فى لحمه " صعودا وهبوطا " بعمق نحو سنتيمتر وعلى الفور اندلع صوت يشبه صوت " السرم " المغلى حين ينثر على سطحه بعض رذاذ الماء وتصاعدت ابخرة وروائح اللحم المحترق .. الذى كان الاصبع يعربد فيه متحركا باتساع الصدر الى الجانب الايسر .. وحين يضع نهاية هذا السطر تراجع الى الخلف مقدار بوصة .. ثم وثب الى اليمين ليبدأ السطر الثانى .. وهنا برزت على السطر الاول الكتابة الغائرة فى لحم الفتى .. واقترب منه الرجلان فى توقيت واحد ليقرا تلك العبارة " المهندس الون هو الذى بنا بيتنا " فاطمنا الى ان الآله تعمل بدقة وانتظام وتبادلا نظرة تفاهم وارتياح ثم خرجا من الغرفة .. واغلقاها خلفهما فى هدوء وهنا يصغيان الى صوت الآلة التى راحت تكتب وتطرز جسد الفتى بينما كانت الريح العكسية تهدد وتعوى وتهدد خلف الله من فوق الاشجار والجدران ..

كانت المرأة فى الردهة قد استغلت الوقت الذى انشغل فيه الرجلان بأمر الصبى فى اصلاح شأنها .. فظهرت جراحها ثم ارتدت ثوبا اخر ونسقت شعرها ونثرت بعض الذرور على وجهها لتخفى معالم التشوية الذى ناله من الاظافر .. وحين تم لها ذلك على وجه مرض .. جلست على مقعدها تنتظر أوبة الرجلين وتسلى نفسها باشغال الابرة الى ان عادا اليها .. عندئذ .. اقترحت عليهما ان يشربوا كأسا من البراندى تحية لتلك المناسبة السارة التى تخلصوا فيها نهائيا من متاعب هذا الفتى العنيد .. فرحب الاثنان باقتراحها وهما يقعان

بالضحك ويرعدان .. بنشوة الانتصار .. وانخرط ثلاثتهم فى تجرع الكئوس وتبادل الانخاب .. ومداعبة بعضهم البعض .. مداعبات لم تكن تخلو من عبث ومجون .. وهم يصغون فى الوقت ذاته لهدير الالة الذى بدا لهم جميلا يشنف الآذان .. الى أن سمعوا فجأة صوت طرقة عالية صادرة من الغرفة .. وادركوا ان الالة قد انتهت لتوها من تطريز جسد الفتى حينئذ قام الرجلان فى تناقل وتجرجع النخب الاخير .. ثم تسائرا نحو باب الغرفة وتعازما امامه ايهما يدخل اولا .. وبعد ان ازعن احدهما للاحق الاخر دخلا الغرفة وراحا يطعلا ن ويمسحان الادمع التى فرت من اعينهما من فعل الابحرة ورائحة اللحم الشائط التى تشبه رائحة الكاوتشوك المحترق .. والتى تشبع بها جو الحجرة .. وهما يسبان الفتى وايامة بأقذع سباب .. وفى خلال ذلك فصل احدهما الدائرة الكهربائية فتوقف ازيز الالة وتوقفت ايضا حركتها قبلما تتجه بها نحو ذلك الجسد لاعادة الكرة .. وتقدم الثانى الى الصبى وشمل جسده بنظرة واحدة .. متأملا السطور الغائرة فى لحمه المتهرى ء بتلك الكلمات عن ذلك المهندس الذى بنى هذا البيت .. ثم اطلق ضحكة منتشية .. والصق اذنه على صدره برهة دون ان يلمسه قائلا :

- انه لم يعد يتنفس .. لكن قلبة مازال ينبض ..

- ارنى هكذا ..

والصق الثانى اذنه ثم اعتدل قائلا بدوره :

- معك حق .. مازال قلبة ينبض .. كما لو كان يرفض هزيمته .. هه .. ! هذا .. الاحمق ...!

فقال الاول :

- وماذا سنفعل بعد كل هذا ؟.. رباه .. فى جسد هذا الفتى قوة غريبة لا تتفق ونحوه ..!

وباستخفاف هز الثانى كتفية قائلا :

- عندى الحل .. هيا بنا نحمله .. أو .. ساحمله انا واخرج به .. ثم الحق بى انت حاملا هذا الحجر القابع هناك بعد ان تربط به تلك السلسلة التى كانت يوما لكلب ..!

قال ذلك ثم فكه من اسره وحمله على ظهرة كالحمل وخرج به .. وبعد لحظات لحق به زميله حاملا هذا الحجر وتلك السلسلة التى كانت يوما لكلب .. وسارا بجوار بعضهما يتبادلان الفكاهات فاخترقا اشجار الغابة فى اتجاه عمودى على الطريق .. تاركين خلفهما تلك المرأة واقفة بباب " اصلاحية المتفوقين الاسرائيليين العرب " تنظر الى المنظر المبهج امامها بغبطة .. وارتياح .. وترقب اختفاء الرجلين عن ناظريها وهما يغزان السير بين الاشجار .. التى لازالت الريح العكسية تقصف فوقها وتهدد وتلقى بافراح الطيور الوليدة على جسد الفتى وقد ارخت الاشجار سواعدها منحنية ما وسعها الانحناء .. كأنما تريد ان تربت على ظهره الصغير العارى .. مطيبة خاطره ..

خاتمة

فى فجر احد الايام التالية .. دوت الانفجارات بالاصلاحية .. اصلاحية المتفوقين الاسرائيليين العرب .. وعلى مقربة من السنه النيران واعمدة الدخان وركام الجدران .. برزت سارة " كالجنية " .. من احد المخابى الارضية .. وراحت تجرى وقد تطاير شعرها .. صوب الطريق المؤدية الى المدينة .. ثم بغته تسمرت اقدامها بالارض .. اذ وقع فى وهمها - على ما يبدو - ان صوتا تصاعد من الناحية الاخرى من الطريق قائلا :

- سامح حى .. سامح حى .. سامح حى !!

وروعها الصوت .. فتقهقرت بحركة فجائية اخلت لها توازنها .. فوقعت على ظهرها .. ثم اعتدلت بسرعة .. واندفعت بين الاشجار .. تعدو دون وعى الى البحر .. حيث هناك تضاعف رعبها .. اذ سمعت نفس الصوت يتردد مع خشخشة الاغصان خلفها .. وهدير الامواج امامها .

تمت بحمد الله

محمد بهاء الدين